

الإسلام

في الفكر الأوربي

الدكتور محمد شامة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

هــذا الكتاب

* الغرب مهدد بانهيار أخلاقى ، والاسلام يقف شامخا بين التيارات الهدامة المتصارعة ، له ماض مشرق فى انقاذ المجتمعات من الانحدار فى أودية الهلاك ..

* وقد دفع هذا بعض الغربيين الى دراسة الاسلام والبحث عن :

— عناصر قدرته على اقتلاع جذور المشكلة التى تهدد الانسان روحيا وفكريا ..

— ومعالم ما يقدمه للانسانية من نظام أخلاقى ينقذها من الانهيار الخلقى ..

* وهذا الكتاب « **الاسلام فى الفكر الأوروبى** » يعرض للقارىء مناهج الذين كتبوا عن الاسلام من الأوروبيين ، ثم يعرض لما ورد فى كتاب « **الاسلام قوة عالمية متحركة** » بالتحليل والنقد .

* فهو يبين كلمات الانصاف وعبارات المدح فيه ، كما يلقى الضوء على الجوانب السلبية فى فكر الأوروبيين عن الاسلام .

* وعلى كل مسلم أن يعرف النوع الأول للاستشهاد به على هداية الفكر البشرى الى الحق ، كما يجب عليه أيضا معرفة النوع الثانى والرد عليه لكى يكون مسلما صالحا يسد الله به ثغرة ، فى اظهار الحق ، وتجلية جوهر الاسلام .

* **والمؤلف** ليس غريبا على معالجة هذا الموضوع ، فانه جمع بين الثقافة الدينية الأزهرية ، والثقافة الغربية ، وقدم لنا من قبل كتاب « **الاسلام قوة الغد العالمية** » .. و « **الخطر الشيوعى فى بلاد الاسلام** » .. و « **بين الاسلام والمسيحية** » .. و « **أثر البيئة فى ظهور القاديانية** » وهى تنضح بالعلم الغزير والاطلاع الواسع .

* ويسر « **مكتبة وهبة** » أن تقوم بنشر هذا الكتاب لتقدم للمسلمين مادة علمية تساعدهم على الص[illegible] وجه التيارات المعادية للاسلام .

مكتبة وهبة

الدكتور محمد شامة

الإسلام في الفكر الأوربي

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـــة الأولى

ربيع الثانى سنة ١٤٠٠ هـ

فبراير سنة ١٩٨٠ م

دار التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبهـا ، فهى تمـلى
عليـه بكرة وأصيـلا • قل أنزلـه الذى يعـلم السر
فى السـموات والأرض ، انه كان غفورا رحيمـا »

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمتد جذور اتصال الاسلام بأوروبا المسيحية فى أعماق التاريخ حتى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) أى أن عمرها الآن يربو على ثلاثة عشر قرنا من الزمن ، ومع ذلك لم يزل الصراع متأججا بينهما ، وان اختلفت أسلحته وتباينت أساليبه فهو أطول صراع دينى فى التاريخ ، دينى بكل معنى الكلمة وان أطلق عليه البعض صراعا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا • لأن الكنيسة وان تنازلت مكرهة عن التوجيه المباشر فى شئون الدولة العلمانية فى أوروبا • فان تأثيرها لم يزل واضحا فى جميع مجالات الحياة فيها • اذ كان من الممكن أن يهدأ الصراع السياسى ، لو تحول الشرق الاسلامى الى المسيحية • والدليل على ذلك ما حدث فى ألمانيا فى هذا القرن ، فقد شنت حربين عالميتين فى مدى نصف قرن على دول الغرب المسيحية • ومع ذلك فقد انصب غضب أعدائها فى الحرب على أفراد معدودين فقط — وهم الذين شنوا الحرب بحكم موقعهم فى مراكز السلطة — واقتص منهم ، ثم ساعدوا — أى الطرف الآخر فى الحرب — الشعب الألمانى المسيحى على النهوض من كبوته ، لاصلاح ما دمرته الحرب ولو فعل الشرق مثل ما فعلت ألمانيا ، لأبيدت شعوبه ابادة كاملة ، لأنها تدين بدين غير المسيحية ، تدين بذلك الدين الذى غرست الكنيسة الأوروبية فى أتباعها غريزة الكره له ، بما نشرت عنه من معلومات خاطئة • وبما صورته لهم بصورة تنفرهم منه ، وتدفعهم الى معاداته ، والعمل على محاربته ، وملاحقة أبنائه أينما كانوا ، وحيثما وجدوا ، تدفعهم الى محاربتهم اقتصاديا ، لانهم لو انتعشوا فى هذا المجال لأصبحوا خطرا على أوروبا •

هكذا قالت لهم الكنيسة • وعلمتهم اياه مدارسهم المسيحية ، وأكدته لهم مؤلفات كتابهم • لتدفعهم الى بذل الجهود على كل المستويات — فى مجال الثقافة ، والاعلام ، وبين أوساط السلطة التشريعية والتنفيذية —

لتغير النظم الاجتماعية القائمة على أساس من الشريعة الاسلامية ، تمهيدا لتحويل المجتمع الى اعتناق وتطبيق النظم الأوروبية ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك — هكذا لقنتهم الكنيسة الأوروبية — لبقى اتصال هذه الشعوب بالاسلام قويا ، وربما ازدادت قوته يوما بعد يوم . فيصبحون مصدر تهديد للعالم الغربى .

وما قلق العالم الغربى لما يحدث فى ايران ، ولما يدور فى الشرق من المطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، الا انعكاس لما رسخ فى أذهانهم — عبر الأجيال الماضية — من الفزع والرعب من عودة الحياة الى الاسلام ، كنظام شامل للفرد والمجتمع ، نتيجة لدعاية الكنيسة ، عن الاسلام وأهله .

فالصراع السياسى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى يقوم على أساس دينى ، ولهذا اتجه المفكرون فى الغرب الى دراسة الدين الاسلامى ، والكتابة عنه ، غير أن الحديث عن الاسلام فى الاوساط الفكرية فى الغرب سار فى قنوات متعددة ، خرج من منبع واحد ، هو تعصب الكنيسة وحقدها على الاسلام ، ويبغى هدفا واحدا ألا وهو القضاء على هذا الدين ، وان لم يمكن ذلك ، فلا أقل من السيطرة على أتباعه ، ومحاولة اضعاف الصلة بينهم وبين عقيدتهم .

وبين المنبع والهدف اختلفت الاساليب .. وتعددت المناهج :

فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوبا ، وتشويه الحقائق منهجا فجاءت كتابتهم عن الاسلام مخالفة للواقع ، طافحة بمظاهر التعصب والتحامل ، مما جعل الاسلام يبدو للأوروبيين — حين كانت الكنيسة هى المصدر الوحيد للمعرفة — مخيفا ، والمسلمين وحوشا .

أما المستشرقون (وهم القائمون على كراسى الدراسات الاستشراقية فى الجامعات التى كان الهدف من انشائها خدمة المستعمرين لأنهم كانوا — وما زالوا — مستشارين لحكوماتهم فى شئون الدول الاسلامية) فقد ادعوا انهم ينهجون المنهج العلمى الحديث فى الدراسات الاسلامية ، لكن بحوثهم دارت فى دهاليز التعصب ضد الاسلام ، لأن اللاوعى عندهم ملىء بما غرسته الكنيسة فى عقول أسلافهم(١) ومن الانصاف

---

(١) بدأت حركة الاستشراق فى القرن العاشر الميلادى من الفاتيكان ، فقد كان رجال الدين — وهم تابعون للكنيسة آنذاك — يكونون الطبقة =

القول بأن الطابع العام أقل حدة مما كتبه آباء الكنيسة ، وبأنه ظهر بينهم افراد التزموا الحياد العلمى فى بعض جوانب بحوثهم ، لأنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتخلص كلية من آثار مجتمعه الثقافى .

ويلى المستشرقون كتاب القصص والروايات ، وهؤلاء يعتمدون فى تصوير ابطالهم وشخصيات رواياتهم على ما كتبه الرحالة ، وآباء الكنيسة والمستشرقون ، أما المصدر الأول — وهم الرحالة — فقد غلب عليهم خيال جامح ، وخاصة فى القرون الوسطى ، ولا ننسى رائدهم « ماركو بولو » (١٢٥٤ — ١٣٢٣ م) الذى دون رحلته الى الشرق فى جزأين ، حشاهما بغرائب الثراء والأخلاق والأديان ، ولا يقل عنهما ما جاء فى رحلة « شاباى » من ضلالات لا يصدقها عقل بشر ، مثل قوله : « ان للشرقين ثمانية أنامل ورأسين » .

والمصدران الاخيران لم يقدما لكتاب القصص سوى صورة مهلهلة ، ممزقة عن الاسلام فخرجت القصص والروايات بلوحة عن الاسلام والمسلمين طمست معالمها وشوهت جوانب الجمال فيها ، ومحيت معالم الانسانية من خطوطها وألوانها .

فاذا هيأت الظروف لواحد منهم الاطلاع على مصادر اسلامية ، موثوق بها ظهر انعكاسها باهتا فى رواياته وقصصه ، لأن هذا التأثير العابر ، لا يمكن أن يمحو أثرا رسخ فى ذهنه منذ طفولته ، وواكبه فى مراحل عمره ، ولازمه فى حله وترحاله اذ معرفته عن الاسلام فى طفولته من أبويه — ومصدر ثقافتهما عنه فى الغالب الأعـم من كتابات آباء الكنيسة والمستشرقين — وفى المدرسة من مدرس لم يكن أوفر حظا منه فى استقاء معلوماته عن الاسلام ، وفى المجتمع من الصورة المشوهة ، التى رسمتها عدة مصادر ، تسـاندت كلها فى تشويه صورة الاسلام للمجتمع الأوروبى ، كى تحول بينه وبين التحول الى الاسلام .

وهناك فريق آخر ، كتب عن الاسلام ، ولم يكن الدافع له موقعه

= المتعلمة فى أوروبا فاتجه منهم أناس لتعلم اللغة العربية ليتمكنوا من المجادلة مع فقهـاء المسلمين . وقد حمل الفرنسسكانيون والدومينيكانيون لواء هذه الدراســة وكان طابع العصبيـة واضـحا فى بحوث هؤلاء ، ثم ازدادت أهمية هذه الدراســة بعد الحروب الصليبية ، وبلغت ذروتهـا فى ايام الاستعمار حيث كان المستشرقون يعملون مستشارين فى وزارة المستعمرات .

فى الكنيسة أو عمله كمستشرق ، كما انه ليس من هواة كتابة القصص عن الشرق المليء بالاحداث التى تستهوى قطاعا كبيرا من القراء — كقصص « كارل ماى » — ولكنه كتب عن الاسلام اشباعا لرغبة البحث عنه ، وتعبيرا عن غريزة الكتابة لديه ، ليسهم فى بناء حضارة أمته وليصحح بعض المفاهيم الشائعة بين بنى قومه — من وجهة نظره — حتى يستقيم بناء المجتمع ، ويشتد أزر الأمة ، وتتجنب الزلل فى تقدمها على طريق الزمن .

ويضم هذا الفريق فلاسفة ، واجتماعيين ، وسياسيين ، واقتصاديين ، ورجال اعلام . وقد تناول كثير منهم الاسلام فى بحوثه ، بعضهم عالجه كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه بينما احتل صفحات كثيرة عند الآخرين ، غير أن عددا من الباحثين العصريين كتب مؤلفات ضخمة — وصل بعضها الى عدة مجلدات — عن الاسلام ، تختلف فى طابعها ومنهجها عما كتبه المستشرقون وآباء الكنيسة فى العصر الوسيط ، اذ يغلب عليها رغبة المؤلف فى التزام الموضوعية ، والبعد عن المهاترات لآباء الكنيسة وترهات المستشرقين ، لكن ظروفه الاجتماعية والثقافية منعت تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهو وان تشرب بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى الا أنه مشدود بجذور ثقافية ضاربة فى أعماق التاريخ حتى الحروب الصليبية — ان لم تكن أقدم من ذلك — ومكبل بسلاسل اعلامية — سواء كانت اذاعية ، أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتب ثقافية ، وتخصصية — تحجب عنه الجانب الايجابى فى الاسلام ، وتصوره له بصورة تنفره منه ، وتبعده عنه اذا ما اقترب يوما من الاسلام بفعل الموجات الليبرالية التى اجتاحت أوروبا فى العصر الحديث .

ان من المستحيل أن يستطيع الأوروبى خلع رداء نسجته عصور طويلة من الحقد والكراهية والكيد للاسلام ، ومن يطلب ذلك ، فهو غير مدرك لطبيعة الانسان والظروف التى كونته ثقافيا وأخلاقيا ولذا فاذا وجد كاتب يعترف للاسلام بجانب ايجابى فى المجتمع ، فعمله خطوة أولى على الطريق لمعرفة الاسلام ، دفعته اليها ظروف ، اختلفت عن الظروف التى عاشها أسلافه وعلى المسلمين ازاء هذه الظاهرة مراعاة الحقائق التالية :

١ — لا ينبغى أن ينخدع المسلمون ، اذا ما قرأوا جملة انصاف

من كاتب ، فيعدوه — بناء على هذه الجملة — من المشيدين بالاسلام ، والمنصفين له لأن ذلك يضر بالدعوة الاسلامية ، حيث تؤثر افكاره السلبية — وما اكثرها — على من يقرأون له بعد سماعهم الحكم عليه بأنه من المنصفين للاسلام •

٢ — لا يوجد كاتب أوروبى وضحت عنده الصورة الكلية للاسلام (باستثناء عدد قليل جدا منهم « جوستاف لوبون » ؛ « ومحمد أسد » الذى اعتنق الاسلام) وانما هى ومضات أضاءت لهم بعض جوانب الطريق ، وعلى المسلمين — ان هم ارادوا خدمة الاسلام — أن يساعدوا أمثال هؤلاء على كشف ماحجب عنهم بفعل الصراع الدينى الذى استمر قرونا طويلة ، فان تقاعس الدعاة عن هذه المهمة ، فلا ينبغى أن ينتظر من كاتب أوروبى محاط بالظروف التى شرحناها آنفا ، أن يلتزم بالخط الاسلامى من أوله الى آخره •

٣ — ظهرت مؤلفات كثيرة عن الاسلام فى القرن العشرين ، تعرض الكتاب فيها لعناصر القوة فى الاسلام سواء من الناحية : الاستراتيجية — جغرافية ، ومادية وبشرية — أو من الناحية الروحية ، وواجبنا بيان هذه النواحى لشبابنا حتى نخلصه من عقدة الشعور بالضعف وتحريره من الاعتقاد الخاطىء بأن سبب ضعفه ، راجع الى انتمائه للاسلام ، كما نحاول الاستفادة من هذه العناصر لنبنى قوة عالمية اسلامية ، تقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى •

٤ — كما ظهرت مؤلفات أخرى تناولت حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — بالشرح والتحليل ، كما تعرضت للقرآن الكريم فى أحكامه وتعاليمه بالبيان والايضاح وسواء كان الغرض من نشر هذه الكتب تعريف الشعوب الأوروبية بهذا الدين ، الذى يزداد تأثير أتباعه فى مجال السياسة الدولية يوما بعد يوم ، أو تحذيرهم من سيطرة المسلمين على مصادر الطاقة ، فان على المسلمين تحليل هذه الكتب ، وتمييز الافكار الطيبة فيها للثناء على موقف صاحبها فى هذا المجال ، من الافكار الخبيثة للرد عليها وتصحيحها لعل كاتبها يرجع عن رأيه ، والا فلا أقل من تقديم القول الفصل فيها للقارىء •

٥ — لا ينتظر أن تتحول أوروبا الى الاسلام — رغم ما يقال وينشر عن اسلام واحد هنا وآخر هناك ، ورغم ما ينشره السذج من أن أوروبا

تبحث عن الروحانية التى فقدتهـا ولن تجدها الا فى الاسلام ، وسوف نصحو يوما (هكذا يحلمون) فنجدها مسلمة من أدناها الى أقصاها — الا اذا تهيأت الظروف لذلك ، وليس هذا سهلا ، فهو يتطلب :

* بناء قوة اسلامية عالمية : (اقتصادية — وسياسية — وعسكرية) بحيث تكون غير خاضعة لقوى أخرى فى اتخاذ القرارات الدولية .

* نهوضـا بمستوى الفرد فى المجتمعات الاسلامية ، بحيث يفوق مستوى الفرد الأوروبى .

* دعما ماديا غير محدود للمراكز الثقافية — فى البلاد الأوروبية — واسناد قيادتها للقادرين على القيام بمهام الدعوة ، لا لمن يسعى لغنم دنيوي .

يجب على المسلم مراعاة هذه الحقائق ، عندما يسمع كلمة مدح فى الاسلام أو يقرأ هجوما عليه ، كما ينبغى على مراكز الدعوة أن تضع نصب أعينها متطلبات دراسة الظواهر الفكرية ، عندما تدرس لأبنائها طرق وأساليب نشر الدعوة فى بلاد غير اسلامية ، ولا يجوز لهـا أن تقرأ عليهم كلمات المدح ، التى قالها مفكرون غير مسلمين ، وتحجب عنهم ما وقع فيه هؤلاء المفكرون من أخطاء فى حق الاسلام ، لأن الداعية يحتاج الى معرفة النوع الأول للاستشهاد به على هداية الفكر البشرى الى الحق ، كما يجب عليه دراسة النوع الثانى للرد عليه ، حتى لا يستفحل خطره بين المسلمين وغير المسلمين ، وسوف تكون هذه هى طريقتنا فى تحليل المؤلفات الأوروبية التى سنعرضها هنا .

والله الموفق .

القاهرة فى ١٢ من ذى القعدة ١٣٩٩ هـ
٣ من اكتوبر ١٩٧٩ م

محمـــد عبد الغنى شامة

عرض وتحليل كتـــاب

الاسلام قوة عالمية متحركة

تأليـــف

HERBERT GOTTSCHALK

التمهيد

ينتمي الكاتبون عن الاسلام فى أوروبا الى أربع طوائف ، وهى كما بيناهـا فى المقدمة كما يلى :

١ ـ آباء الكنيسة
٢ ـ المستشرقون
٣ ـ كتاب القصص والرحلات
٤ ـ اصحاب الاتجاه الليبرالى

وقد رأينا أن نبدأ بتحليل نموذج من الصنف الرابع ، لأنه جديد فى أسلوبه على العقل الأوروبى ، فضلا عن أنه يعلن أنه غير منحاز فى بحثه ، وتلك دعوة ينخدع بهـا المسلمون ، فيأخذون كل آرائه على انها سليمة من الوجهة العلمية . ولذا كان غرضنا من البدء بنموذج منه تنبيه المسلمين على أن هؤلاء ، ان مدحوا الاســلام فى بعض الجوانب ، الا انهم بحكم تكوينهم الثقافى ـ وقعوا فى أخطاء ، ينبغى على المسلمين ألا يسلموا بها فى نشوة قراءتهم لجوانب المدح .

وقع اختيارنا على كتاب : « الاسلام قوة عالمية متحركة » ..لأن : لعنوانه تأثيرا على نفس القارىء ، وان اختلفت بواعثه ونتائجه ، طبقا لاختلاف عقيدته ، وانتمائه الاقليمى على سطح الكرة الأرضية ، فالأوروبى المسيحى ينجذب اليه بدافع من خوفه الداخلى من الاسلام ـ ذلك الخوف الذى غرسته فيه أحداث الحروب الصليبية ـ فهو يريد أن يعرف مدى قوة الاســلام فى العصر الحاضر !!! ويتبين مدى الخطر الذى يمكن أن يحيق به من هذه القوة الجبارة ، لأنهم أدخلوا فى روعه منذ الصغر أن الاسلام هدد أوروبا فى الماضى ، ويمكن أن يعيد الكرة لو عادت اليه قوته !!! .

والمسلم يميل الى الكتاب لأنه يفصح عن رغبة كامنة فى داخله ، فهو يشعر بضعف المسلمين أمام القوى العظمى ، ويتمنى أن يسترد الاسلام

قوته ليتمكن المسلمون من التحـــرر من تحكم هذه القوى ، فيرفعوا رؤوسهم لتتساوى فى الحقوق الدولية مع من استعبدوهم ، واستغلوهم قرونـــا عدة .

فأردنا عرضه للقارىء المسلم ليقف على مفهوم الأوروبيين للاسلام فى ظل المتغيرات الدولية المعاصرة ، ولنذكره — ان كان قد نسى — بأن الاسلام قادر على بناء قوة عالمية فى العصر الحديث ، كما بنى مثيلا لهـــا فى القرون الاولى ولنوضح له — ان كان قد خفى عليه — ان الاسلام يملك من عناصر القوة ما لا يملكه دين أو نظام سياسى آخر فى العالم .

كتب « هربرت جوتشالك » كتابه .. « الاسلام قوة عالمية متحركة » باللغة الالمانية فى ٣٠٤ صفحة بالبنط الصغير ، كما احتوى الكتاب على أكثر من أربعين صورة فوتوغرافية لأشهر المساجد والشخصيات الدينية ، وكذلك .. للمسلمين وهم يؤدون الشعائر الدينية .

والمؤلف ليس من آباء الكنيسة ، ولا من المستشرقين ، بل هو كاتب وصحفى قدمه الناشر وهو OHo Wilhelm, Barch, Verlag Gmbh. بقولـــه :

« ولد « هربرت جوتشالك » فى ٩ / ٦ / ١٩١٩ ، ونشأ فى جنوب بروسيا ، بدأ حياته الجامعية بدراسة الطب ، واستمر فيها حتى وصل الى ما قبل الامتحـــان النهائى حيث استدعى للخدمة الاجبارية فى اثناء الحرب العالمية الثانية . أصيب على الجبهة الشرقية فترك دراسة الطب واتجه الى دراسة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والأدب لمدة سبع سنوات ، جاب فيها دول البلقان ، وكتب كثيرا من المقالات والكتب ومن أشهرها كتاب : « الاسلام قوة عالمية متحركة » وهو يعمل الآن (فى عام ١٩٦٢) — وهو العام الذى ظهر فيه هذا الكتاب — فى احدى دور النشر فى ألمانيا الغربية .

فاذا لم يكن قسيسا يدفعه مركزه فى الكنيسة الى تشويه صورة الاسلام حتى لا تفقد الكنيسة أتباعها واحدا بعد الآخر نتيجة تحولهم الى الاسلام .

وإذا لم يكن مستشرقا يبدو ظاهر عمله أبحاثا أكاديمية وباطنه أسلوبا من أساليب تمكين الاستعمار فى العالم الاسلامى .

فما الدافع له الى الكتابة عن الاسلام اذن ؟

يجيب الناشر عن هذا فى نشرته عن الكتاب فيقول :

« كيف يكون ممكنا أن تقوم اليوم هيئات تبشيرية فى قلب العالم الغربى المسيحى ، تدعو الى الاسلام ؟ هل توجد سفينة نوح اسلامية ؟ (يقصد بذلك أن الاسلام ينقذ الغرب من فراغه الدينى ، كما أنقذت سفينة نوح من آمن بدعوته من الغرق) وما هى المبادىء الروحية والفكرية التى تقدمها هذه العقيدة ؟ .

ظهر الاسلام لأول مرة كقوة عالمية متحركة فى القرن السابع الميلادى ، ووصل الى ابواب فيينا مرتين : الاولى فى الحروب الصليبية ، والثانية فى عام ١٦٨٣ م ولكن الأوروبيين تمكنوا فى اللحظة الأخيرة من صده ، ومنع تحويل القارة كلها — حتى بحر الشمال والبحر البلطيقى — الى الاسلام ، واليوم لا يحمل الاسلام السيف ولكن الدعوة اليه تزداد كل يوم ، وتتطور أشكالها .

ويحتم علينا هذا الانتشار العالمى للاسلام — وكذلك الحقيقة الثابتة بأن الاسلام بأتباعه البالغين (٩٠٠ مليون مسلم) (١) ، يمثل القوة العقيدية الثانية فى مواجهة الـ ١٠٠٠ مليون مسيحى فى العالم — أن نتعمق فى دراسة تاريخ الشرق الدينى ، وفلسفته وتصوفه وحضارته وفنه .

وينطلق المؤلف فى بحثه من هذه القاعدة . فيصور لنا طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ثم يتعرض لحياة النبى صلى الله عليه وسلم وللتعليم التى خلفها لأتباعه كما يتتبع الكتاب بالبحث الانتفاضة السياسية للشعوب الاسلامية حتى منتصف القرن العشرين ويلقى الضوء على تاريخ الحضارة والفن والفلسفة الاسلامية ، ثم تناول بالبحث :

مدى قدرة الاسلام على اقتلاع جذور المشكلة التى تهدد الانسان روحيا وفكريا وتقديمه للانسانية الضائعة نظاما اخلاقيا ينقذها من الانهيار الخلقى .

ومدى التقاء الاسلام الشرقى . للظروف الغربية المهددة .

ويفهم من هذا ان الدافع الى كتابة هذا الكتاب هو ظهور الدعاة الى الاسلام . وقيام المراكز الاسلامية فى الغرب . وخوف المتعصبين

---

(١) لقد صححنا الرقم الذى كتبه المؤلف طبقا للاحصائيات الأخيرة فى العالم بالنسبة للاسلام والمسيحية .

للمسيحية من انتشار الاسلام هناك ، خاصة وأن المجتمعات الغربية تعانى من أزمة دينية وأخلاقية ، فقد أزعجهم :

انتشار المراكز الاسلامية فى المدن الأوروبية الرئيسية :

« انتشرت فئات من هيئات التبشير فى دول أوروبا ، فى هامبورج وفرانكفورت ونورمبرج ، ولندن ، وزيوريخ ، وحتى فى بودابست . وقد تبلور نشاطهـا فى تمويل بناء مساجد على احدث طراز ، وانشاء مراكز صحفية وثقافية »(١) .

واهتمام المسلمين بنشر الاسلام فى افريقيا :

« وفى عام ١٩٦١ اعلنت الحكومة المصرية عن عزمها تعيين ملحق دينى فى كل سفارات مصر فى افريقيا ، وينبغى ألا يقتصر نشاطهم على عملهم الرسمى ، وهو الاستشارات الدينية فى السفارة ، بل هم مكلفون أيضا بنشر الاسلام فى افريقيا »(٢) .

وازدياد النشاط الاعلامى للاسلام :

« وكذلك البرنامج الاذاعى « صوت الاسلام » — لعله يقصد بذلك : اذاعة (القرآن الكريم) — الذى أنشىء فى القـاهرة ليذيع البرامج الدينية والسياسية فى آسيا وافريقيا السوداء »(٣) .

لابد لنـا هنـا من وقفة قصيرة ، لنجلو حقيقة الظاهرة ، التى تغيب عن كثيرين ، ألا وهى أن بعض المسـلمين المهتمين بالدعـوة الاسلامية — وكذلك بعض الحكومات التى تفتقر الى تأييد الجماهير — يعلنون دائما عما يدور فى ذهنهم من مشروعات لنشر الدعوة سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى ، وغالبا ما تكون هذه المشروعات افكارا فقط — أو دعاية لغرض ما — لم تخرج الى حيز التنفيذ . وقد لا تخرج اطلاقا ، كما حدث فى مسألة تعيين ملحق دينى فى السفارات المصرية فى افريقيا ، لكن الغرب يرصد كل همسة فى العالم الاسلامى ، فاذا سمع بمثل هذه الأنباء سارع الى تجنيد الخبراء والباحثين لدراستها من كل الجوانب ، والعمل على وأدها — ومن أساليب الوأد ابعاد الشخص المتحمس لهـا عن موقع اتخاذ القرار — ان كانت هناك جدية فى تنفيذها وأقرب مثل على ذلك ما حدث فى أوروبا عندما ناقشت لجان مجلس الشعب

---

(١) مقدمة المؤلف ص ٩ (٢) المصدر السابق ص ٩
(٣) المصدر السابق ص ٩

المصرى مسألة تطبيق الشريعة الاسلامية (١) فقد كتبت الصحف تنذر وتحذر ، وجاء العديد من المندوبين يستفسرون ويستطلعون ، وقابل الباحثون — الذين أرسلوا خصيصا لهذه المهمة — كثيرا من علماء الدين وناقشوهم فى مدى امكانية — وجدية — تطبيق الشريعة الاسلامية فى العصر الحاضر .

أما فى المراكز الاسلامية — المنتشرة فى العالم — فأغلبها لا يمثل وجهه النظر الاسلامية ، لانها تابعة للمذهب القاديانى ، وهو مذهب منشق على الاسلام ، ونظرة سريعة على القائمة التى اوردها المؤلف (٢) يتبين لنا انها قاديانية :

---

(١) وكذلك ردود الفعل التى تجتاح أوروبا فى هذه الأيام نتيجة لأحداث ايران فقد انطلقت اجهزة الاعلام فى تصوير هذه الاحداث بصورة شبح مخيف اطلقت عليه اسم « الحركة الاسلامية الجديدة » واحيانا تتهذب فى تعبيرها فتسميها يقظة المسلمين .

ولم تقتصر ردود الفعل على تعبيرات انفعالية تذيعها اجهزة الاعلام بل تجاوزت الحملة ذلك فوصلت الى هيئات رسمية ، ففى اجتماع عقدته مجموعة الدول الاوروبية فى بروكسل منذ أيام تقرر أن يعقد اجتماع قريب لبحث المشكلة ، التى ظهرت فى هذه الايام .. وهى مشكلة « يقظة المسلمين » .

كذلك يسهم فى تأجج نار هذه الحملة شخصيات لها وزنها فى المجال السياسى الدولى مثل « هنرى كيسنجر » اليهودى — وزير خارجية امريكا السابق — فهو يقوم بدور كبير فى حملة التخويف بهذه اليقظة الاسلامية التى يتحدثون عنها ، ومما قاله فى تصريحاته الأخيرة : ان العالم يجب أن يتيقظ ايضا ويتنبه الى الاخطار التى تهدده من وراء قيام حكومة دينية فى ايران .

أما الصحافة .. أوروبية وأمريكية .. وربما فى جميع أنحاء العالم لانها تستقى اخبارها ومعلوماتها مما تنشره وكالات الانباء الكبرى التى تثير هذه الحملة الضارية — فانها مليئة بالاخبار والمقالات والاحصائيات والبيانات عن خطر هذه الحركة الاسلامية الجديدة (اخبار اليوم بتاريخ ٣ / ٢ / ١٩٧٩)

ولعل هذه الحملة توقظ الذين يحلمون بأن أوروبا أصبحت قاب قوسين أو ادنى من اعتناقها الاسلام من نومهم وتزيح عن اعينهم غشاوة السذاجة الفكرية فيخططون للدعوة تخطيطا سليما .

(٢) ص : ٢٩٢ — ٢٩٣

Deutschland :

Mission des Islam Hamburg 13, Oderfelder Str. 18.
Ahmadiyya-Mission des Islam. Hamburg-Stellingen, Wieckstr. 24.
Ahmadiyya-Mission des Islam. Frankfurt A.M. Babenhâuser Landstr. 25.
Mission des Islam. Berlin-Charlottenburg, Moschee.

Niederlande :

Ahmadiyya-Mission des Islam. Josef-Israels-Laan 48, Den Haag.
Ahmadiyya-Mission des Islam, Oostduinlaan 79, Den Haag.

Grossbritannien :

The London Mosque, 63 Melrose Road, Southfields SW. 18. London
Mr. Bashir Ahmad Orchard, 36 Mansion House Road,
Glasgow Scotland.

Spanien :

Ahmadiyya Movement. Lista 78. Madrid.
Ahmadiyya Movement. C. Ciudad Real 12, Madrid.

Schweiz :

Ahmadiyya Mission des Islam. Beckhammer 35, Zurich.
Ahmadiyya Mission des Islam F.D. Schweiz und Osterreich Herbstweg 77. Zurich.

Norwegen :

Ahmadiyya Mission des Islam. Tromsôgt 19 Oslo.

U.S.A.

2141 Leroy Place, N.W. Washington 8 DC.
4448 Wabash Ave. Chicago 15. III.
613 Locust Street. St. Louis I. Missouri.
2522 Webster Ave., Pittsburgh 19, Pa.
115 W. 116th., Suite 2 New York 24 N.Y.
188 W. 87th. St. New-York 24 N.Y.
1440 N. Curson St. Los Angeles 46. Calif.
Und 13 Weitere Missionen in Amerika.

West Afrika :

The Ahmadiyya Mission House. P.O. Box 418 Lagos Nigeria.
Sowie 32 weitere Missionen in Nigeria.
Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 39. Salt Pond, Ghana.
Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 11, B.O., Sierra-Leone.
Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 167, Monrovia Liberia.
Sowie weitere 43 Missionen in Sierra-Leone.

Ost-Afrika :

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 554, Nairobi Kenya.
Sowie 12 weitere Missionen.

Mittlerer Osten :

Ahmadiyya - Movement. Shaghour Damaskus / Syrien.
Ahmadiyya - Movement - Mount Carmel. Haifa Israel.
Ahmadiyya-Movement. Rose Hill, Mauritius und 4 weitere Missionen in Maurilius.

Ahmadiyya-Movement. 28 Mosque Road, Negombo / Ceylon.

Fernier Osten :

Ahmadiyya-Movement, III. Onnan Road, Singapore Malaya.
Ahmadiyya-Movement. Balakang Ole, 22 Padang. Sumatra / Indonesien.
Ahmadiyya-Movement, Petodtjo ud. Gang VII. No. 10 Djakarta, Java / Indonesien.
Sowie 47 weitere Missionen in Indonesien.
Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 30, Jesselton, North Borneo.
Sowie 4 weitere Missionen auf Borneo.

Missionen :

Burma : 1 Mission / Dânemark : 1 Mission Frankreich : 2 Mission / Ghana : 247 Missionen / Libanon : 1 Mission Liberia : 1 Mission / Norwegen : 1 Mission / Schweden : 1 Mission / Sierra-Leone : 44 Missionen Singapur 1 Mission Trinidad : 2 Missionen / Ungarn : 1 Mission.

فهى لا تنشر المبادىء الاسلامية صحيحة • بل ممزوجة بتعاليم مسيحية ، ومع ذلك ينزعج الغرب منها ويعدها هجوما عليه فى عقر داره ، ولو اطلع هؤلاء المنزعجون على خلفيات انشاء هذه المراكز لظهر لهم انها أقيمت بمساعدة الحكومات الاستعمارية لتشوه مبادىء الاسلام الصافية للمواطن الأوروبى حتى تقيم الحواجز بينه وبين اعتناقه الاسلام •

أما المراكز غير الأحمدية — سواء كانت تخضع رسميا للحكومات الاسلامية أو كانت تمول فقط من أموال المسلمين — فهى قليلة بالنسبة للمراكز الأحمدية ، أضف الى ذلك انها لا تقوم بواجبها كما ينبغى ، اذ تتحكم فى تعيين القائمين على المراكز الحكومية اغراض شتى ، ليس منها الحرص على نشر الاسلام فى بلاد غير اسلامية ، كما تخضع المراكز غير الحكومية لأهواء متعددة ، ولذا فالخلاف بينها قائم والنزاع مستمر ، والمصادمات تتعدى حدود المهاترات الكلامية •

أما اذاعة القرآن الكريم ، وان قامت بجهود لا بأس بهـا ، فهى لم تبلغ بعد المستوى الذى ينبغى أن تصل اليه اذاعة تتحدث باسـم الاسلام وسط تيارات تتحدى وتهاجم وتنقض على الاسلام أينما ، وحيثما وجد صوت يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » ••

ورغم هذه الصورة الباهتة للاعلام الاسلامى ، فان الغرب ينزعج عندما تحمل موجات الأثير الى أذنه كلاما عن الاسلام ، لأنه يعرف قوته ، ويدرك امكاناته الخلاقة ، اذا ما حمله رجال مخلصون ، يؤدون دور أسلافهم بأمانة واخلاص ، وقد عبر عن هذا « باول شمتز » بقوله :

« •• سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الاسلامية فى الصدر الأول للاسلام ، وستظهر هذه القوة ، التى تكمن فى تماسك الاسلام ووحدته الفكرية ، وستثبت هذه القوة وجودهـا اذا ما ادرك المسلمون كيفية استخراجها ، والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لانها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية » ••

أدرك المفكر البريطانى « جورج برنارد شو » مدى فاعلية هذه القوة — معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها — حين كتب :

« لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ••• وتتماسك اطرافها تماسكا قويا وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه ، من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى ، بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث •

لا أستطيع أن أدرك ، لماذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمام بها والتفوق فيها الى الخبرة ، وتوجيه الخبراء • ومن الأمور المؤكدة انه غالبا ما يحدث ان تكون حضارة أخرى ، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى •

اذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب — ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة — فى المستقبل سيدا على شعب آخر • استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره — فلم ينقذه أحد — وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الانسان الاحساس بالطبيعة •

لماذا لا يتعلم العالم الاسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهو من العوامل الأساسية لوحدة أوروبية — التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها »(١) •

كانت هذه القوة هى احدى الدوافع ، التى دفعت « جوتشالك » لكتابة مؤلفه : « الاسلام قوة عالمية متحركة » كى يبين لبنى وطنه مراكز القوة فى الاسلام فهو يقول : « لا ينبغى للمرء أن ينسى ان الاسلام استولى على تراث العصر الكلاسيكى ، فهضمه بأسرع ما يمكن ، ثم طوره ، ومزجه بتعاليمه الخاصة — بحيث لم يستحسنها المتدينون فحسب ، بل يميل اليها كثير من العلمانيين — فصاغه فى صورة اسلامية بحتة ، بحيث اصبح تعبيرا عن ذاتية اسلامية ، لها صفة الدوام والاستمرار ، اذ لم تبل قوته الروحية ولا تأثيره الشامل على الغرائز الانسانية ولا تصوفه المهيمن على اتباعه ••• لم يبل كل هذا على مدى

---

(١) الاسلام قوة الغد : ص ٣٢٣

تاريخ تطور مجتمعاته ، كما هو الحال فى الأديان الأخرى ، بل احتفظت بفاعليتها دائما حتى فى اثناء قرون الانتكاسة التاريخية لشعوبه ، بل زادت اخيرا فى فترة ضعف الناحية الروحية بين شعوب العالم الغربى ، ولكى نبين مدى حتمية هذه القوة وترابطها جغرافيا وانسانيا ، ينبغى أن نوضح كل خلفيات هذه العقيدة .. وبالاضافة الى هذا نطرح على مائدة البحث التساؤل عن مركز القوة الشاملة فى الاسلام أو عن المبادىء ، التى يمكن ان تنقذ البشرية ، لأن معالجة هذا التساؤل سوف يبين عما اذا كان من الممكن — كما يدعى المسلمون — أن تنمو الناحية الروحية فى المجتمع بواسطة الالتزام بهذه العقيدة ، وتطبيق نظامها الاجتماعى ، وعما اذا كانت قوة الاسلام الاصلاحية ، لا تزال لهـا الأثر الفعال فى المجتمع المعاصر »(١) .

الغرب مهدد بانهيار أخلاقى ، والاسلام يقف شامخا بين هذه التيارات الهدامة المتصارعة ، له ماض مشرق فى انقاذ المجتمعات من الانحدار فى أودية الهلاك ، ومع ذلك يخشى الغرب أن تحل تعاليمه محل دين الكنيسة ، فتظهر المؤلفات تحمل طابع البحث العلمى المحايد ، وتستهدف وقف المد الاسلامى بين شعوب الغرب ، فهى ذات وجهين :

أولهما : رغبة الكتاب — ومنهم مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » — فى شرح وتحليل مبادىء الاسلام دون التحامل عليه ، وهى ظاهرة لم تكن موجودة فى العصور السابقة ، غير أن ثقافتهم وخلفيتهم الاجتماعية ، تقودهم الى عدم فهم بعض التعاليم الاسلامية أو الى معالجتها من وجهه النظر ، التى اكتسبوها من دراستهم ومجتمعهم ، فيهووا الى ساحة ينسبون فيها ما لقنتهم اياه النهضة الحديثة من الالتزام بالواقعية فى البحث ، والتحرر من العواطف والانفعالات فى الحكم على الأشياء .

ثانيهما : محاولة اظهار ان بعض تعاليم الاسلام تتعارض مع متطلبات العصر الحديث ولذا فهى لا تصلح كلها للتطبيق فى المجتمع المعاصر .

سوف نبين فى عرضنا كلتا الناحيتين ، مع الرد على مزاعمهم وتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء .

---

(١) ص ١٠ — ١١ .

وسنقتصر في ردنا على جانب الدفاع عن الاسلام ورسوله ، ضاربين الصفح عن محاولة تبرير ما يرتكبه بعض المسلمين من اخطاء من وجهة النظر الاسلامية ، معرضين عن الدفاع عما يقع فى داخل المجتمعات الاسلامية ، من اعمال لا تتفق مع روح الاسلام ، وان ارتدت الثوب الاسلامى ، وتلفعت برداء الانتماء الى الاسلام ، لأن الدفاع عن المبادىء جوهرى ، ومقدم عندنا على كل ما عداه فالاسلام مبادىء وليس اشخاصا ، وهو نظام للحياة مؤسس على ما فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ولا يضاف اليهما ما يمارسه المسلمون — أى لا ينبغى أن يتخذ حجة على الاسلام — الا ان طابق ما جاء فى هذين المصدرين •• ولا يحسب على الاسلام ما تطبقه المجتمعات الاسلامية من نظم واحكام ، لا تتفق مع روح نصوص الوحى المنزل من عند الله ، وان انطلقت الالسنة فى تبريرها وتجويزها مهما كانت ادلة هذا التبرير ، وسند هذا التجويز •

قسم « Gottschalk » كتابه « الاسلام قوة عالمية متحركة » الى أحد عشر بابا وهى :

١ — حياة العرب قبل الاسلام

٢ — حياة محمد صلى الله عليه وسلم

٣ — القرآن الكريم

٤ — تراث محمد صلى الله عليه وسلم

٥ — التوسع السياسى

٦ — اسهام الاسلام فى الحضارة العالمية •

٧ — الفن الاسلامى

٨ — الفلسفة والتصوف

٩ — مفاهيم دينية فى الاسلام وفى أديان الشرق الأقصى •

١٠ — الاسلام والمسيحية

١١ — مستقبل الاسلام

وسوف نعرض ملخصا لأفكاره فى كل باب على حدة ، مع مناقشة ما وقع فيه من أخطاء من وجهة النظر الاسلامية ، مكتوبا بخط مميز أو فى الهامش •

* * *

الباب الأول

حياة العرب قبل الإسلام

* البيئة الطبيعية .
* تاريخ الحياة السياسية .
* السكان .
* الدين .
* الشعر .

حياة العرب قبل الاسلام

تناول فى هذا الباب بحث نقاط عدة :

١ ــ البيئة الطبيعية :

تعتبر شـــبه الجزيرة العربية ــ من ناحية المساحة ــ أكبر شــبه جزيرة فى العالم ، اذ تبلغ مساحتها ٣١ مليون مترا مربعا • وتوحى الينا تضاريس منطقة عمان بأنها كانت متصلة بايران ، فانفصلت فجأة فى عصور ما قبل التاريخ بامتداد مياه المحيط الهندى مكونة الخليج، كذلك انفصلت هذه المنطقة عن افريقيا ، عندما تدفقت مياه المحيط نحو الشمال، فتكون الحاجز الطبيعى الذى يعرف الآن بالبحر الأحمر ويمتد على شاطئه الشرقى سلسلة جبال تعرف فى الشمال باسم الحجاز أما فى الجنوب ـ أى فى اليمن فيطلق عليها جبل النبى شـــعيب حيث يبلغ ارتفاعها ٣١٤ مترا عن سطح البحر •

تنتشر الواحات فى صحراء شبه الجزيرة الواسعة ، وتتركز فى المناطق التى تتجمع فيها مياه الأمطار ، مكونة مساحات خصبة صالحة للزراعة ومن اهم تلك المناطق الخصبة : يثرب (المدينة المنورة) ، فقد ساعد موقعها الجغرافى على انشاء حضـــارة زراعية بها ، أما منطقة اليمن ــ حيث تهب الرياح الموسمية ــ فقد احتفظت منذ القدم بازدهار التجارة فيها ، كما قامت فيها دولة ، فهى تعتبر منطقة المملــكة العربية القديمة •

٢ ــ تاريخ الحياة السياسية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية ــ بوجه عام ـ الوطن الأول للساميين ، على الرغم من عدم قيام دليل قاطع على ذلك حتى اليوم ، فقد باعدت الصحراء منذ ما قبل التاريخ بين ابنائها ، وفرقت بينهم بمساحات صحراوية شاسعة ، ومن هنا انتشرت بينهم عقائد اسطورية ، منها ان اسلاف الساميين الذين استوطنوا بلاد ما وراء النهرين فى الالف الثانية قبل الميلاد كانوا من العرب الرحل ، وعلى الرغم من عدم وجود مصادر عربية تثبت هذه العلاقة (لأن المصادر الموجودة لا تتعدى الالف

الأول قبل الميلاد) ، فليس لدينا ما ينفى ان الكنعانيين والآراميين رحلوا من البلاد العربية فى ذلك التاريخ ، واستمرت هجرات مجموعات بدوية الى منطقة الهلال الخصيب ، حتى وصلت الى الشاطىء الشرقى للبحر الابيض المتوسط فاستقر بعضها فى فلسطين وسوريا ولبنان ، واشتغل فريق منهم بالزراعة بينما استوطن البعض الآخر المدن •

ويقال ان البدو غزوا — بعد الالف الثالثة قبل الميلاد — مدن السومريين وأسسوا أول مملكة بابلية ، كذلك كان من بين الهكسوس الذين غزوا مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد قبائل عربية •

ألم تكن أرض الفينيقيين أيضا عربية ؟

لم يكن للمنطقة العربية قبل الاسلام شىء يذكر فى سجل التاريخ العالمى فلم تشغل فيه سوى حيز بسيط على هامشه ، لان الحياة داخل الصحراء كانت حياة بدوية ، متفرقة ، متنافرة ، فلم يكن بين القبائل منافع مشتركة تقوم على اساسها دولة ، حتى الطقوس الدينية فى مكة — حيث كانوا يفدون اليها للحج — لم تجمعهم على طريق واحد ، أو توجههم نحو هدف مشترك • ولذا كانت الحياة مضطربة وغير مستقرة ، مظهرها العام حل وترحال ، ونزاع وقتال •

نعم !! وجدت حياة مستقرة نوعا ما فى الواحات ، كما اقيمت مراكز للتجارة على طول طريق القوافل ، الا انها لم تبلغ درجة تكوين دولة ، هذا باستثناء ما قام فى الشمال والجنوب من امارات وممالك ، ففى المناطق المتاخمة للدول ذات الحضارة نشأت مراكز للتجارة ، ساعدت على قيام نوع من نظم الحكم المستقرة ، ففى جنوب فلسطين اسس النبطيون — وهم عرب — مملكة فى القرون الاخيرة قبل الميلاد ، الا ان الامبراطور « تراجان » قضى عليها فى عام ١٠٦ ق• م كما ظلت مملكة « بالميرا » قائمة فى صحراء سوريا حتى عام ٢٧٢ م • وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين قامت مملكة صغيرة على نهـر الفرات تدعى « مملكة اللخميين » فى الحيرة ، وكانت متحالفة مع فارس ، وفى منطقة الحدود بين سوريا وفلسطين اقام الغساسنة مملكة تحالفت مع البيزنطيين ، فكانت محمية رومانية •

أما فى داخل شبه الجزيرة فقد تطورت الواحات — خيبر ، فدك ، يثرب (المدينة المنورة) — الى مراكز تجارية ، كانت المحور الحضارى للمنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة حتى القرن السابع الميلادى •

وفى منطقة جنوب شبه الجزيرة الخصبة ، نشأت حضارة فى الالف الثانى قبل الميلاد ، كانت دعائمها ترتكز على الزراعة والتجارة ، فقد كشفت عمليات التنقيب فى تلك المنطقة عن بقايا مدن ، وسدود على مجارى الأنهار ومعابد توحى بالشعور الجماعى ، والنشاط فى المجال الاقتصادى والغريزة الدينية لشعب هـــذه المنطقة •• ثم يستعرض أحوال الدولة التى قامت فى اليمن منذ القدم ، مبينا الأسر التى تعاقبت على حكمه وعلاقتها بالحبشة ، وبالدولة البيزنطية والدولة الفارسية ، حتى وصل الى حملة « أبرهة » على مكة ، فأرجع هزيمته الى انتشـــار الطاعون فى جيوشه •

حقيقة الأمر فى هذه المسألة ان الله أخبرنا بها فى كتابه العزيز فقال : (١) « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »(٢) •

ومفهوم جمهور علماء المسلمين لهذه الآيات : أن جيش الحبشة قدم مكة لهدم الكعبة المشرفة بقيادة أبرهة الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ومعه الفيل ، فسلط الله عليهم طيرا جاءتهم من جهة السماء جماعات متتابعة بعضها فى اثر بعض هبت عليهم من كل اتجاه ، فرمتهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم •

غير أن بعض الباحثين يرى أن الذى أصاب جيش أبرهة ، انمـــا هو وباء الجدرى ، تفشى بالجيش ، وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا ، لم يعهد من قبل قط • واعتمدوا فى ذلك على رواية لابن اسحاق :

« حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : أن أول ما رئيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام (أى عام الفيل) » •

وعلى رواية عن ابن عباس :

« كان الحجر اذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجـــدرى » •

وعن عكرمـــة :

« كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة • فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى ، وكان أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب » •

---

(١) سنكتب تعليقنا على آراء المؤلف بخط مميز •

(٢) سورة الفيل •

ويفسر أصحاب هذا الرأى — معتمدين فى ذلك على جزء من الرواية وهو ظهور الجدرى ، متجاهلين الجزء الآخر وهو رمى الطير الحجارة على جيش « أبرهة » — ظاهرة الفتك بجيش أبرهة :

بأن جراثيم الجدرى جاءت مع الريح من ناحية البحر وأصابت العدوى أبرهة نفسه فأخذه الروع ، وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلونه على الطريق ، ومات منهم من مات • وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب ، وبلغ « أبرهة » صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ، فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه !!

وهذه الدعوة تشتمل على عنصرين :

١ — ما نزل بجيش أبرهة هو وباء الجدرى •

٢ — أن الريح حملت هذا الوباء من ناحية البحر •

والعنصر الثانى ليس مقبولا :

لا نقلا : لأن القرآن الكريم أخبرنا بأن الطير رمتهم بحجارة من سجيل فوقع لهم ما وقع •

ولا واقعا : لأن الريح اذا كانت قد هبت على المنطقة حاملة الوباء ، فلم أصاب جيش « أبرهة » ولم يصب قريشا مع أنهم كانوا فى مهب الريح أيضا ؟

وما قيل من أن الأعراض التى ظهرت فى جيش « أبرهة » — من تساقط الجسم وظهور القيح والدم — هى أعراض الجدرى ، لا يصلح دليلا على أن الريح هى التى حملت الوباء ، وليس الطير ، لأن مرض الجدرى — اذا سلمنا بأنه هو الذى أصاب جيش «أبرهة» — ينتقل الى الشخص بالملامسة ، فالطير رمت الأحجار التى تحمل الوباء على الجيش ، فانتقلت العدوى الى الشخص بمجرد أن مس الحجر جسمه ، ولما كانت قريش بعيدة عن مرمى أحجار الطير ، ولم تقترب من جيش « أبرهة » فقد سلمت من الوباء •

وبهذا يتبين أن من يذهب الى أن سبب هزيمة جيش « أبرهة » هو الجدرى فقط ، دون أن يبين مصدره ، أو يرجع مصدره الى الريح التى حملت الوباء ، دون ذكر الطير ، التى تحدث عنها القرآن الكريم •

فان كان غير مسلم :

فمصدر ثقافته عن الاسلام مؤسسات تربوية فى مجتمع يتخذ من الاسلام موقف المعارض أو المناوىء أو اغفال كل ما يدل على أن القرآن الكريم من عند الله ، وهذا هو حال مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » كما شرحنا ذلك سابقا •

وان كان مسلما :

فهو يردد ما يقوله المستشرقون دون بحث أو تمحيص ، وذلك ما نقرؤه لبعض المعاصرين •

٣ ــ السكان :

يمثل العرب طبقا للفصيلة الدموية ــ ماهية أصلية بين الأجناس الشرقية ، غير أن اتصالهم بجيرانهم الآسيويين منذ خمسة آلاف سنة ــ ذلك الاتصال الذى حدث نتيجة للهجرة بسبب الجفاف الذى كان يصيب مناطق تجمعهم ــ طبع أجسامهم وملامحهم بطابع آسيوى ، والشىء الوحيد الذى لم يؤثر فيه هذا الاتصال فلم يتغير : هو اللغة •

ثم تحدث عن عادات وتقاليد العرب فى حياتهم الصحراوية ــ سواء ما تعلق منها بالأسرة أو العشيرة أو القبيلة ، والتزام الأفراد بها ولو كلفهم ذلك حياتهم • وأردف ذلك بقوله : فمن المهد الى اللحد يملى قانون الأجداد عليهم أسلوب حياتهم ؟

ــ كان هناك الثأر ونصرة الأخ ولو كان ظالما ، والخضوع الكامل لرئيس القبيلة •

ــ كما كان هناك الالتزام بما يمليه حق الجوار ، والكرم ، والشجاعة ، والفخر بالتحلى بالفضائل التى تعارفوا عليها •

ذهب الى أن العرب لم يكن لديهم الوعى بالشعور العام ، الذى يربطهم جميعا برباط واحد ، وما أطلقه اليونانيون عليهم بأنهم : « الشرقيون » لا يدل على أن هناك شعور عام يجمعهم نحو هدف واحد فى الحياة بل ربما لا يتعدى معنى هذه الكلمة ــ من الناحية العملية آنذاك ــ الاحساس بالانتماء الى جنس واحد فى مقابل الأجناس المجاورة لهم ، ثم ركز على أن اخلاص العربى للقبيلة ، والدفاع عنها تحول فيما بعد الى الانتماء للاسلام والدفاع عنه •

يبدو من الفقرة السابقة أن المؤلف قصد بها افهام القارىء أن الاسلام لم يغرس فى العرب التفانى فى الدفاع عنه ، فقد كانت غريزة الدفاع عن المعتقدات — أيا كان مصدرها ودرجتها بين الأديان — موجودة عنده وان ما فعله الاسلام لم يخرج عن تحويل هذه الغريزة من الدفاع عن عقائد الجاهلية الى الدفاع عن الدين الجديد •

وهذا فهم غير صحيح ، بدليل أن هناك شعوب لم تشتهر بهذا الجانب مثل ما اشتهر العرب ، ومع ذلك عندما اعتنقت الاسلام دافعت عنه دفاعا لا يقل عن دفاع العرب ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الاسلام هو الذى غرس فيهم حب التضحية فى سبيل اعلاء كلمة الله •

تناول المؤلف توزيع الثروة ، فذكر أن بعض الأفراد عاشت عيشة رغدة بما ملكته من مصادر الثروة الممثلة فى التجارة والأنعام والثمار (ثمار النخيل والتين والبرتقال والليمون) والتوابل • أما السواد الأعظم فعاش فقيرا محروما من الاستمتاع بهذه الخيرات التى كان يراها أمام عينيه •

جمعت أخلاق البدوى وصفاته بين الشىء ونقيضه :

فهو يتصف بالصبر والتحمل ، كما يتصف بالحساسية البالغة وسرعة الغضب •

كان جسمه ضئيلا ، ولكنه شديد التماسك وقوى •

يكفيه فى الصحراء بضع ثمرات وقليل من الماء ، بينما يتعببه النبيذ الذى يصنعه بيده اذا أتيحت له الفرصة •

ثم تحدث عن الحروب والاغارة والصعلكة والسلب والنهب والاغتصاب عند البدوى ، كما تحدث عن الصيد والحب ، فذكر أن جمال المرأة كان يثير العاطفة عنده ، غير أن هذه الاثارة كانت وقتية ، فلم تدم طويلا • وذلك راجع الى طبيعة الطقس الذى يعيش فيه • ولم ينس فى هذه الفترة أن يتحدث عن وأد البنات عند العرب صغارا واستيلاء الآباء على ما يقدمه لهن راغبو الزواج كبارا •

٤ — الدين :

كانت أهمية الدين عند العربى أقل بكثير من عادات وتقاليد القبيلة ، فطقوسه لا زالت فى دائرة الشعوذة داخل اطار تعظيم الأصنام ،

صورتها البدائية : أشجار وأحجار يتوسل بها الى كائن الهى ، أو تعبد للوقاية من ضرر الكائنات المؤذية ، ولذا قدمت لها الضحايا للوقاية من الأخطار المتوقع حدوثها .

استعرض كثرة الأصنام وتنوعها بين القبائل ، واختصاص كل قبيلة بصنم مخصوص ، ثم بين أن الطقوس الدينية كانت بسيطة بوجه عام .. تناول أهمية الكعبة ، فذكر قصة بنائها وتعظيم العرب لها وشدهم الرحال اليها كل عام ، وتحريم القتال فى أشهر الحج مما يتيح لهم اللقاء فى جو أخوى بعيد عن المشاحنات والمناوشات . وفى هذا الصدد تحدث عن قصة التقاء آدم بحواء على جبل عرفات بعد هبوطهما من الجنة ، وعن الحجر الأسود ، وعن مكانة ابراهيم عليه السلام بين الشعوب السامية اذ هم يعتبرونه الأب الأكبر ، ففى كل مكان من عالم الساميين القديم توجد دلائل على تعظيمه ، ففى دمشق يعتبر أول الملوك ومؤسس المدينة ، وكان الأدوميون الوثنيون فى شمال مدينة حبرون (الخليل) يعبدونه ، والصابئون عبدوا الاله « أبو روم Abu - Rom » وعندهم فى مدينتهم «حران» — مكان اقامة ابراهيم — معبد أسود مكسو بقماش أسود ، وفيه حجر أسود يتوجهون اليه فى صلاتهم .

لعل قارىء الكتاب يفهم من هذا — وهو ما قصده المؤلف بالتأكيد — أن انتشار بعض معالم الكعبة بين الشعوب السامية — ومنهم وثنيون — يدل على أنها ظاهرة بشرية ، لا علاقة لها بالوحى السماوى ، خضعت لقانون التطور — ذلك الذى سيطر على العقلية الأوروبية فى العصر الحديث ، وحاول بعض العلماء تطبيقه فى مجال الأديان أيضا .

والدليل على خطأ هذا الرأى أن الانتشار وحده ليس دليلا قاطعا على صحته ، لاحتمال أن هذه الشعوب كانت واقعة تحت التأثير الروحى للكعبة ، لمكانتها بين العرب قاطبة ، فدفعها هذا الى محاكاتها فى أقاليمهم ، فاذا أضيفت اليه ما أخبر به الوحى عن تحديد البقعة الطاهرة لابراهيم لاقامة البيت ، رجح أن الكعبة وما حولها ، وما يقام فيها من شعائر هو تحديد من السماء ، غير العرب فيه قبل الاسلام ثم جاء القرآن الكريم فصحح ما غير فاستقام الدين كله لله .

كان « الاله هبل » سيد الكعبة فى مكة ، فقد احتل هذه المكانة نتيجة اعتقاد العرب فى اله أكبر يلتف حوله آلهة أصغر منه ينفذون

أوامره ، وهكذا نما عدد الآلهة المساعدين • ويرجع انتشــار تأليه أصنام بين العرب الى ما قبل ظهور محمد بزمن طويل ، ذلك أنهم اعتقدوا فى وجود الله ، وأنه فى مكان سام لا يمكن الوصول اليه ، ولا توجد صلة تربطهم به • ولذا فقد وجب البحث عن وسيط ، فوجدوه فى هذه الأصنام • ثم تحدث عن اعتقاد العرب فى أن الأصنام تحميهم وترشدهم وأن حمايتها تعم الجميع ، حتى الذين ينزلون ضيوفا عندهم •

كلما زادت سطحية الطقوس الدينية حول الأصنام وضوحا عند العربى ازداد قربا من الايمان بوحدانية الله ، ذلك الايمان الذى كان يريحه نفسيا • نما الاعتقاد بالواحد الأحد بجانب عبادة الأصنام ، وعندما أتى محمد كان العربى على استعداد لاعتناق مبدأ التوحيد •

يبدو للقارىء أن المؤلف واقع تحت سيطرة مؤثرات فكرية سادت فى بيئته ، فهو يحاول تطبيق مناهج البحث الحديثة فى أدلته ، ولكنه لا يستطيع التخلص من رواسب المـاضى الثقـافية فى مجتمعه تجاه الاسلام فيقع فى الخطأ ، ذلك أنه أراد أن يشرح الظواهر العقيدية فى المجتمع الجاهلى فى ضوء نظريات تحول المجتمعات التى سيطرت على جميع مجـالات البحث فى العصر الحديث ، اذ من المسـلم به عنـد العلماء أن الظواهر الاجتماعية الجديدة تنمو — اذا هيئت لها الظروف — شيئا فشيئا الى أن تسود بعد أن تقضى على ما سبقها من ظواهر • وقد ذهب المؤلف طبقا لهذه القاعدة الى أن عقيدة التوحيد نمت فى العصر الجاهلى ، وازداد نموها فى العصر السابق لمحمد — صلى الله عليه وسلم — مباشرة •• الى أن صدع بدعوته فوجد الجو مهيأ لفرض هذه العقيدة على الجميع •• أى أن الاسلام ظاهرة اجتماعية أكملت سلسلة من التغيرات فى هذا المجال •

وغاب عنه فى هذا القياس :

— أن الحنفاء كانوا أفرادا يعدون على أصابع اليد الواحدة ، فهم لم يمثلوا ظاهرة •

— أن عقيدتهم لم تكن واضحة المعالم ، والاسلام جامع شامل لكل عناصر التوحيد ، فهو ليس سلسلة لاحقة بنيت على سابقتها •

— أن الغالبية العظمى من العرب تمسكت بالأصنام ، ودافعت عنهـا حتى الموت ، ممـا يدل على أن الحنفاء لم يكن لهم أثر يذكر فى المجتمع •

— ان من طبيعة الظواهر الاجتماعية التكرار على امتداد التاريخ زمنا أو على اتساع رقعة البسيطة مكانا ، وقد حدثنا التاريخ عن وجود هذا التكرار فى مجال الحضارة والمدنية ، أما فى مجال العقيدة فلم توجد ظاهرة — بالمعنى المفهوم عند علماء الاجتماع — تشبه الاسلام لا فى القديم ، ولا فى الحديث . وهذا يدل على أنه وحى سماوى أنزله الله على محمد ، كما أنزل على موسى وعيسى والنبيين من قبله .

كل هذه العناصر :

تنفى :

أن يكون الاسلام مرحلة فى سلسلة الظواهر الاجتماعية .

وتثبت :

أنه وحى من السماء ، اشتمل على نظام كامل لاصلاح المجتمع الانسانى ، نظام لم يؤسس على ما سبقه من عادات وتقاليد المجتمع الجاهلى ، ولم يكن تطورا لما سبقه ، بل أنزله العليم الخبير .

تناول حديثه عن الأديان الأخرى فى الجزيرة العربية : اليهودية والنصرانية ، فذكر أن اليهود الذين عاشوا بين العرب كانوا يتحدثون اللغة العربية ، واستقروا فى مناطق ، فلم يكونوا رحلا مثل العرب ، واشتغلوا بالتجارة والزراعة ، وصناعة الحلى . هذا الاستقرار بالاضافة الى التمسك الشديد بالعقيدة ، جعل اليهود منعزلين عن العرب ، فلم يفكر أحد من البدو أن يعتنق اليهودية . وذلك يخالف الوضع بالنسبة للنصرانية فقد اعتنقها بعض العرب فى الشمال ، ولو لم يظهر الاسلام لانتشرت فى الجزيرة العربية . أما المبشرون فقد جابوا المنطقة — العراق وسوريا والحبشة واليمن — يدعون الناس الى الدخول فى المسيحية ، وقد أحسن الاستماع اليهم بعض القبائل ، فكانوا يعظون فى الأسواق دون أن يمنعهم أحد .. ثم أعطى صورة مفصلة عن الأديرة والكنائس التى أقيمت فى الصحراء وذكر أن تأثير النصرانية على الحنفاء كان كبيرا ، غير أنه مال الى أن تأثيرها على الاسلام لم يكن مصدره اتصال العرب بالمناطق المسيحية المجاورة — عن طريق التجارة — فقط ، بل يرجع أيضا الى الحنفاء الذين كانوا يقرأون كتبها .

يفهم المرء عند ما يقرأ هذه الفقرة أن المؤلف يعتقد أن المسيحية — وكذلك اليهودية — كانت من المصادر ، التى أمدت محمدا (صلى الله عليه وسلم) بعقيدة التوحيد . ولا يخفى خطأ هذا الرأى على من عنده المام بسيط بمفهوم التوحيد فى الأديان الثلاثة ، اذ بينما يقرر الاسلام أن الله واحد فى ذاته وصفاته ، ليس كمثله شىء ، نرى المسيحية تقول : أن الله ثالث ثلاثة . واليهود يصفون الله فى الكتاب المتداول بينهم بأوصاف لا تليق به سبحانه وتعالى . فماذا أخذ الاســلام منها ؟ هل أخذ التثليث ؟ .. القرآن ينكره ، بل يهدد من يعتنقه بالعذاب الأليم : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(١) .

وهل وصف الله فى القرآن الكريم بمثل ما جاء فى توراة اليهود — المتداولة بينهم — من أن الله عز وجل تصارع مع يعقوب ، فضرب به يعقوب الأرض(٢) . ان التوحيد الذى دعا اليه الاسلام لا نظير له ، لا بين العرب ، ولا عند اليهود والنصارى فى كتبهم المقدسة ، فكيف يعقل أن تكون المسيحية — أو اليهودية — مصدرا من مصادر الاسلام !!!

٥ — الشــعر :

كان الشعر هو القاسم المشترك بين العرب جميعا لأنه صيغ بلغة تفهمها كل القبائل مهما اختلفت لهجاتها ، ولذا كان بمثابة الرباط بينها حيث غاب الدين الذى يربط بين النــاس ، كما كان سجلا لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهو وعاء حفظ تاريخهم .

حلل أخلاق الشعراء وصنف رحلاتهم بين القبائل منشدين بالمدح تارة وبالذم أخرى ، كما تناول موضوعات الشعر بالتحليل مثل :

الفخر الذاتى (الشجاعة ، الشرف ، الوفاء ، الحب) مدح القبائل (الاشادة بالشجاعة ، الثأر من الأعداء ، الكرم) والتغنى بالمعارك التاريخية .. و .. و .. الخ ، ثم بين مركز القبيلة حين يظهر فيها شاعر ، ومدى احتياج العرب الى هذا النوع من الثقافة ، نظرا لأن الغالبية العظمى أمية ، لا تعرف القراءة والكتابة ، **فان أول كتاب ظهر بين العرب هو القرآن .**

---

(١) المــائدة : ٧٣

(٢) سفر التكوين : ٣٢ : ٢٤

الباب الثاني

سيرة الرسول "صلى الله عليه وسلم"

* مشاكل السيرة .
* طفولة وشباب .
* النبـــوة .
* مكة تكفر بالدعوة .
* الهجـــرة .
* النبى فى المدينة .
* الخاتمـــة .

سيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم

يشتمل هذا الباب على :

١ ــ مشاكل السيرة :

ان التقاليد الأوروبية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا، لدرجة لا تمكننا عن الفصل بين حياته ، وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن ــ الذى هو دستور الحياة للمسلمين ــ أقل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك افهام الأوروبيين أن من تكون حياته على هذا النحو ، لا يمكن أن يكون جادا فى دعوته للناس الى دين صحيح •

ساد هذا الرأى ــ ولا زال ــ بين كثيرين ، بل وصل الأمر الى أكثر من هذا ، فقد وصفوه صراحة ــ دون تورية ولا تكنية ــ بأنه محتال وسفاح وشهوانى • فالحقد السياسى ــ الذى نتــج عن انتشار الاسلام وسيطرته على كثير من مناطق العالم ــ والتعصب الدينى ــ دفعا هؤلاء الكتاب الى البحث عن الجوانب المظلمة لاستخدامها فى وقف المد الاسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) • فاستخدموها كدليل على أن الاسلام لا يصلح لشىء ــ للتنفير منه •

ولكن : آلا يتعارض هذا الموقف تعارضا مباشرا مع الحقائق المقررة لمفهوم الحياة المسيحية ؟ اذ يعتقد البعض ــ اعتقادا جازما مستندا الى نصوص عقدية ــ فى صك غفران فى يده ، ويستغنى بذلك عن العقيدة الحية ، التى تبعث الحياة فى كل شىء !!!

فلكى نصل الى الحقيقة فى حياة محمد ورسالته ، ينبغى أن نقبل على البحث بعقل منفتح ، وقلب صاف ، معرضين عن الزعم الباطل المسبق ، والوهم الذى لا أساس له ، مدققين فى الروايات التى تروى عنه ، حذرين فى تقييم كل ما يعرض علينا • قد يكون من غير الممكن

على الغربى المسيحى تحقيق هذه المثالية ، ولكن الجهد الصادق فى هذا المجال سوف يكون خطوة أولى على الطريق ، تتلوها خطوات ، خاصة وأن جو البحث فى عصرنا هذا — حيث تقاربت المسافات — أنسب وأسهل مما كان عليه الوضع فى القرون الوسطى ، اذ يعيش بيننا كثير من المسلمين ، مما يجعلنا لا نعتمد على الأبحاث المسيحية فقط ، بل نتصل بالمسلمين مباشرة فنسألهم ونناقشهم فيما يتعلق بدينهم ونبيهم ، وأعتقد أننا بهذا سوف نمزق أساطير ألف ليلة وليلة — التى حيكت حول الاسلام — ونسلط الأضواء على الحقائق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية • وينبغى ألا ننسى أيضا أن كثيرا من المسلمين يبالغون فى تعظيم نبيهم ، فيدفعهم ذلك الى تصوير حياته تصويرا يقرب من الخيال الموجود فى قصص ألف ليلة وليلة ، على الرغم من أنه أكد أكثر من مرة أنه بشر ، لا يستطيع أن يأتى بكل ما يطلبون من معجزات •

اذا كان المؤمن بالمسيحية يهتم بالطريقة التى خرج بها الجزء الناسوتى لعيسى من عالم الأحياء ، لأنه يؤمن بالعهد الجديد ، ويعتقد فى مخلصه !!! فانه سوف يهتم أكثر — اذا أتيحت له الفرصة — بحياة محمد الخاصة •

ولما كان فى هذه الحالة لا يشعر برباط يربطه به — فربما تكون رغبته منصبة على معرفة ما اذا كان محمد قد عاش متدينا مثل عيسى — فسوف تكون هذه المقابلة خاطئة ، لأنه يؤمن بعيسى ، وينفذ ما ورد عنه دون اعتراض ، بينما يشك فيما يسمعه من أخبار محمد المتعلقة بالوحى ، على الرغم من أن الانجيل اعترف بوجود أنبياء آخرين • وهذا هو مصدر كثير من الأحكام الخاطئة عن الاسلام •

هناك خطر آخر على عدم التحيز فى البحث ، ألا وهو : عدم التعمق ، فقد شاعت أحكام كثيرة بنيت على أدلة غير كافية — على الرغم من سهولة الوصول الى كل المصادر الموجودة فى عصرنا الحاضر — مما جعل الفهم الخاطىء يسود جبهة عريضة فى مجتمعنا ، فشاع سوء التفاهم الذى ينمى التناقضات الظاهرية بيننا وبين المجتمعات الاسلامية • وليس من السهل على الباحث — الذى يشعر بالمسئولية — أن يتصدى لهذا التيار ويوقفه ، لأن المهتمين بنتائج هذه الأبحاث قلة قليلة من الناس • ولكن ما يعزينا ويدفعنا الى الاستمرار فى هذا الطريق هو أن المعرفة القائمة على أساس متين ، سوف تنتشر بمرور السنين شيئا فشيئا ، الى أن تصبح من المسلمات التى يؤمن بها الناس •

٢ ــ طفولة وشباب :

تتصل حياة محمد بالمجتمع القبلى العربى القديم ، هذه حقيقة ، ينبغى على المرء أن يضعها نصب عينيه ، حتى يتجنب أى خطأ فى الحكم ، فلم تكن الحياة هناك ذاتية فردية ، بل احتل الفرد مكانا معينا فى الأسرة والعشيرة والقبيلة •

ثم تناول المؤلف قريشا ومكانتها بين القبائل ، وبنى هاشم ووضعهم فى قريش ، واستعرض أحداث السيرة النبوية ابتداء من الحديث عن عبد المطلب وعن عبد الله وآمنة ، مارا بموتهم وكفالة أبى طالب له ورعى النبى الغنم لأهل مكة ورحلته الى الشام ، وزواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها وأولاده منها ، فلم يخرج فى هذا عما جاء فى كتب السيرة ، غير أن هناك ثلاث مسائل ينبغى الوقوف عندها لتتضح الحقيقة •

المسألة الأولى ــ حادثة شق الصدر :

ذكر المؤلف هذه الحادثة كما وردت فى كتب السيرة ، غير أنه ذهب الى أنها أسطورة ، والى أن الدافع الى ظهورها فى المجتمع الاسلامى ، هى الآيات الأربع الأولى من سورة « الشرح » •

ونحن المسلمين لا نوافقه على أنها أسطورة ، لأن كتب السيرة كلها ذكرتها ، فمن المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على الباس أسطورة لباس الحقيقة ، وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يروون من أخبار •

وانكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهذه الحادثة ، استنادا الى أن ما ورد فى كتب التاريخ لا يعد من الحقائق العلمية المؤكدة ــ وهو ما دفع المؤلف الى اعتبارها اسطورة ــ لا يعد مطعنا يدخل منه أعداء الاسلام للهجوم عليه ، لأنها لا تتعلق بعقيدة ، وليس لها صلة بتعاليم الاسلام المفروضة •

أما ادعاؤه بأن الدافع الى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة « الشرح » ، فلا يقوم على دليل مستوفى الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه الا على ما يذكر فى الكتب المعتمدة ، لا على ما كتب فى عصور الانحطاط الفكرى فى المجتمع الاسلامى ، ولا على ما كتبه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الأديان •

ولم يربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك»(١) · وبين حادثة شق الصدر ، بل اجمعوا فى تفسيرهم لهذه الآيات على أن الله من على محمد صلى الله عليه وسلم :

بأنه أزال الحقد من نفسه وأودع فيها هدى ومعرفة وأيمانا وفضائل وعلوم وحكم ·

وبأنه خلصه من دنس الجاهلية وفسادها فى نشأته ·

وبأنه خفف عنه ما أثقل ظهره من أعباء النبوة والرسالة حتى يقوم بها ويبلغ رسالة ربه ·

وبأنه رفع شأنه باختياره للرسالة ·

وهى نعم تدل على أن الرعاية الالهية ستصاحبه ·

ولا نجد ربطا بين هذه الآيات وبين الحادثة الا فى كتب لا وزن لها ، ولايعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة ، وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هذه الكتب لا قيمة لها فى نظر الباحث المدقق ·

المسألة الثانية — زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

فقد روى المؤلف أن السيدة خديجة سقت أباها خمرا حتى أسكرته لتنتزع منه الموافقة على زواجها بمحمد بن عبد الله ·

وأمانة البحث العلمى تحتم عليه ألا يقتصر على رواية واحدة فيما وردت فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خويلدا (والد السيدة خديجة) أبرم هذا الزواج وهو سكران فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز من أهل مكة :

لا تزهدى خديج فى محمد   نجم يضىء كاضاء الفرقد

كما ذكرت رواية أخرى أن خويلدا كان اذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجة رضى الله عنها هو عمها عمرو بن أسد ، كما يقال أيضا : أن الذى أنكحها هو أخوها عمرو بن خويلد(٢) ·

---

(١) سورة الشرح : ١ — ٤

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام : (تحقيق مصطفى السقا وآخرين — الطبعة الثانية — ١٩٥٥ م — ص ١٩٠

فليس فى الرواية الأولى ما يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها سقت والدها الخمر لتنتزع منه الموافقة كما ذهب الى ذلك المؤلف ٠ ومن المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال ، ولا شك أن خطبتها مناسبة تدعو الى الشرب ، فأكثر والدها منه ، الى أن جاءت لحظة الموافقة الروتينية بعد القـــاء كلمات الخطبة ، كانت الخمر قد أسكرته ، فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن ٠

هذا اذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا اذا التزمنا بمبادىء البحث العلمى لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتان أخريان ، تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمد ابن عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى برمتها ، وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الاسلام المروق منها للطعن بأى كيفية ٠ فان وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى مهما كانت نوع النتيجة التى يوصل اليها ، فيجب أن يلزموا الصمت ازاء هذه الحادثة ، فلا يتخذونها مادة للتشهير ٠

المسألة الثالثة ــ أمية محمد صلى الله عليه وسلم :

من المسلم به أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل الى ربه ، غير أن المؤلف ذكر أن بعض المستشرقين المحدثين يرون أنه تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، عندما اشتغل بالتجارة ، الا أنه لم يعرف لغة أجنبية ، ومن هنا فقد أخطأ فى النقل عن الأديان الأخرى ٠

هذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الاسلامية المتخصصة لاهملناه :

فمن القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى الى دليل ٠

فأين دليل هؤلاء المستشرقين ؟

ان قالوا : مصادر اسلامية ٠٠ فقد افتروا كذبا ، اذ لا يوجد البتة مصدر واحد ــ مهما كانت قيمته ومركزه فى مجال البحث العلمى ــ يمكن أن نجد فيه أدنى اشارة الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة وهو كبير بل العكس هو الثابت ، اذ أجمعت المصادر كلها على أنه ظل أميا طول حياته وأكدت ذلك ٠

وان قالوا : مصادر غير اسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصـــادر الخصم للوصول الى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟

الثانية : لم يذكر المؤلف تلك المصادر التى اعتمد عليهـــا هؤلاء المستشرقون حتى نقيمها ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء ، باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقين اعتمادا على افتراضات ، وهى لا تؤدى الى حقيقة علمية ، بل الى تخيلات يظنها الباحث المغرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى ٠

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل من المسيحية واليهودية ، فيكفى للرد عليه أن الانسان الذى لم ينل حظا وافرا من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ، ذلك أن النظام المنقول — فى جميع فروع النشاط الانسانى — لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول عنه ، مهما عدل فيه وغير ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الاسلام ؟

لقد أنفرد الاسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة وخالف ما ورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى ٠

ففيما يتعلق بالاله يقول أحد العلماء الأوروبيين :

« الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما الى ذلك من الأشكال ٠

أما المسيحية فان لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شـــيخ طاعن فى السن قـــد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، الى لحية بيضاء مرسلة مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون : « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون الى رمز الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك « يا هو » الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف «الفاتيكان» وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة ٠

أما « الله » فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته أزميله ، ذلك لأن الله لم يخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد »[١] ٠

وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم ٠٠ فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقـال : أنه صـحح دين الله الذين حرفوه ، وبين شريعته التى بدلوها وغيروها[٢] ٠

٣ ــ النبـوة :

هيأ قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة الوقت لمحمد للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه الى عبادة الله وحده ٠ وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك ، منها ما كان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث عن الحق ، ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى المدينة :

لم يثبت تاريخيا أن محمدا تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنين ــ فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة ــ ولا يعقل أبدا أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلا عن أعتقد شىء فيه وهو التوحيد ٠ كذلك لم يثبت أن محمدا كانت له صلة بالحنفاء ، أو كان يجلس اليهم ، انما الحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ورقة ــ عندما قال له : ليتنى حيـا اذ يخرجك قومك ! ــ

---

(١) أوروبا والاسلام ــ للدكتور عبد الحليم محمود ــ المكتبة العصرية ــ ص ٧٧ ٠

(٢) للمزيد من معرفة الأحكام التى خالف فيها الاسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين أيديهم ، اقرأ كتاب : (بين الاسلام والمسيحية) تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة ــ الناشر : مكتبة وهبة ٠

« أو مخرجى هم »(١) أنه لم يكن يعرف شيئا من سيرة الأنبياء السابقين، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم حين دعوهم الى عبادة الله • وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئا عن هذا اطلاقا ، لا من اليهود ولا من الحنفاء •

لم يكن جو مكة مساعدا على التأمل والنظر ، اذ كان يسيطر عليه النشاط التجارى الذى دفع الناس الى الجرى وراء السلطة والثروة ، فملئت حياتهم بالحقد والحسد والثأر ، وتعددت آلهتهم التى نصبوها حول الكعبة ، فوصلت الى أكثر من ثلاثمائة صنم •

ترك محمد هذا الجو وذهب الى غار حراء متأملا يفكر فى أمر قومه ، ويتمنى أن ينقذهم مما هم فيه من ضلال ، ولم يكن يأمل الا فى ردهم الى دين أبيهم ابراهيم عليه السلام الى أن جاءه الوحى وهو فى الغار •• ثم يسرد تفاصيل نزول الوحى على النبى ، وذهابه الى خديجة خائفا ، وحديثها مع ورقة بن نوفل •• الخ • وفى معرض حديثه عن الوحى والقرآن يذكر أن بعض الغربيين يعتقد أن ما كان يصيب محمد أثناء تلقيه الوحى ما هو الا نوبات صرع ، ولكن هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

— ان المصروع لا يتذكر شيئا مما حل به أثناء نوبة الصرع ، لأن — هكذا يقول المؤلف — حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمد أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الاثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه •

— وان الذى تنتابه نوبات الصرع بهذه الكثرة ، تضعف قواه بمرور الأيام ولكن محمدا ظل محتفظا بها حتى آخر حياته مما يدل على انها لم تكن نوبات صرع •

---

(١) عندما نزل جبريل بالوحى لأول مرة على محمد بن عبد الله فى غار حراء ، رجع الى خديجة وأخبرها الخبر ، فانطلقت به الى ورقة بن نوفل لتسأله عما حدث لمحمد فقال له ورقة : والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ••• ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجى هم » ؟ فأجاب ورقة : نعم لم يأت أحد بمثل ما أوتيت الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا •

٤ ـ مكة تكفر بالدعوة :

لو بدأ محمد دعوته أهل مكة باظهار معجزات حسية لهم ، لكانت معارضتهم له أخف ، ولـكنه كان يكرر دائمـا أنه بشر ويدعوهم الى الايمان بالله وباليوم الآخر ويطالبهم بتحرير العبيد ، وبأن يحسنوا معاملة النساء والأرامل واليتامى ، ثم حرم وأد البنات •

استنكر أهل مكة هذه التعاليم لأنها كانت غريبة عليهم ، فعارضوه واشتدوا فى معارضته ••• استعرض المؤلف أحـداث مقاومة قريش للدعوة ، وتطورها من معارضة فردية الى معارضة جماعية ، تلك التى تمثلت فى مقاطعة قريش لبنى هاشم وفى ثنايا سرده للأحداث تناول :

أخبار من أسلم منوجهاء قريش مثل عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبـد المطلب •• و •• و الخ • ودفاعهم عنه بجانب الـدرع ذى الجناحين الواقيين له ، وهما زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها ، وعمه أبو طالب •

وهجرة المسلمين الى الحبشة •

وحديث الاسراء والمعراج الى أن وصل الى التجهيز للهجرة الى يثرب • وفى هذا الباب نتوقف عند نقطتين •

الأولى ـ قصة الغرانيق :

يذكر المؤلف أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه ، نزل الوحى بأن الله اعترف ببنوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ويستدل على ذلك بنصوص اسلامية •

قد يقال : ان المؤلف لم يأت بدعا من القول ، فالقصة رويت فى كتب اسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماما بالغا ، وعليه فمن الطبيعى أن يردد أوروبى لم يدرس الاسلام فى معاهد اسلامية مثل هذه القصة ، اذ ليست لديه الروح الاسلامية التى تدفعه الى محاولة تنقية التاريخ الاسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الاسـلامى أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هذا المؤلف ، فهو ليس مسلما ،

ولا يعيش فى مجتمع اسلامى ، بل يسمع من المستشرقين دون أن يصحح له أحد ، ويقرأ كتبهم ، وليس فى متناول يده المراجع الأخرى التى تصحح هذه المفاهيم البعيدة عن الصواب ٠

والموقف يقتضينا أن نذكر ردا بسيطا ، يقتنع به كل قارىء ، مهما كانت درجة ثقافته ، ألا وهو :

— ان هذه الرواية التى ذكرت تلك القصة مشكوك فى صحتها ، واذا تطرق الشك الى دليل فقد حجيته ٠

— زد على ذلك أن المرء اذا قرأ الآيات التى أوحت بهذه القصة وهى :
« أفرأيتم اللات والعزى ٠ ومناة الثالثة الأخرى »(١) ٠
ثم أضاف اليها النص التى أحدث البلبلة وهو :
« تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى » ٠
ما استقام المعنى اطلاقا ، اذ عقب هذا مباشرة — على فرض صحة النص — جاء قوله تعالى :
« ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك اذن قسمة ضيزى »(٢) ٠
فكيف يستقيم المعنى ، لو أقحم النص المفترى بين تلك الآيات ؟
لا يستقيم الا فى عقل سقيم !!!

الثانية — رحلته الى الطائف :

أرجع المؤلف رفض أهل الطائف دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الى خوفهم على مصالحهم التجارية ، فقد كانت تربطهم بأهل مكة معاملات تجارية ، كانت ستتأثر لو اتخذت قريش منهم موقفا عدائيا ان هم أسلموا ٠

هذه قضية صحيحة الى حد ما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ، ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لرفضهم الاسلام بدليل أنهم رفضوه بعد أن أسلمت قريش وسلمت للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن الانسان مثل النبات ، مربوط فى مجتمعه بعدة جذور ثقافية واجتماعية وعقدية — وهى المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد — وعند التحول فى أى ميدان من

---

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠ . (٢) النجم : ٢١ ، ٢٢ .

ميادين الحيـــاة ـــ الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ـــ لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هـــذه الجذور ليتحولوا الى الاتجـــاه الجديد فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الآخر يبطىء .. الى أن يصل الأمر الى اكراه بعض الأفراد على التحول (قد تكون وسيلة الاكراه معنوية : وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد ـــ أو مع قلة قليلة ـــ المتمسك بالقديم) ، وموقف العرب من الاسلام لم يخرج عن هذه القاعدة ، تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب بالتحول الى الدين الجديد ، وهذا هو ما يعبر عنه قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء »[1] .

٥ ـــ الهجـــرة :

لـــا اشتد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم جاءه الفرج من ناحية المدينة فقد استمع اليه نفر من أهلها أثناء موسم الحج ، فآمنوا به ، وكانوا رسل الدعوة الى مدينتهم .. ثم حدثت بيعة العقبة الأولى والثانية التى اتخذ فيهـــا قرار الهجـــرة ويمضى المؤلف فى حديثه عن الهجرة ، فيذكر أن « التكتيك » السليم المحكم ، هو الذى أنقذ محمدا من أهل مكة الذين خرجوا يتعقبونه ، ومن مراحل هذا « التكتيك » لجوئه الى غار يقع على عكس طريق المدينة ، ثم يتحدث عن لقاء أهل المدينة له وحرص كل واحد أن يستضيفه ، فكان قراره الحكيم ، وهو أن تترك الناقة وشأنها فحيث تبرك يحط رحاله .. وقد قرر عمر بن الخطّاب بعد سبعة عشر عاما من الهجرة اتخاذها بداية التاريخ العربى .

لم يذكر المؤلف المعجزات التى وقعت أثنـــاء الهجرة ، من نسج العنكبوت وتعشيش اليمامة على باب الغار ، وما كان من أمر سراقة وخبر أم معبد وغير ذلك من الأخبار التى وردت فى كتب السيرة ، ومن المستبعد عدم اطلاعه على هذه الأخبار وهو الذى سرد فى كتابه أخبارا تنبىء عن المـــامه بما جاء فى كتب السيرة كلها ، وعليه فمن المؤكد أنه اغفلها عمدا ، ولا يعد هذا نقصا أو تقليلا من قيمة البحث ، لأن العقل

---

(١) الأنعام : ١٢٥

الأوروبى فى العصر الحديث لا يتقبل بسهولة أحداثا لا يعرف أسبابها المــادية — والمعجزات من هذا النوع — لذلك آثر المؤلف أن يتجنبها حتى يصل الى هدفه ، وهو تعريف القارىء الأوروبى بالاسلام ، دون أن يفقد اهتمامه بما يعرض عليه ودون أن يفقد ثقته .

وهــذا أسلوب ينبغى على الدعاة أن يلتزموا به ، اذا خاطبــوا المجتمعات الواقعة تحت تأثير التيارات المــادية .

كذلك ينبغى عليهم أن يبينوا لغير المسلمين — وللمسلمين أيضا فى بعض المواقف — أن الاسلام دين مبادىء وقيم لا ترتبط بالأشخاص ولو كان النبى نفسه ، وقد فهم ذلك المسلمون الأوائل ، فربطوا التاريخ بحادثة تتعلق بأمور الدعوة لا بشخص النبى ، فلم يجعلوا ميلاده بداية للتاريخ كما حدث فى الأديان الأخرى بل أخذوا بدايته هجرة الدعوة من المدينة التى اضطهدت فيها الى مدينة أخرى ، فتحت لها ذراعيها ، وأحاطتها بالرعاية والحنان ، ودافعت عنها بالروح والمال .

٦ — النبى فى المدينة :

وصف المؤلف موقع المدينة الجغرافى ، وطبيعة أرضها وغلاتها ، ثم تناول تركيب المجتمع ، فذكر انه كان يتألف من قبيلتين عربيتين كبيرتين ، هما الأوس والخزرج — وكانتا فى صراع دائم — يحوط بهمــا ثلاث مجموعات يهودية هى : بنو قريظة ، وبنو النضــير ، وبنو قينقاع .

أراد النبى أن يجمع شتات هذه المجموعات المتنافرة ، فدعا الى عقد حلف دفاعى عن المدينة ، يدخل فيه الجميع بما فى ذلك اليهود ، ولم يجبر أحدا على الدخول فى الاسلام بمقتضى الدخول فى هذا الحلف الدفاعى ، بل حرم على اليهود أن يبدأوا بشن حرب على أحد من تلقاء أنفسهم ، وانما يساعدون فقط فى الدفاع عن المدينة ، ومن المسلم به أنه لم يكن يسمح لأحد بأن يعقد حلفا مع أهل مكة .

اختفت الطبقية فى المجتمع الاسلامى الجديد ، لأن الاسلام آخى بينهم ومحا كل تفاضل قائم على العرق أو النسب أو الوضع الاجتماعى كما تلاشت غريزة الأخذ بالثأر من نفوس العرب فى المدينة ، وحلت محلها غريزة الدفاع ضد من يحاربون الدعوة . وكان التسامح هو طابع

العلاقات بين سكان المدينة ، وهو من الانجازات الضخمة التى يحق للاسلام أن يفخر بها على مر العصور •

ازدادت قوة الاسلام بعد معركة بدر ، كما اتسعت هوة الشقاق بين المسلمين والكافرين عاما بعد عام ، فنشأ فى المجتمع الاسلامى مجموعة آمنت بالاســـلام فى الظاهر وكفرت به فى الباطن ، وهم الذين أطلق عليهم « المنافقون » •• ثم حلل سلوكهم فى المجتمع ودسائسهم وميلهم الى أهل مكة ، كما ذكر أن الأيام أظهرت أن طبيعة علاقة اليهود بالمسلمين لم تختلف عن طبيعة المنافقين ، اذ كانوا يتحينون الفرصة للنيل من الاسلام ، وفصل القول فى الصراع الذى اندلع بينهم وبين المسلمين ـــ ذلك الصراع الذى أدى الى قتل البعض وطرد الآخرين من الجزيرة العربية •

سرد المؤلف ما حدث بعد الهجرة من تشريعات ، وغزوات كما جاءت فى كتب السيرة ، الا أنه أخطأ فى بعض تحليلاته ، وسنبين رأيه فيها ثم نرد عليه :

(أ) تحويل القبلة :

يرى المؤلف أن اليهود عندما قلبوا ظهر المجن لمحمد ، فاتهموه ، وأنكروا نبوته ، تحول محمد عن سياسته الرامية الى التقرب منهم ، فحول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة •

يخطىء من يعتقد أن الله فرض التوجه الى بيت المقدس فى الصلاة ثم حول القبلة الى الكعبة فى مكة ، ذلك أن التوجه الى بيت المقدس لم يكن سوى اجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن أمامه سوى الكعبة وبيت المقدس ، والكعبة تحيط بها الأصنام ، ويقيم المشركون حولها طقوس عبادتهم ، فاختار بيت المقدس قبلة ، لأنه لا زالت له صلة ـــ وان كانت واهية ـــ بمنبع التوحيد ، ثم جاء الوحى مبلغا أن الكعبة ـــ رغم ما حولها ـــ هى قبلة المسلمين ، لأن الله علم أنها ستتطهر من هذا الرجس عما قريب •

وعليه فلم يغير محمد القبلة ، لأنه وقع فى نزاع مع اليهود ـــ كما يدعى المستشرقون ـــ ولم ينسخ فريضة التوجه الى بيت المقدس بتحويل القبلة الى مكة كما يفهم ذلك بعض المسلمين •

(ب) صيام رمضان :

كذلك حول الصيام من أيام متفرقة الى فرض صيام شهر رمضان، مخالفا بذلك اليهود ٠

والرد عليه فى هــذه النقطة لا يختلف عن جوهر الرد فى النقطة السابقة فالصيام كان اجتهادا ، ثم فرض صوم رمضان ، ولا يعد هذا مطعنا على الاسلام ، لأن الفروض لم ينزل بها الوحى دفعة واحدة ، فكان من عادة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، فاذا جاء الوحى جب كل اجتهاد سبقه ٠

(جـ) غزوة بنى قريظة :

زعم المؤلف أن تسامح محمد مع اليهود تحول الى ثورة عليهم أدت الى قتل رجالهم واتخاذ نسائهم وأطفالهم عبيدا ٠

يركز المستشرقون على غزوة بنى قريظة ٠٠ ويتخذون من أحداثها مادة للهجوم على الاسلام ، وأحب أن أسألهم — ومن يدور فى فلكهم — هذه الأسئلة :

— كيف يتصرف مسئول فى أرقى دولة حضارية ، لو ثبت أن مجموعة من الطوائف التى يتكون منها شعبه تآمرت مع العدو للقضاء على جيش الدولة وكيانها بأكمله ؟

— وماذا فعل الحلفاء — فى العصر الحديث ، الذى يتغنون فيه برعاية حقوق الانسان — بمجرمى الحرب فى محاكمة « نورنبرج » ؟

قد يقال انهم ارتكبوا جرائم قتل جماعية ٠٠ فاقتص منهم !!

فهل اقتص المجتمع الدولى ممن قتل المسالمين — حتى الأطفــال والنساء — فى دير ياسين ؟

ان ما حدث فى غزوة بنى قريظة لم يكن سوى حكم محكمة ، اختار المتهمون فيها قاضيهم ، فحكم عليهم بما يجب أن يكون ، ولا تختلف هذه المحاكمة عن محاكمة « نورنبرج » بل تفضلها فى أن المتهمين هم الذين اختاروا القاضى ، أما فى « نورنبرج » فكان الحكم فيها هو الخصم ٠

لو تدبرتم الأمــر فنظرتم الى المسالة دون تحــيز ، لأدركتم أن ما حدث فى غزوة بنى قريظة هو اجراء لازم تتخذه كل دولة تجد نفسها

فى مثل هذه الظروف ، ولا يوجه اليهـا النقد الا من المغرضين أو الغافلين •

(د) التعرض لعير أبى سفيان :

ادعى المؤلف أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة ٢٠٠ أسرة اليها فاضطر ذلك محمدا الى اتخاذ اجراء للخروج من هذا المأزق فوجه المسلمين الى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان •

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة •

— فمن أين استقى المؤلف هذه المعلومات •• ؟

لا شك أنها استنتاج من تصورات خيالية فى ذهن المستشرقين •• ذلك التصور خيل لهم أن التعرض للقافلة — هو الاستيلاء عليها — والدافع اليه هو احتياج أهل المدينة لمـا تحمله •• و •• و •• الخ وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى ، الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة ، زد على ذلك القرآن الكريم قد بين أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو احقاق الحق ، أى كسب اعتراف « دولى » بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن ادراكهم للخطر الذى تتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم الى المصالحة والتخلى عن الوقوف فى طريق الدعاة •• ومن يقرأ قوله تعالى :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »[1] •

يدرك هذا المعنى •• اللهم الا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم الى طريق العـداوة للاسـلام ، حيث يكون هدفهم الهجـوم عليه والكيد له •

ختم المؤلف هذا الباب بالحديث عن عمرة القضاء •• فذكر أن مظاهر التقوى التى بدت على وجوه المسلمين ، والتزامهم النظام أثر على سكان مـكة تأثيرا نفسـيا كبيرا ، فأدركوا القوة الروحية والفكرية للتعاليم

---

(١) الأنفال : ٧ ، ٨

الجديدة ، كما لمسوا مدى القوة التى تنبع منها . وعلى أثرها — أى عمرة القضاء — دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد فى الاسلام وصارا من أكبر قواد المسلمين .

٧ — الخاتمـة :

لم تلتزم قريش بمعاهدة الصلح التى عقدتها مع النبى ، فجهز جيشا ضخما لفتح مكة .. ويمضى المؤلف فى سرده لأحداث غزوة الفتح ، ويركز على العفو العام الذى منحه النبى لأهل مكة بعد أن أصبحوا فى يديه يتصرف فيهم كيف يشاء ، دون معارضة ، وهنا تغلب عليه جانب الصفح فعفا عنهم ، ثم يتحدث عن الأحداث التى تلت غزوة الفتح حتى جاءته المنية ، ففارق أصحابه دون أن يعين خليفة له .

وعن الدولة الاسلامية يقول :

« لم يعرف المسلمون فى الصدر الأول الفصل بين الدين والدولة وكانت المساواة بين الجميع فى الدولة الاسلامية سدا يمنع المشاحنات واراقة الدماء ، فقد نص فى سورة الحجرات على أن أفضل الناس عند الله أتقاهم :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

لكن المسلمين سرعان ما نسوا هذه الوصية بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ، اذ عادت العنصرية القبلية تطل برأسها ، وكانت سببا فى انهيار الدولة العربية .

* * *

---

(١) الحجرات : ١٣

الباب الثالث

القرآن الكريم

* مكانته عند المسلمين .
* جمع القرآن .
* المضمون .

القــرآن الــكريم

ويتضمن هذا الباب :

١ ــ مكانته عند المسلمين :

شرح المؤلف كلمة « قرآن » وبين علاقتها بكلمة « قرأ » محـــاولا ربطها بفعل الأمر « اقرأ » فى أول آية نزلت على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهى قوله تعالى : **« اقرأ باسم ربك الذى خلق »**(١) ثم ذهب الى أن معنى كلمة « اقرأ » فى اللغة العربية هو نفس معنى كلمة « قارا » فى اللغة العبرية •

وعن شمول موضوعاته لمــا يحتاجه المجتمع ، يعبر عنه ما روى عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ وان كانت هذه الرواية مشكوك فى نسبتها اليه ــ من أنه قال ــ حين حرقت مكتبة الاسكندرية :

« ان كانت هذه الكتب قد احتوت على شيء يخالف ما فى القرآن ، فهو ضار ، ويجب اعدامها ، وان كان ما فيها مطابقا لمــا ورد فيه ، فلا فائدة فيها ، ويجب أيضا التخلص منها » •

فهذه الكلمات تبين أن القرآن الكريم مقدم عند المسلمين على كل ما عداه من كتب • ثم تحدث عن أن بعض الفرق الاسلامية ترى أنه قديم وليس حادثا ، ولذا فهو مقدس • الا أنهم لم يعتقدوا أنه جزء من الاله ــ كما هو الحال عند المسيحيين عندما اعتقدوا أن كلمة الله صارت جسدا : فآمنوا بنبوة عيسى ــ عليه السلام ــ فلا ينبغى تعظيمه على أنه صورة الله ، بل على أنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى أن ما فيه صالح لكل زمان •

حظى القرآن الكريم بعناية ، لم ينلها أى كتاب على وجه الأرض ، اذ يبذل المسلمون جهدا كبيرا فى المحافظة على « رسمه » فلا يجـــوز التهاون فى شيء مهما بلغت ضآلة هذا الشيء ، وينال التلميذ أســـمى آيات التكريم عندما يحفظ القرآن كله • كذلك لا يقرأ فى الصلاة ــ فى أى

---

(١) العلق : ١

بقعة من بقاع العالم — الا باللغة العربية[١] ويتلوه المسلمون تعبدا ، سواء فهموا معناه أم لا ، فلا يجوز ترجمته الا للعبادة فقط .

وهو جامع لكل شيء :

« ما فرطنا فى الكتاب من شيء »[٢] .

فهو كتاب عبادة ، كما هو تشريع لما يحتاجه المجتمع من قوانين ، وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ من التغيير والتبديل ، اذ الكتب السماوية الأخرى محرفة ومتناقضة فى نظر المسلمين . ولكن القرآن سلم من هذا كله ، ولذا فهو الفيصل فى بيان العقيدة الالهية والشريعة السماوية .

فهو الوحى المنزل من الله ، الذى يهدى الى طريق الحق وسط الضلالات البشرية . يجد المسلم فيه ارادة الخالق ، نزلت من السماء فى صورة وحى ، فاليه يتجه ، وفيه يبحث عما يريد ، لأنه كلام الله نفسه . وهو الدليل الوحيد — ولا شيء غيره — على نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — فلا يجوز لمسلم أن يشك فى هذا لحظة .

ولا يحتوى القرآن على نصوص العقيدة ، والتعاليم الدينية فقط ، بل على كل ما هو لازم للحياة ، على ما يتعلق بالدولة منحقوق وواجبات، وما يلزم المجتمع من سلوك وأخلاق ، ولذا يرسم المسلم حياته طبقا لتعاليمه .

مضى على القرآن اليوم أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولم يوجه أحد أى نقد الى نصه — وان تعددت المفاهيم فى تفسيره واختلفت الآراء فى مفهومه — لأنه بالنسبة للمسلم ليس من تأليف البشر ، بل هو وحى الله الذى فوق كل ما فى الكون من حقائق .

تحدث عن وحدة القرآن مع الكتب المقدسة الأخرى فى الطابع الدينى ، ولكنه استدرك مبينا أنه يختلف عنها فى المضمون ، فهو — على سبيل المثال — لا يحتوى على نصوص مبهمة ، كما هو الحال فى الكتب المقدسة ، وان كان بعض المفسرين مالوا فى تفسيرهم الى الابهام .

ثم ختم هذا الباب بقوله :

« تختلف الشعوب الاسلامية مرارا وتكرارا حول المسائل الدنيوية،

---

(١) أجاز بعض الفقهاء قراءة ما عدا الفاتحة فى الصلاة بغير اللغة العربية .

(٢) الأنعام : ٣٨

ولكنهم يلزمون الصمت أمام ما يمليه القرآن عليهم . فهو يعتبر — على الرغم من اختلاف المفسرين فى فهمه — الرباط الذى يربطهم جميعا ، والمرجع الوحيد لكل فرد فى المجتمع الاسلامى .. فالاسلام يعلن دائما على الملأ ، أن كتابه هو وثيقة الوحى السماوى المنزل على رجل واحد ، اختاره الله من بين البشر .. وفى هذا الكتاب أيضا يجد الباحث وثائق تاريخية نادرة » ..

ذكر المؤلف أن الكتب السماوية السابقة — والمقصود بها هنا : التوراة والانجيل — هى فى نظر المسلمين محرفة ومتناقضة ، ويبدو من تعبيره : « فى نظر المسلمين » .. أن غير المسلمين لا يعدونها محرفة ، وهذا حكم غير دقيق من الوجهة العلمية ، فقد بين كثير من العلماء غير المسلمين أنها محرفة ومتناقضة ، ومنهم — على سبيل المثال : ابراهيم ابن عزرا (١٠٩٢ — ١١٦٧) ، وباروخ سبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ..[١] .

٢ — جمع القرآن :

سرد المؤلف تحت هذا العنوان قصة جمع القرآن فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وبين أن المهمة التى ألقيت على كاهل زيد بن ثابت كانت شاقة ، فلم يقتصر عمله على الجمع فقط ، بل كان من واجبه تمييز القرآن عن غيره ، حتى لا يضيع شىء منه ، ولا يدخل فيه ما ليس منه . ولم يكن أحد يقدر على هذا العمل سواه ، لأنه كان كاتب الوحى ، فهو أعرف به من غيره .

ثم شرح الدوافع التى دفعت عثمان بن عفان — رضى الله عنه — الى أن يكلف زيدا بنسخ أربع نسخ من الأصل الذى جمع فى عهد أبى بكر ، وتوزيعها على أربع مدن هى : المدينة ودمشق والبصرة والكوفة ، وأمره باعدام ما عداها من نسخ . وبقيت هذه النسخ بالرسم العثمانى حتى الآن كما هى ، وان اختلف القراء فى قراءتها على سبع طرق ، متبعين فى ذلك أيضا حديثا ورد عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخبر بأن القرآن نزل على سبعة أحرف .

ولما لم يخرج فى هذا الفصل عن السرد التاريخى لجمع القرآن

---

(١) عن التحريف راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ١٠٩ — ١٢٤ وعن التناقض راجع نفس المصدر ص ١٧٤ — ١٩٢ .

ونســخه فى عهدى أبى بكر وعثمــان رضى الله عنهما — وان تضمنت تعبيراته بعض الهنات ، التى لا تستحق التعليق — رأينــا الايجــاز فيه أنسب •

٣ — المضـــمون :

ذكر أن زيد بن ثابت قام بعملين جليلين :

الأول : تدوين كلام الله كما نطق به محمد — صلى الله عليه وسلم — •

الثانى : كتابته على الطريقة الصحيحة للأجيال الاسلامية •

ثم تحدث عن سور القرآن الكريم المكية والمدنية ، والفرق بين المكى والمدنى فى الأسلوب وفى المضمون ، مبينا أن القرآن لم يتحدث عن حياة محمد الشخصية ، كما هو الحال فى الكتب المقدسة السابقة ، اذ لم يذكر منها الا القليل ، مثل :

ما حدث بينه وبين زوجاته ، وتهديده لهن بالطلاق ، ان أردن متاع الحياة الدنيا •

وزواجه بزينب بنت جحش •

وحديث الافك •

وما عدا هذا فلا نجد شيئا عن حياة النبى الخاصة ، أما الحديث فقد امتلأ بهذا النوع من الأخبار • بينما يرى الغربيون أن فى القرآن آيات متعارضة ، ويبنون شكهم فيه على هذا التعارض ، يرى المسلمون فى هذه الظاهرة دليلا على تدرج التشريع والقرآن نفسه يعلل وجود هذه الظاهرة فيه ، فيقول :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير »(١) •

يحتوى القرآن على كل ما يحتاجه الفرد فى حياته من المهــد الى اللحد ، سواء كان دينيا أم أخلاقيا ، ولذا فحياة المسلم كلها تخضــع لتعاليم القرآن ، فالأصول الخمسة منصوص عليها فيه ، وكذلك العبادات والمعاملات بجميع أنواعها •• حتى أسماء الله الحسنى الـ ٩٩ مستخلصة من آياته •

---

(١) البقرة : ١٠٦

وبجانب هذا يتحدث القرآن الكريم عن أحداث تاريخية فيما يوازى أربعة تقريبا ، بعضها يتناول أحداثا ذكرت فى الكتب الدينية التى بأيدى اليهود والنصارى ، والبعض الآخر يقص ما حدث فى البيئة العربية •

وعلى الرغم من اضطهاد الاسلام لليهود ، فقد اشتمل القرآن على كثير مما فى كتبهم ، فالله — أو كما يطلق عليه اليهود « يهوه » — رحيم جبار فى كلا الديانتين ، وقضية التوحيد متشابهة عندهما • وفى القرآن كثير من العبادات والوصـــايا كما هى عند اليهود تقريبا ، فالوضـــوء والصلاة ، وتحريم أكل الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به ، حتى الصوم يشبه الى حد ما ما عند اليهود •

ولمـــا كانت المسيحية غير معروفة فى الجزيرة العربية الا عن طريق المذهب النسطورى الفارسى ، فقد وقع الخطأ فيما نقل عنها ، فمثلا : أخبر القرآن عن مريم بأنها أخت هارون ، أى أنها أخت موسى ، وبينهما فاصل زمنى كبير ، لا يتصور معه أنها أخته ، كما أنكر بنوة عيسى وصلبه، فذهب الى أنه نبى الله ورسوله ، وأنه لم يصلب ، بل وقع الصلب على شبيه له ، اذ يخاطب القرآن النصارى قائلا :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا »(١) •

ثم ختم الباب بقوله :

« رغم كل ما يوجه الى القرآن ، فهو دستور الاسلام فى العالم ، فقد ضاعت المملكة العربية الكبرى ، وبقى سلطانه على نفوس المسلمين، وما زال يقنع أناسا غير مسلمين فلا يملكون الا الدخول فى الاسلام » •

وتعليقنا على هذا الفصل يتناول عدة نقاط :

(١) خلو القرآن الكريم من الحديث عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم :

تعتبر هذه الظاهرة دليلا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى أنه رسول من عند الله ، وفى أنه لم يبلغ الا ما أمر بتبليغه ، ذلك أن النفس

---

(١) النساء : ١٧١

البشرية تميل الى الحديث عن الذات ، بل تحاول — ان أمكنها — أن ترسم بنفسها أو توحى الى من حولها من الأتباع أن ترسم صورة وردية ، يضاف اليها من الصفات الحميدة ما احتوت قواميس اللغة فى هـذا المجال ، ونظرة فاحصة الى تاريخ الجماعات البشرية تنبئنا عن حمى مدح الزعماء والرؤساء بما لم يعرفوه ولم يباشروه من فضائل ، بل بنقيض ما يباشروه فى حياتهم الخاصة والعامة تقربا اليهم وزلفى أن صدرت من أتباعهم ، وتفـاخرا وتعاظما ، وخداعا للجمـاهير أن تحدثوا هم عن أنفسهم ، لأنهم يشعرون بالنقص فى ذواتهم أو بتفاهة ما يدعون اليه ، وعدم نفعه لشعوبهم ، فيحاولون سد هذا النقص بالمديح الشـخصى والدعاية الذاتية •

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الكامل لا شك فى هـذا ، وسلوكه يتفق مع تعاليم السـماء ، فهو لا يحتاج الى دعاية يغطى بهـا ما يرتكبه من أعمال ، لا يحب أن يراها أتباعه • وهو مكلف بأن يبلغ ما أمر به ، لا ما تميل اليه النفس كانسان (لأن كل انسان يحب الحديث عن نفسه قل هذا أو كثر ، صدقا أو تحريفا للحقائق) والاسلام لا يتعلق بشخصه ، بل بالعليم الحكيم رب كل شىء ، ولم يكن دور محمد سـوى وسيط مبلغ وسوف ينتهى هذا الدور بمجرد اتمام المهمة التى كلف بها ، أما الله فهو الباقى الحى ، الذى يتوجه اليه الخلق ويتقربون بواسـطة التعاليم التى أنزلها فى كتابه الحكيم ، ولذا لم يكن من الحكمة أن يتحدث عن شخص هالك الا فى حدود التشريع فقط ، وهذا هو ما يراه القرآن الكريم • وهذا أيضا هو أسلوب الوحى فى كل زمان ومكان ، أما ما نقرأه فى الكتب المقدسة السابقة ، فليس وحيا بل هو تاريخ دونه اتباع الأنبياء السابقين ، ولو كان وحيا ما ذكر فيه قصص الأنبياء لأن الوحى يعبر عن قيم ومبادىء ، ولا يسرد تاريخ الأشخاص الا فى حدود الموعظة •

(٢) تعارض الآيات فى القرآن الكريم :

وذكر المؤلف أن فى القرآن الكريم آيات متعارضة ، اتخذها الغربيون سببا فى الهجوم عليه ، بينما فسرها المسلمون بأنها تدرج فى التشريع ، ثم ساق آية : « ما ننسخ من آية أو ننسها ••• »[١] الخ •• على أنها اعتراف بهذا التعارض ، مع بيان سبب وجوده بأن بعضها نسـخ البعض الآخر •

---

(١) البقرة : ١٠٦

أن ما يبدو للباحث الأوروبى متعارضا ، لدليل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو طرح عند البحث تعصبه ، وتحامله على الاسلام، وأقبل على الدراسة بروح محايدة ، لتبين له أن هذا الأسلوب فى التشريع ليس من صنع بشر ولا يمكن أن يهتدى اليه العقل البشرى من تلقاء نفسه أبدا ، ذلك أن التدرج فى التشريع بطريقة لا يلغى اللاحق فيها السابق ، من الأمور التى يعجز عنها عقول البشر ، ولنأخذ — على سبيل المثال — قضية تحريم الخمر ، لقد نزلت فيها ثلاث آيات :

الأولى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »(١) ٠

فالنهى عن تأدية الصلاة فى حالة السكر يحد من الزمن المسموح فيه بالشرب اذ يحاول المسلم الامتناع عن الشرب قبل الصـلاة حتى لا يؤديها وهو سكران فهذا تحريم جزئى زمنا ٠

الثانية : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »(٢) ٠

فبينت هذه الآية أن فيها اثم ومنافع ، وأن اثمها أكبر من نفعها ، والغرض من ذلك الايعاز الى المسلم بأن يفكر فيها قبل أن يشرب ، فاذا تذكر أن اثمها أكبر من نفعها ، فينبغى عليه أن يحاول الامتناع عن الشرب مدة أكبر من المدة التى التزم بها فى الآية السابقة ، وربما يهديه تفكيره الى الامتناع عنها كاية ٠

الثالثة : « يا أيهـا الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »(٣) ٠

وهذا تحريم عام فى كل الأوقات ٠ فاذا نظرنا الى الآيات الثلاث لوجدنا أنه ليس بينها ناسخ ومنسوخ ، اذ العام لا ينسخ الخاص ، لأن الخاص مندرج تحت العام ، فلا زال تأدية الصلاة — حال السكر — محرما على المسلم ولا زال فى الخمر بعض المنافع لأنها تستعمل للتداوى، اذ تدخل مشتقاتها فى تركيب بعض الأدوية ٠

هذا الأسلوب فى التشريع لا يرقى اليه بشر ، فهو من صـنع العليم

---

(١) النساء : ٤٣
(٢) البقرة : ٢١٩
(٣) المـائدة : ٩٠

الحكيم وقس على ذلك كل الآيات التى يظن الأوروبيون انها متعارضة ، ويرى بعض المسلمين فيها أن بينها ناسخ ومنسوخ ٠

(٣) مخالفة القرآن الكريم للكتب المقدسة فى رواية الأحـــداث التـــاريخية :

ذهب المؤلف الى أن القرآن الكريم روى أحداثا تاريخية على نحو يخالف ما جاء فى الكتب المقدسة السابقة ، وزعم — أى المؤلف — أن النقل فى هذا الموضوع عن هذه الكتب كان خاطئا ٠

ولو سار المؤلف فى بحثه على طريق مستقيم ، بعيد عن المؤثرات المعادية للاسلام ، ما وقع فى هذا الخطأ ، فهو حين تستولى عليه رغبة البحث المحايد ، يعترف بأن القرآن فى أسلوبه فوق طاقة البشر ، أى أنه ليس من تأليف انســان ، ولــكنه حين تستجيب حواسه لمــا حوله من أصوات معادية للاسلام ، ينكص على عقبيه ، فيدعى أن محمدا قد نقل الأحداث التاريخية من الكتب المقدسة خطأ ، ولا شك أن هذين الحكمين متناقضان ، اذ يلزم من الحكم على القرآن بأنه ليس من صنع البشر ٠٠٠ أى أنه وحى الله — الاعتراف بأن كل ما فيه صحيح ، وان خالف الكتب المقدسة السابقة ، اذ المخالفة ليست دليلا على النقل ، فضلا عن تحريفه ومن الثابت علميا وتاريخيا أن تدوين الكتب المقدسة جاء متأخرا بزمن طويل عن عصر الأنبيــاء المنســوبة اليهم ، ولم يعرف حتى الآن كاتبها بالضبط ، ولم يحدد العصر الذى دونت فيه تحديدا قاطعا ، فكيف يعتقد — والحال هذه — أن ما فيها من الأخبار التاريخية صحيحا ، وما عداه فهو نقل خطأ عنها ٠٠ لا ٠٠ بل العكس هو الصحيح ، فقد حرف كاتبها المجهول اخبارها وجاء الكتاب الذى اعترفت ضمنا بأنه وحى ، فصحح هذا التحريف ، وعليه فيجب عليك التســليم بأن القرآن الكريم هــو المرجع الصحيح لهذه الأحداث التاريخية ٠٠

(٤) اتفاق الاسلام واليهودية فى بعض الأحكام :

سرد المؤلف عددا من الأحكام الآسلامية مثل : تحريم أكل الميتة ، ولحم الخنزير ٠٠ و ٠٠ و الخ ٠ مبينا أن حكمها فى الاسلام هو حكمها عند اليهود وعلل ذلك بأن الاسلام تأثر فيها باليهودية لقربها منه ، حيث ان الجاليات اليهودية كانت تقيم بالقرب من المدينة ٠

وأخطأ فى هذا ، لأن منبع الدينين واحد ، وهى وحى الله الذى أنزل على موسى ، ومحمد عليهما السلام ، لكن اليهود حرفوا دين الله ، فجاء القرآن مصححا هذا التحريف ، وعندما نقول : حرفوا ، فلا ينبغى أن يفهم من هذا أنهم حرفوا كل ما جاءهم من الفه الى يائه ، بل يكفى أدنى تحريف ليصح الحكم عليهم بأنهم حرفوا ، فعندما نزل القرآن الكريم ليصحح هذا التحريف ، لم يكن من المقبول أن يبطل كل ما عند السابقين ، ويأتى بما يقابله ، حتى ولو لم يدخله تحريف ، لأن ذلك هو أسلوب الثورات البشرية ، التى تقضى على كل عمل ينسب للنظام الذى ثارت عليه حتى ولو كان نافعا للمجتمع ، لأن الغرض عندها محو معالم من سبقها لينساه الشعب ، ويتعلق بالثوار الجدد ٠ أما وحى الله ، أما الرسالات السماوية فالهدف منها اقامة العدل بين الناس ، وتدعيم الفضيلة والقيم الأخلاقية فى نفوس الناس ، ولذا تبقى على ما يساعد لبلوغ هذا الهدف مهما كان منبعه ، وتدعو الى نبذ ما يضر الفرد فى المجتمع ، ولو زعم السابقون أن الله أوحى به الى الأنبياء السابقين ، فاذا ما صادف أن حكما طابق ما عند اليهود — أو غيرهم — فلا يعتبر دليلا على أنه مأخوذ منهم ، بل هو حجة واضحة على أنه وحى الله أنزله على رسوله ليصحح ما حرف ويثبت ما سلم من التحريف (اذ لو لم يكن وحيا ، لحرص على ابطال معالم السابقين عليه ، كما هو معروف فى تاريخ الثورات) ليكون القرآن الكريم هو المرجع المعتمد — لأنه سلم من التبديل والتغيير ، وهى قضية مسلم بها حتى عند أعداء الاسلام — لتصحيح المسيرة الدينية ٠ التى حرفها السابقون ، وصدق من قال : « شرع من قبلنا شرع لنا ، ان لم يرد فى شرعنا ما ينسخه » ٠٠ أى ان لم يرد فى شرعنا ما يصححه من التحريف الذى أصابه من البشر ٠٠

(٥) انكاره لبنوة عيسى عليه السلام :

زعم المؤلف أن بعد النصارى عن موطن الاسلام الأول جعل تأثير النصرانية عليه ضعيفا ، فهو لم يتصل الا بالنسطوريين ولذا تأثر برأيهم فى المسيح[1] فأنكر عقيدة البنوة الالهية التى يدين بها المسيحيون ٠

---

(١) كان نسطور يذهب مذهب آريوس فى انكار أن عيسى ابن الله ومساو له ، كما أنكر ذلك أيضا بوطينوس وبولس الشمشاطى ، فكانا يقولان : « ان الاله واحد ، وأن المسيح ابدأ من مريم عليهما السلام وأنه عبد صالح مخلوق ، الا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته ، وسماه ابنا على التبنى لا على الولادة والاتحاد » الشهرستانى ج ١ ص ٢٢٥ ٠

ان قضية التأثير والتأثر بين الاسلام وغيره من الأديان والعقائد السابقة التى أثارها المستشرقون — ولا زال بعضهم يضرب على وترها — قد ثبت بطلانها علميا ، فالاسلام لم يأخذ شيئا من غيره ، وان وافقت بعض تعاليمه ما عند الآخرين ، ورســول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتبس شيئا من العقائد الأخرى ، لأنه كان أميا فلم يعرف ماعند الآخرين، بالاضافة الى ما ثبت من أن ما أخبر به وحيا ، بدليل أنه خارج عن قدرة البشر العقلية • فاذا قيل بعد ذلك : ان تأثر بهذا أو بذاك فليس الا ادعاء يفتقر الى الدليل العلمى •

ومن العجيب أن يدعى باحث أنه عارض عقيدة البنوة عند المسيحيين لأنه لم يتصل الا بالمنكرين لها ، وكان الأولى به ان يقول :

ان دين الله هو التوحيد من لدن آدم الى محمــد صلى الله عليه وسلم وعيسى نفسه لم يدع قومه الا الى توحيد الله ، اذ يخبرنا الوحى الصادق بقوله :

« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب • ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »(١) •

غير أن أتباعه حرفوا دعوته ، فاعتقدوا فى ألوهيته ، ثم اضطهدوا من آمن منهم بنبوته وبشريته حتى قضوا عليهم ، ولم يبق سوى من حاد عن طريق التوحيد وسلك سبيل التثليث وورثوا هذه العقيدة لمن جاء بعدهم جيلا بعد جيل ، وطبيعى ألا تعرف الأجيال اللاحقة شيئا عن هذا الصراع العقدى فتظل مؤمنة بأنها العقيدة المسيحية الموحى بها من الله ، اللهم الا من هداه الله فأنكرها لتنافرها مع الطبيعة البشرية ، أو من جد فى البحث عن تاريخ الصراع العقدى بين الطوائف المسيحية(٢) •

---

(١) المائدة : ١١٦ ــ ١١٧

(٢) راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ٦٨ ــ ٧٢

٦ ـ انكاره الصلب للمسيح :

نفى القرآن الكريم ادعاء اليهود بأنهم صلبوا المسيح عليه السلام، فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم »(١) ٠

ويتضمن هذا النفى تكذيب ما ورد فى أناجيل المسيحيين حول قصة محاكمة المسيح وصلبه ٠ وقد أيدت الدراسات العلمية ما جاء فى القرآن الكريم ، واقتنع به أصـــحاب الاتجاه العقلى فى مجـــال البحوث الدينية المقارنة(٢) ولذا فينبغى على من يريد المقارنة بين اخبار القرآن الكريم بنفى صلب عيسى عليه السلام وبين ما دونه كتاب الأناجيل ، فعليه أن يطالع نتائج هذه الدراسات أولا ، والا فمن المحتمل أن يضل الطريق — بل الواقع يشهد بأن كثيرا منهم تخبط فى هذا البحث ، فلم يصـــل الى نتيجة علمية صحيحة — فى الوصول الى حقيقة ما حدث ، حين حاول اليهود قتل عيسى عليه السلام ٠



---

(١) النساء : ١٥٧

(٢) راجع بين الاسلام والمسيحية ص ١٩٢ ـ ٢١٥

الباب الرابع

تراث محمد "صلى الله عليه وسلم"

* تعظيم النبى وتبجيله
* الجهـــاد
* معالم الدعوة

وقد تناول فى هذا الباب النقاط التالية :

١ ــ تعظيم النبى وتبجيله :

لم يكن الموت عند العرب ظاهرة مفجعة ، فنسبة الوفيات كانت عالية ، فمن كان بدنه قادرا على قسوة الطبيعة ، هو الذى امتدت حياته ، أما ضعفاء البنية فسقطوا صرعى المرض • كذلك شاعت ظاهرة وأد البنات بعد ميلادهن ، ولم يكن عدد ضحايا الحروب ضئيلا •• وهكذا كان الموت عملية غير مزعجة ، اللهم الا اذا كان الميت ابنا ذكرا لأب لا عقب له •

تبدلت طبيعة العربى ازاء هذه الظاهرة رأسا على عقب ، عندما أذيع خبر وفاة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذ وقع الخبر على بعض المسلمين كالصاعقة فأصيبوا بالفزع والهلع ، لدرجة انكار الخبر • والتهديد بقتل من يقول : انه مات ، فقد روى أن عمر بن الخطاب ــ وهو من أكبر عباقرة المسلمين ــ قال حين سمع الخبر : « ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيل : انه مات • ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات »(١) •

فاضطرب القوم بين مصدق ومكذب ، حتى جاء أبو بكر فقال قولته المشهورة :

« أيها الناس •• من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »(٢)** •

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٥

(٢) آل عمران : ١٤٤

فقال عمر : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت[١] حتى وقعت الى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات »[٢] •

تأكد المسلمون من موته ، فهدأ اضطرابهم ، ولكن الشعور بالضياع سيطر على نفوسهم ، اذ كان جل اعتمادهم عليه فى شئون دينهم ودنياهم ، وفجأة شعروا بأنهم أصبحوا فى مهب الريح العاتية ، بلا قائد أو هكذا تخيلت أذهانهم ، فهو لم يعين خليفة له ، فكيف تستمر الأمور فى سيرها نحو المستقبل ؟ •

اختلط الحزن بالارتباك والحيرة ، لدرجة أنهم انصرفوا عن دفنه الى محاولة الخروج من هذا المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وتركوا على بن أبى طالب مع بعض الصحابة يعدون العدة لغسله وتجهيزه للدفن ، ثم اختلفوا على المكان الذى يدفن فيه ، الى أن حسم أبو بكر الخلاف حين روى عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : ما قبض نبى الا دفن حيث يقبض[٣] •

جالت خواطر المسلمين هنا وهناك وكان من أهم ما أزعجهم أن وحى السماء قد انقطع عنهم ، فلن يسمعوا كلمة منه بعد اليوم ، ودارت بخلدهم هذه الأسئلة : « هل انقطع وحى السماء حقيقة ، فلم يعد ينزل بعد اليوم ؟ هل من الممكن أن يموت نبى الله كما يموت بقية البشر ؟ أليس من المحتم أن تقوم الساعة الآن ؟ •• أيقظ الخوف فى نفوس من تركهم محمد — صلى الله عليه وسلم — الأمل فى حدوث معجزة ، فالله قادر على كل شىء ، وهنا ينفصل طريق التعاليم الدينية عن اعتقادات العامة ، فالقرآن والأحاديث النبوية الصحيحة تؤكد أن محمدا بشر ، يموت كما يموت غيره من الناس ، بينما يميل عامة الشعب الى رفع محمد عن درجة الانسان العادى وانزاله مكانا خاصا قريبا من الله • صال الخيال وجال فى هذا المجال ، فنسبوا اليه أشياء نسبتها الأساطير الى الأنبياء السابقين ، ففى حياته لم يترك العنان لخيال المؤمنين ولكن بعد موته بدأت الأخبار تترى عن نواح ، لم يتحدث عنها القرآن الكريم ولم تنقلها الأحاديث الصحيحة ، ألم يسطع نور النبى من بدء الخلق حتى الآن ؟

---

(١) عقرت : دهشت • يقال : عقر الرجل اذا تحير ودهش •
(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٦
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦٣

لقد ظل النور ينتقل من جيل الى جيل — هكذا اعتقد العامة — حتى استقر فى قبيلة محمد ، ثم ظهر فيه ، فأنار جميع العالم ، لقد طهره هذا النور من كل الذنوب ، وجعله معصوما حتى فى فترة ما قبل البعثة ... و .. و .. الخ ، وهكذا لم تتوقف القصص الشعبية فى هذا المجال ،وظلت تنسب الى النبى كل ما من شأنه أن يرفعه عن عالم البشر ، ونسبت اليه كثيرا من المعجزات الحسية ، فقد شفى المرضى وكلمته الحيونات ، وتحركت لنظراته الأحجار ، وبكى الجماد لفراقه .. الخ . ثم سرد المؤلف حديث الاسراء والمعراج ، وبين أن ما علق بها من المعجزات ، لم يرد له ذكر فى القرآن الكريم .

ذكر المؤلف أن الذين عاصروا النبى — صلى الله عليه وسلم — كانوا يعرفون كل كبيرة وصغيرة فى حياته ، لكن أحداث الوحى وانشغالهم بترقب ما ينزل من السماء لم يترك لهم مجالا للحديث عن حياة محمد أثناء وجوده بينهم . فقد انصب اهتمامهم على معرفة التعاليم الدينية ، التى تنظم حياتهم ، وتضمن لهم الجنة .. لأنها الهدف الذى تكرس كل الجهود للوصول اليه وان كان المسلم يعتقد أنه لن يصله الا برحمة من الله ورضوان ، فاذا قورن هذا الشعور بالمغفرة المسيحية ، لرجح — كما يعتقد المسلمون — اطمئنان المسلم فى هذا المجال ، الا أنهم يؤمنون بأن القلم قد حدد فى اللوح المحفوظ ، من سيدخل الجنة .. ومن سيحرم من دخولها .. ولكن من يعلم هذا ؟ لا أحد .. دام النقاش بين العلماء حول هذا الموضوع مئات السنين ، فصنفوا الناس حسب أعمالهم وايمانهم ولم يقتصر هذا التصنيف على المسلمين فقط ، بل تعداه الى وضع غير المسلمين بالنسبة للمسلمين فى الحياة الآخرة .

هذه هى بعض ملامح التيارات الفكرية ، التى شاعت فى المجتمع الاسلامى بعد موت محمد — صلى الله عليه وسلم — والتى أدت الى اختلاف الآراء داخل الأسر التى شهدت عصر الخليفة الأول .

٢ — الجهاد :

ينبغى التأكيد مرارا وتكرارا على أن ظهور محمد بدعوته فى أوائل القرن السابع الميلادى كان خيرا وبركة للشعب العربى ، فقد منح الاسلام العرب شيئا لم يملكوه حتى ذلك التاريخ : منحهم دستورا ربطهم جميعا برباط واحد ، لأن تأثيره عليهم تغلب على جميع النزاعات السياسية والقبلية ، فأنهى عهدا لم يعرف له دستور ، وقضى على

غريزة الثأر ، التى كانت تجرى فى دماء العرب • لكن هذا التماسك لم يلبث أن تفكك بعد موت محمد — صلى الله عليه وسلم — فهبطت هذه المثالية — التى دعا محمد قومه الى التحلى بهـا — من عليائها الى حضيض العالم الدنيوى حين تنازعوا على السلطة ، فشنوا الحروب للوصول اليها ، تلك الحروب التى مزقت الوحدة الدينية فانشغل الكبار بالسلطة والصغار بالمسائل الدينية ، ان فريق الكبار حصر جهده فى السياسة ، وانصرف اهتمام الصغار الى المسائل الدينية ، ومن الطبيعى أن هذا التقسيـم لم يكن عاما ، فقد كان هناك خلفاء لم تشغلهم المسائل السياسية عن الاهتمام بالأحكام الفقهية ، فضلا عن أنهم كانوا على درجة كبيرة من الورع والتقوى •

ارتبطت السلطة بالعقيدة فى بداية الدولة الاسلامية فى المدينة ، وتدل هذه الظاهرة على أن الاسلام يرى أنه : دين السياسة ، أو بتعبير آخر : عقيدة السياسة الدينية ، اذ أخذت المسائل الدينية طابعا سياسيا ، فقد كان محمد — صلى الله عليه وسلم — نبيا ورسولا ، وفى الوقت نفسه كان سياسيا ، فلم تعرف الدولة فصلا بين الدين والسياسة •

شرح المؤلف علاقة الدين بالسياسة فى جميع المجالات ، وجهود الفقهـاء فى استنباط القواعد الفقهية ، وارتباط النشاط السياسى بقواعد الدين ، متخذين السنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون مثالا لهم • ثم بين أن نظرية المسلمين فى دعوتهم الشعوب الأخرى الى الدخول فى الاسلام تتلخص فى أن الانسان مفطور على العقيدة التى ربطت بينه وبين أخيه الانسان ، ولكن بارتكابه المعصية تقطعت وشائج الاتصال بين البشر فانقسم الناس الى فريقين : فريق تمسك بالتعاليم الدينية التى نزلت على رسلهم ، وآخر تنكر لهـا ، غير أن الفريق الأول عجز — بمرور السنين — عن فهم الوحى لبعده عن زمن الرسـل الذين بلغوا هذا الوحى ، فحرف فيه بالتغيير والتبديل والمحو والزيادة •• الخ • ثم جاء محمد — صلى الله عليه وسلم — ليدعو الفريقين الى الاعتراف بوحدانية الله ، لتكوين الجماعة المؤمنة ، التى تؤسس الدولة ذات الطابع السياسى والدينى • ولهذا فرض على أتباعهم الجهاد لتحقيق هذه الغاية ، ومن هنا انقسم العالم فى نظر المسلمين الى قسمين :

الأول : المسلمون حيث تقوم الدولة الاسـلامية وعلى رأسهـا الخليفة •

الثانى : الكفار الذين يجب عليهم الدخول فى الاسلام •

وهؤلاء ينقسمون بدورهم الى قسمين :

الأول : المشركون ويجب على المسلمين قتالهم حتى يسلموا •

الثانى : أهل الكتاب ، وهؤلاء ينبغى قتالهم حتى يسلموا ، أو يخضعوا للدولة الاسلامية فيعطوا الجزية • وفى مقابل هذا تحميهم الدولة ، ويندرج تحت هذه الحماية : المحافظة على أملاكهم وضمان حرية اقامة شعائرهم الدينية ولكن لا تدق أجراس كنائسهم ، ولا يشيدون كنائس جديدة •

يشترط فى الخليفة أن يكون قادرا على قيادة الدولة سياسيا وعسكريا ، وأن يكون تقيا ورعا ، اذ من واجبه حفظ الدين ، والجهاد ضد أعداء الله وأن يسود الدولة طبقا للكتاب والسنة ، فان وقع خلاف فى التفسير فان الكلمة الأخيرة له ، لأنه المسئول وحده عن رعاية الدولة ، وبيده مقاليد الأمور فى جميع نواحيها • غير أن سلطانه ليس مطلقا — كما هو الحال فى بعض النظم الحديثة — فوضعه لا يختلف عن وضع أى مسلم عادى فى الدولة ، بالنسبة للالتزام بما هو مقرر فى القرآن الكريم ، ويزيد عليه من ناحية الواجبات الملقاة على عاتقه كخليفة للمسلمين ، ومن أول واجباته — كخليفة — دعوة الناس الى الدخول فى الاسلام ، فان أبوا ، فشن حرب مقدسة ضدهم يديرها بنفسه • تجاوز النبى — صلى الله عليه وسلم — مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ، لأن الدعوة بالكلمة لم يعد لها تأثير فى اقناع الناس ، وعلى خلفائه أن يتخذوه أسوة فيستعملوا القوة لحمل الناس على الدخول فى الاسلام ، وسوف يظل الجهاد طابع الدولة الاسلامية ، ما دام هناك مجتمعات لا تدين بالاسلام •

فصل المؤلف القول فى توزيع الفىء والغنائم ، وأكد على أن ظاهرة الرق فى الاسلام لم تكن من الظواهر الدائمة ، فهى مترتبة على نتائج الحروب ، فاذا ما دخلت المجتمعات يوما ما فى الاسلام ، فسوف تختفى هذه الظاهرة من تلقاء نفسها ، ثم عاد الى الحديث عن علاقة الأمور الدنيوية بالتعاليم الدينية ، وختمها بقوله :

« فلم يفرق محمد — صلى الله عليه وسلم — بين قانون مدنى وآخر دينى ، فبلغ كل ما أوحى اليه على أنه وحى الله دون تمييز بين دينى ودنيوى ، وبهذا يختلف القانون الاسلامى — حتى اليوم — فى جملته

وتفصيله عما عندنا نحن المسيحيين من متراكمات تركزت فى جانب واحد » •

أخذت فريضة الجهاد فى الاسلام حيزاً كبيرا فى مؤلفات الغربيين التى كتبوها عن الاسلام ، ولم يكونوا موضوعيين فى كتابتهم عن هذه الفريضة ، اذ أجمعوا — كلهم تقريبا — على أن الاسلام انتشر بالسيف بينما دعت المسيحية الى المحبة ، ونبذ البغضاء والقتال وقد رد عليهم المسلمون مبينين أن الغزوات الاسلامية لم تكن هجوما بل ردا لاعتداء وقع على المسلمين ، أى أنهم كانوا فى موقف دفاع ، وأود أن أنقل هنا كلمة كتبتها فى تحقيقى لكتاب « بين الاســلام والمسيحية »[1] حول المقارنة بين الدينين فى مسألة قتال المعارضين :

يردد أعداء الاسلام منذ بدء فترة الدفاع المسلح عن العقيدة الى اليوم ، أن الاسلام انتشر بالسيف ، اذ ما زلنا نسمع من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم من ضعاف النفوس ، أن المسيحية تنكر القتال ، بينما دعا الاسلام الى الحرب ، والى الجهاد فى سبيل الله ، أى الى اكراه الناس بالسيف على الدخول فى الاسلام ••• وهذا هو التعصب بعينه ، وغاب عن هؤلاء الحقائق التالية : —

أولا : نص القرآن الكريم فى مواضع عدة على أنه لا اكراه فى الدين ••

يقول تعالى : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »[2] •

ويقول : « ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[3] •

ويقول : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »[4] •

ويقول : « فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »[5] ••

فالاســلام لا يجيز لأحد — ولو كان النبى نفسه — أن يجبر انســانا على الدخول فى الاسلام •

---

(١) ص : ١٤١ — ١٤٣

(٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) يونس : ٩٩

(٤) الكهف : ٢٩

(٥) الغاشية : ٢١ ، ٢٢

ثانيا : يمتـــاز الانسان عن الحيوان بالقــدرة على التفكير ومن خصائص هذا التفكير ميل الانســان الى الحرية فى التعبير عن آرائه وفى اعتناق ما يراه موافقا لطبيعته فاذا ما منع من هذا بقوة السلاح ، فان من الطبيعى أن يدافع عن رأيه بالوسائل التى يقاتله بها من يريدون كبت حريته ، فان أراد أحد أن يفتن آخر عن عقيدته مستعملا الدعاية والمنطق ، دون اللجوء الى حمله على ترك عقيدته بالقوة ، لم يكن للمؤمن أن يدافع عن عقيدته الا بالحق والمنطق ، أما اذا أجبر بقوة السلاح ، لم يكن من سبيل الا حمل السلاح أيضا ، للدفاع عن عقيدته ، لأنها أثمن شيء عند من يفهمون معنى الانسانية ، فهى أثمن من المـــال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها وقد أدرك هذا المسلمون الأولون ، فدفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن عقيدتهم ، وتلك سنة الله فى خلقه .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »(١) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز »(٢) .

ولو لم يقاتل المسلمون لحكم عليهم التاريخ بأنهم : أذلوا ، وأهينوا فرضوا بالذل ، والهوان ، وتلك سبة تأباها الطبيعة الانسانية ، ولمـــا كان الاسلام موافقا — فى تعاليمه وشرائعه — لهذه الطبيعة ، لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة .. وعليه ، فلم يحمل المسلمون السلاح لاجبار أحد على الدخول فى دينهم بل كان للدفاع عن أثمن شيء لديهم ، ألا وهى ممارسة ما تمليه عليهم عقيدتهم .

ثالثا : يعقد أعداء الاسلام مقارنة بين محمد وعيسى عليهما السلام ، مدعين أن عيسى لم يقاتل أحدا ، بينما قاد محمد معارك كثيرة ، ضد من وقفوا فى سبيل دعوته ، وينسى هؤلاء ان عيسى استمر ثلاث سنوات فقط ، يدعو الى دينه بدون قتال ومكث محمد ثلاث عشرة سنة يتلقى أذى قريش ، دون أن يحمل السلاح ، فأى المدتين أطول ؟ .

أضف الى ذلك ان عيسى قال أثناء هذه المدة القصيرة :

---

(١) البقرة : ٢٥١

(٢) الحج : ٤٠

«ما جئت لألقى سلاما بل سيفا»[1] •

بينما لم يذكر محمد فى العهد المكى — وهو ثلاث عشرة سنة — شيئا عن القتال • فأيهما كان — بصرف النظر عن كون ما يتلقيانه وحيا — أشد ميلا الى السلم •

كان يمكن أن تكون المقارنة صحيحة ، لو أن عيسى استمر فى دعوته مدة أطول من المدة التى مكثها محمد فى مكة داعيا الى الله ، ولم يقاتل ، بينما قاتل محمد ••

فاذا تركنا العهد النبوى لكل منهما ، وتصفحنا تاريخ كلتا الديانتين لرأينا أن المسيحية لم تعرف سلاما قط ، فقد حمل المسيحيون الناس حملا على اعتناقها وأجروا الدماء أنهارا فى سبيل اكراه الناس على الدخول فيهـا ، ومن يقرأ التاريخ يجد ان المسيحين لم يعتنقوا مبدأ السلام فى واقعهم العملى حتى اليـوم ، الا خوفا من الدمار الشـامل ، الذى يتوقع أن يحل بهم أن هم استمروا فى هذا الطريق الوعر •

٣ — معالم الدعوة :

اعتبر اختيار محمد للرسالة ، ليبلغ ما لم يبعث فيهم رسول من قبل فضلا من الله ورضوانا على العرب ، وفهمت دعوته فى أول الأمر على أنها دعوة خاصة لقومه قياسـا على الأنبياء السابقين ، فقد بعث كل نبى الى قومه خاصة ، غير أن جوهر الاسلام يتضمن طابعا عالميا ، ويكمن ذلك فى الاعتقاد بأن محمدا هو آخر الأنبياء ، والقرآن هو آخر وحى ينزل من السماء لاصلاح ما فى البشرية من فساد ، فلن يأت كتاب بعده أبدا ، ولن يرسـل رسول بعد محمد على الاطلاق ، وبنـاء عليه يكون الاسلام دينا عالميا لجميع البشر •

يتفق الاسلام مع الأديان الأخرى ذات الطابع العالمى فى نقطة الانطلاق فقد سـاد فى زمن ظهوره حالة من اليأس والفراغ الروحى ، من جراء الفسـاد ، الذى ساد فى المجتمع وحاول كثير من الراغبين فى الاصلاح محاربته ، ولكنهم لم يتمكنوا من عمل شىء ، اذ عجزوا عن اصلاح ما بين القبائل من نزاعات ومشاجرات سالت فيها الدماء أنهارا ، ولم يقدروا على تنقية الحياة مما أصابها من الانهيار الأخلاقى ، فسيطرت

---

(١) متى : ١٠ : ٣٤

غريزة اللامبالاة على النفوس ، وتمكنت الرذيلة . فى هذا الوقت دعا محمد قومه الى الخروج من هذا الوضع المؤلم ، وبين لهم طريق الخلاص مما هم فيه فكان أول شىء دعاهم اليه هو الاعتراف بوحدانية الله ، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام فلا يجوز أن يتخذ معه اله غيره ، والا فالعقاب الصارم يوم القيامة .

تحدث المؤلف عما يثاب عليه المرء أو يعاقب يوم القيامة ، وعلاقة ذلك بما يصيب الانسان فى الدنيا من كوارث وبما يناله من خيرات ، فى ضوء العدالة الالهية فقاده هذا الى تناول مسألة الجبر والاختيار وآراء المدارس الكلامية فيها . ثم تناول الأخلاق فى الاسلام ، فذكر الاحسان الى الوالدين ، والوصيةبذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ولكن بدون اسراف .. ففى القرآن : **« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »**(١) . كما حرم وأد البنات وارتكاب الفواحش من زنا وغيره ، وحرم قتل الأنفس الا فى حالتين : فى حالة الدفاع عن النفس ، وفى الحرب ضد أعداء الله ، كما حرم أيضا أكل أموال اليتامى والضعفاء وفى مجال الأسرة أباح الزواج بأربعة الا ان عجز الرجل عن الوفاء بحقوقهن فيجب الاقتصار على واحدة .. ثم ذكر المؤلف حقوق الأيامى ووضعهن عندما يصبحن « أم ولد » ووضع أبنائهن فى الحرية وعدمها ، وأكد أن محمدا حث المسلمين فى أكثر من مناسبة على تحرير العبيد ومكاتبتهم ، غير أن هذه الظاهرة لم تختف لأن كثيرا من المسلمين لم ينفذوا وصية نبيهم نصا وروحا ، فبقيت تردد فى المجالس العلمية دون أن تحقق الغرض الذى أراده محمد — صلى الله عليه سلم — فى الواقع الاجتماعى .

بين فى مجال العبادة كيفية فرض الصلاة وشروطها ، وأركانها وعدد ركعاتها وتحويل القبلة ، ثم عقب على ذلك بقوله : « ان المسلمين أكثر حرصا على تأدية الصلاة من التزامهم بالمبادىء الأخلاقية ، التى دعا اليها الاسلام » .

ومما قاله المؤلف فى ختام هذا الباب قوله :

« ان الناقد الأجنبى (عن الاسلام) لا يملك الا أن يصف محمدا — صلى الله عليه وسلم — عندما يتطرق الحديث الى تقييم ما دعا اليه ،

---

(١) الاسراء : ٢٧

وما أنجزه — بأنه كان طاقة هائلة دفعت عجلة التاريخ الى الأمام ، فقد تطور التمرد ضد البربرية التى كانت فى عصره الى نصر للأفكار الدينية والروحية والى قوة أخلاقية بناءة ، ومن الافتراء على الله الادعاء بأن الدين كان بالنسبة لمحمد وسـيلة لغاية ، فعلى الرغم من هذا ومن ادعاءات أخرى فقد كان محمد مفطورا على الدين ، ووحد شعبا كانت أوصاله متقطعة فى صحراء جرداء قاحلة ...

فاذا ما انتقص أعداؤه من قيمة عمله فى جانب من الجوانب ، ارتفعت قيمته عالية فى دعوته — الصارمة والمستمرة — الى وحدانية خالصة ، وفى عمله الدءوب فى خدمة دعوته ، فهو لم يخلص شعبه فقط من الظلمات الحالكة التى كان فيهـا ، بل حدد فى موكب التاريخ مسير الانسانية جمعاء تحديدا فاصلا ..

وأخيرا انتشر نور عقيدته .. فغطى جوانب الطبيعة الانسانية » .



الباب الخامس

التوسع السياسي

* الخلفاء الراشدون
* العصر الأموى (٦٦١ ـ ٧٥٠ م)
* الفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب
* الدولة العباسية (٧٥٠ ـ ١٢٥٨)
* الدولة السلجوقية
* الاسلام فى أسبانيا
* شمال أفريقيا ومصر
* الوضع الجديد بعد الغارة المغولية
* العثمانيون
* فارس بين الانحطاط والازدهار
* سليمان العظيم
* انهيار السلطة العثمانية
* الضغط الروسى

* طريق مصر الى الاستقلال
* الرجل المريض عند البوسفور
* مصر على الطـــريق البحـــرى الانجليزى
* المهدى لعبة صغيرة بين الأحداث الكبرى ٠
* المبـــادرة الألمانية لانشـــاء الخط الحديدى ٠
* اســـتيلاء الشـــباب التركى على الحكم ٠
* الحرب العالمية الأولى ٠
* مصطفى كمال أتاتورك ٠
* نهضة فارس فى عهد الشاه رضا خان ٠
* مصر أمة حرة ٠
* النضـــال ضـــد وصـــاية القوى العظمى ٠
* فلسطين والجامعة العربية ٠
* أمل العالم الاســـلامى فى عودة مجده العالمى القديم ٠

التوسع السياسى

وفى هذا الباب :

١ ـ الخلفاء الراشدون :

* سرد المؤلف فى هذا الباب أحداث تولى الخلفاء الراشدين ، وجهودهم فى التوسع السياسى ، وأثرهم فى تثبيت أركان الدولة داخليا ، وعلاقة الدولة بأهل الكتاب الذين يقيمون فى المجتمع الاسلامى الجديد ، فبدأ بما حدث بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) من مشاورات لتعيين خليفة له ، فذهب الى أن المجتمع الاسلامى فى المدينة لم يتحد اتحادا كليا على الرغم من الجهود التى بذلها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى دعوته لهم الى نبذ العصبية القبلية ، عن طريق ما نزل عليه من الوحى ، وما ضربه لهم من أمثال ـ قولا وفعلا ـ فى مقت هذه العصبية وترغيبه اياهم فى أن يكون الرباط بينهم هو الاسلام ، اذ ظهرت معالم الانقسام الى مهاجرين وأنصار بعد موته مباشرة ، فى محاولة كل فريق اختيار الخليفة منه ، ولكن سرعان ما تداركوا الأمر واتفقوا على أن يكون أبو بكر الصديق هو خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

* كانت مهمة أبى بكر صعبة جدا ، لأنه سيسوس شعبا دون أن تكون له صفة النبوة ، التى لها تأثير كبير فى نفوس الرعية مما يساعد فى سياستها ، فقد كان محمد آخر الأنبياء . ولم تكن مهمته قيادة دينية فقط ، بل كان مسئولا فى جميع مجالات الحياة : دينية كانت ، أو سياسية أو عسكرية ، أو اقتصادية ، أو قضائية . فاختار لنفسه لقب « خليفة » ولا يقصد به خليفة الله ، كما كان معروفا لدى بعض الشعوب آنذاك ، بل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

* رأت القبائل فى شمال وشرق وجنوب الجزيرة العربية أن الفرصة قد سنحت ـ بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ للتخلص من التبعية للمدينة ، فأعلنت عصيانها ، ورفعت شعارا سياسيا أكثر منه دينيا ، وكان هذا التمرد أحد خطرين واجها أبا بكر فى بداية ولايته ، أما الخطر الآخر ، فهو كثرة ظهور أدعياء النبوة فى الجزيرة العربية ،

الأمر الذى هدد الوحدة الاسلامية ، لكن أبا بكر تغلب عليهما كليهما ، فأرسى قواعد الدولة •

* يرى المحللون أن الأسباب التى دفعت الشعب العربى الى القتال خارج الجزيرة العربية ، يمكن أن تنحصر بعد تولى أبى بكر الخلافة فى سببين :

الأول : التزامهم بتنفيذ ما عزم عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) من تجريد حملة ضد الدولة البيزنطية ، وهى الحملة التى كانت بقيادة أسامة بن زيد •

الثانى : رغبة الجماهير الفقيرة فى اجتياح منطقة البحر الأبيض المتوسط الغنية بثرواتها • وكان هذا الغرض كامنا فى نفوس العرب من قبل الاسلام ، وقد حيل بينهم وبين تحقيقه بقيام امارتين عازلتين هما الغساسنة فى سوريا ، واللخميين فى الحيرة • ولكن عندما عبرت الجيوش الاسلامية حدود الجزيرة العربية لفتح ما وراءها من أقطار الأرض لم يكن السبب الرئيسى لها اقتصاديا ، بل كان دينيا فى المقام الأول ، فقد كانت الرغبة المسيطرة على نفوس المسلمين فى تحركهم للقتال خارج الجزيرة العربية رغبة دينية ، اذ كان هدفهم تكوين دولة اسلامية ، تدين بالقرآن وتتبع سنة رسول الله ، ولهذا لزم — فى نظرهم — القضاء على مملكتى كسرى ، وقيصر لتحقيق هذا الهدف •

* كانت الظروف مهيأة للقضاء على هاتين المملكتين ، فقد خرجت مملكة كسرى من حربها مع الدولة البيزنطية منهكة القوى ، مفككة الأوصال ، فسقط جنوب منطقة دجلة والفرات فى يد العرب فى أول هجوم شنوه على دولة كسرى ، واستمر الفتح فى عهد الخليفة الثانى ، عمر ابن الخطاب — وقد كان رجلا قويا ، وحاكما حازما — الذى وجه حملات الفتح الى الشمال والشرق ، فخضعت المنطقة كلها للمسلمين ، من منطقة دجلة والفرات حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط • ومن العوامل التى ساعدت على سرعة اجتياز الجيوش الاسلامية لهذه المناطق ترحيب السكان بالعرب لأنهم رأوا أنهم سيخلصونهم من حكم البيزنطيين الذى أنهك قواهم بفرض الضرائب الفادحة وبالتعصب الدينى الذى مارسته الكنيسة معهم •

* دخل عمر بن الخطاب مدينة القدس فى عام ٦٣٨ م ووضع حجر الأساس لأول مسجد فى المنطقة ، وواصلت الجيوش زحفها نحو

الشرق فى عهده ، فضربت الجيش الفارسى ضربة قاضية فى معركة القادسية . وتوغلت فى البلاد حيث استقبلهم الأرمنيون بالترحيب لأنهم كانوا ناقمين على سياسة كسرى •

* كان الاستيلاء على منطقتى سوريا وبلاد ما وراء النهرين بمثابة سهمين أعدا للانطلاق لتنفيذ خطة مرسومة لفتح ما وراءهما ، فقد توغلت الجيوش فى ايران ، كما فتحت مصر فخلصها الجيش الاسلامى من وطأة تحصيل الضرائب الفادحة ، التى فرضها عليهم القيصر لسد نفقات الحرب ، التى دارت بينه وبين الفرس • ومما يجدر ذكره هنا أن المؤلف وصف الدعوى التى تنسب حرق مكتبة الاسكندرية الى العرب بأن لها طابعا أسطوريا ، أى أنها لا تقوم على أدلة كافية •

* يصف المؤلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه « لم يكن قائدا عسكريا ماهرا فقط ، بل كان سياسيا محنكا ، فاليه يرجع الفضل فى قيام دولة اسلامية — سياسيا وعسكريا واداريا — على أنقاض الدولتين ، البيزنطية والفارسية ، اذ أصبح النظام الادارى •• الذى وضعه للدولة أساسا لكل ما فتح من أمصار فيما بعد ، ومثالا يحتذيه كل من جاء بعده ، فقد سن — على سبيل المثال — قاعدة فى الأرض المستولى عليها صلحا ، لم تكن معروفة من قبل ، كما نظم العلاقة بين الدولة وبين سكان الأرض المفتوحة ، فتركهم يزرعون أرضهم فى مقابل حصة يؤدونها للدولة ، وتركهم يديرون شئونهم بأنفسهم وكفل لهم حرية كاملة فى ممارسة طقوسهم الدينية ، لدرجة أن القسس كانوا يمثلون مصالح أبناء عقيدتهم لدى الدولة •• و •• و •• الخ •

* قد يبدو التناقض الظاهرى واضحا فى هذه الاجراءات ، فالفتح الاسلامى لم يعد الغرض منه حمل الناس على الدخول فى الاسلام ، بل كان الهدف منه اخضاع غير المسلمين للحكم الاسلامى • ولكن هناك سبب واقعى جدا ، وهو أن فتح أقطار العالم يحتاج الى أموال طائلة ، لا يمكن الحصول عليها الا اذا دفع هؤلاء الذين لم يدخلوا الاسلام من أهل الكتاب فى الأرض المفتوحة ما فرض عليهم من جزية •

* تولى الخلافة بعد عمر : عثمان بن عفان ، فلم يبذل نشاطا فى الفتح مثل ما فعل عمر بن الخطاب ، اذ كرس جهده على تثبيت سلطان الدولة فى الداخل ، فولى أقرباءه المناصب الهامة ، الأمر الذى أثار حفيظة

فريق من المسلمين فقتلوه وهو يقرأ القرآن ، فأرسلت أرملته قميصه الملطخ بالدماء الى قريبه معاوية بن أبى سفيان ، الذى كان واليا على الشام فى ذلك الوقت ، فعادت غريزة الأخذ بالثأر القديمة تطل برأسها فى المجتمع الاسلامى ، اذ لم يستطع بنو أمية ضبط أعصابهم فطالبوا بالأخذ بالثأر من قتلة عثمان بن عفان .

* تولى على بن أبى طالب الخلافة بعد عثمان ، وكان سنه آنذاك خمس وخمسون سنة ، فجاءت توليته متأخرة فى نظر بعض المسلمين ، لأنهم كانوا يرون أنه كان أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان . فوضع شيعته كثيرا من الأحاديث التى تبين فضله عليهم ، ولكن الجماعة لم تجمع على ولايته حتى قتل عثمان ، فبويع بالخلافة وظل فيها من ٦٥٦ حتى ٦٦١ م حتى قتله أحد الخوارج الذين انشقوا على طاعته .

* ترك على قتلة عثمان دون محاكمة ، فثار عليه بنو أمية بقيادة معاوية ، كما كان هناك فريق آخر خرج عن طاعته وأعلن الحرب عليه ، وكان هذا الفريق بقيادة عائشة الا أنه تخلص منه فى معركة الجمل ، أما فريق معاوية فقد التقى به فى معركة صفين .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث النزاع بين على ومعاوية . وبين على والخوارج ، وقتل على ، وتنازل الحسن ابنه عن الخلافة لمعاوية .. الخ . ثم يقول : « وأخيرا أخضع معاوية جميع أقطار الدولة الاسلامية لحكمه ، واختار دمشق عاصمة له ، لأن المدينة كانت بعيدة عن مسرح الأحداث ، ولأن دمشق كانت أكثر أمنا بالنسبة له ، فقد عضدت سلطانه .. وهكذا : أصبحت الخلافة الاسلامية ملكا عضودا يرثه الأبناء عن الآباء » ..

*** تخبطت آراء الباحثين الأوروبيين فى تعليل الفتح الاسلامى ، فبينما يقول فريق : « انه كان اعتداء وغزوا للسيطرة على الموارد المالية للأقطار المفتوحة .. ،**

*** يرى آخر : أنه كان نشرا للاسلام بالقوة .**

*** أما مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » .. فيذهب الى أنه لم يكن لحمل الناس على الدخول فى الاسلام ، بل كان الهدف منه سيطرة الاسلام على العالم ولما كانت الجيوش الاسلامية فى حاجة الى أموال طائلة ، رأى المسلمون عدم اجبار أهل الكتاب على اعتناق الاسلام ، والاكتفاء بتحصيل الجزية منهم ، ليضمنوا عائدا يساعد الجيوش على مواصلة فتحها لمناطق العالم .**

* والسبب الرئيسى فى هذا التخبط هو الجو الذى نشأوا فيه ، ونوع الثقافة التى تربوا عليها ، ذلك أن الجو الأوروبى العام ينظر الى الاسلام نظرة عداوة وتربص ٠

* من جراء الأحداث التى وقعت بين المسلمين فى الأندلس ، وبين الامارات المسيحية المجاورة لهم منـــذ الفتح الاســـلامى لهذه المنطقة الأوروبية من عام ٧١١ م حتى خروجهم منها فى عام ١٤٩٢ ٠

* ونتيجة لمـــا ترسب فى نفوس الأوروبيين عامة من حقد وكراهية للاســـلام والمسلمين ذلك الحقد الذى غرســـته وقائع الحروب الصليبية فيهم ، فلقنوه لأبنائهم جيلا بعد جيل ٠

* ولهذا فهم ينظرون — عند تحليلهم للأحداث الاسلامية — الى الموضوع من زاوية العداوة ، فيدفعهم هذا الموقف الى تصعيد كل ما من شأنه تصوير المسلمين على أنهم جفاة ، غلاظ ، لا يعرفون الا السيطرة وحب المـــال والجاه ٠

* ونسى هؤلاء — أو اغضوا أعينهم عنه عمـــداً ، وأخفوه عن قرائهم — ان المسلمين لم يفتحوا لأجل الغزو والسيطرة — وان ظهر من المسلمين أحيانا خلاف ذلك ، فهو مخالف لروح الاسلام ، وبعيد أيضـــا عن الطابع الاسلامى العام الذى تحلى به المسلمون فى جهادهم — بدليل أن أهل الكتاب عاشوا فى الدولة الاسلامية أحرارا فى عبادتهم مستقلين فى ادارة شئونهم الخاصة ، لم يعتد عليهم أحد فى مال ولا عرض ، ولم تقيد الدولة حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ، فنعموا بحياة لم يروها أثناء خضوعهم لاخوانهم فى العقيدة ٠

* كيف يكون الفتح وسيلة للسيطرة على الموارد المالية وقد حرم الاسلام أكل أموال الناس بالباطل ، والتزم المسلمون بهذا التحريم ، فلم ينهبوا ولم يغتصبوا سكان الأرض المفتوحة ، مثل ما تفعل الجيوش فى عصر الحضارة الأوروبية والمدنية ٠

* أما دعوى أن الفتح كان وسيلة لنشر الاسلام بالقوة ، فقد رددنا عليها فيما سبق من هـــذا البحث ، وتبقى دعـــوى مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » وهى : أن المسلمين تركوا أهل الكتاب ، فلم يجبروهم على الدخول فى الاسلام ، ليضمنوا موردا ماليا من فرض

الجزية عليهم يساعد فى نفقات الجيوش الاسلامية ، لتواصل فتح أقطار أخرى ٠

* والرد على هذه الدعوى يكمن فى الاجابة على سؤالين هما :

هل كانت الدولة الاسلامية تعانى آنذاك من نقص فى الأموال ؟

وهل كانت الأموال التى تحصل من الجزية تكفى للخدمات العامة التى تقوم بها الدولة للسكان ؟

* لم تكن الدولة الاسلامية فى أزمة مالية ، بل كانت فى رخاء ليس له حدود ، لأن الأموال فاضت على المسلمين فى هذا العهد من كل صوب، فتحت لهم كنوز كسرى وتدفقت عليهم الأموال من خراج وفئ وغنيمة ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠ الخ لدرجة أن المؤرخين يجمعون على أن خزائن الدولة كانت مليئة بالخيرات فرتبت للجند رواتب سخية ، ومنحت كثيرا من المسلمين عطاءات ثابتة من بيت المـــال ، ومع ذلك لم ينضب ما عندها من « أرصدة » ، بل بقى فى بيت المـــال فائضا ، فكيف يقال :

ان المسلمين احتاجوا الى أموال الجزية للصرف على جيوش الفتح ؟

هل كانت المبالغ التى حصلت من الجزية كافية لتغطية بند الخدمات العامة ؟

* لا لم تكن كافية ٠٠ اذن ، فالمحصل منها كان يصرف أكثر منه على خدمات كان يتمتع بها أهل الكتاب ، فكيف يقال : انها كانت موردا يساعد على نفقات الجيش لتواصل الفتح ؟ !!

* لم يكن الغرض من الفتح الاسلامى سوى تمكين الدعاة من توصيل كلمة الاسلام الى هذه الشعوب ، فتختار بنفسها ــ دون ضغط عليها من حــكام لا يؤمنون بالله ــ طريق الحق ، فان هداها الله الى الاسلام ، اعتنقته دون خوف من أحد ، وان اختارت البقاء على ما هى عليه لن يجبرها أحد ، لأن واجب المسلمين تبليغ الدعوة فقط ٠

« وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد »[1] ٠

* * *

---

(١) آل عمران : ٢٠

٢ ــ العصر الأموى (٦٦١ ــ ٧٥٠ م) :

* تبوأت أقوى قبيلة فى قريش مقعد الخلافة ، وأخــذ معاوية البيعة لابنه يزيد فى حياته ، فبدا الوضع كما لو كان الزمن قد عاد أدراجه ؛ حيث خول الانتساب لقبيلة ذات سطوة وسلطان ، الحق فى تصريف مقاليد شئون الحكم ، والتحكم فى مصائر الناس •

* تصرف الأمويون فى الحكم بالأسلوب العربى القديم ؛ فأحاطوا الخلفاء بهالة من العظمة والتقديس ، كما انفرد الخليفة باتخاذ القرارات؛ وان خالفت رأى مستشاريه ، أو أنكرها من خول لهم وضعهم الاجتماعى القدرة على نصيحة الخليفة • وكانت القرارات التى تصدر من الخليفة تعلن فى المساجد على أنها أوامر لا تعارض ، ويجب تنفيذها فور سماعها •

* كذلك أهملت الدعوة فى مجال اقناع أهل الكتاب باعتنـــاق الاسلام ، فتركوهم على دينهم واكتفوا منهم بدفع الجزية • وفى سوريا توقفت الأعمال فى اقامة مستوطنات عسكرية تكون عازلة بين المسلمين وأهل البلاد ، وترك العرب المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينية حيث شاءوا ، الى أن وصل الأمر الى أن المسيحيين والمسلمين كانوا يتناوبون ــ فى بعض الأنحاء ــ اقامة شعائرهم فى مكان واحــد • وكان باب الخليفة مفتوحا للمسيحيين يقصدونه للتشاور فى جميع المجالات وخاصة فى النواحى المالية • وظلت الادارة فى أيدى أهل البلاد ، كما كانت فى أيام حكم الدولة البيزنطية • واكتفى المسلمون بتولى المناصب القيادية •

* ظلت ادارة الدولة تستعمل اللغة اليونانية حتى عهد عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ ــ ٧٥٠ م) فأمر بتعريبها كما سك النقود باللغة العربية • وأدخل تعديلات فى نظام الضرائب •

* اندلعت معارضة الأمويين والثورة عليهم فى بادىء الأمر من المدينة ، وكانت انتفاضتهم تقوم على أسس دينية ، لأن تحول الدولة الى طابع دنيوى أثار حفيظة أهل المدينة ، الذين رأوا فى سلوك الخلفاء تعارضا واضحا لمــا كان عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) ؛ ومناقضا لمــا أمر به ، فثاروا على الخليفة ، ولكن الأمويين أخمدوا الثورة بالقوة •• ثم يمضى المؤلف فى حديثه عن الانتفاضات والثورات ضد الحكم الأموى والمعارك التى دارت بين المعارضين وقوات الخليفة • حتى نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية فى عام ٧٥٠ م •

* * *

٣ — الفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب :

* ذكر المؤلف فى تناوله لأحداث الفتح الاسلامى لشمال أفريقيا أن المسلمين أتموا فتح المنطقة فى عام ٦٩٧ م ، ثم عبروا البحر الى أسـبانيا فى عام ٧١١ م بقيادة طارق بن زياد ، فقضـوا على مملكة القوطيين ، وبقضاء المسلمين على هذه المملكة تخلص السكان من نيرهم واستعبادهم وتنفس اليهود — المقيمون هنـاك — الصعداء ، لأنهم تخلصـوا من الاضطهاد الدينى • فتحرروا من الضغط الذى مارسه القوطيون عليهم ليخرجوهم من اليهودية الى النصرانية •

* ولم يتوقف الجيش الاسلامى عن التوغل فى أوروبا ، فواصل زحفه نحو الشمال ، ولا يعلم أحد شيئا عن هدف المسلمين بهذا التوغل : هل كان هدفهم الاستيلاء على كنوز الكنيسة ؟

* أم أنهم أرادوا اختراق أوروبا ليصلوا الى الشام عن طريق القسطنطينية ؟

* لكنهم لم يحسنوا تقدير قوة الأوروبيين ، فانهزموا فى معركة « بواتييه » أمام « كارل مارتن » الذى أنقذ أوروبا من الخطر الاسلامى • ثم فصل القول فى الخلاف الذى وقع بين المسلمين فى البلاد المفتوحة ، واعلان بعض الأمراء الاستقلال فى مقاطعاتهم ومحاربة بعضهم البعض الآخـر •

* وفى الجانب الآخر واصلت الجيوش الاسلامية زحفها نحو الشرق ، فاستولوا على البنجاب فى عام ٧١١ م ثم اتجهت فيما بعد صوب الصين ، وتوغلت فى داخل آسيا غير أن الدعاة سبقوا الجيش الى تلك المناطق •

* ومن المدهش حقا أنه بينما كانت الجيوش الاسلامية توالى فتحها لمناطق العالم قامت نهضة حضارية فى المناطق العربية ، وتعتبر الانجازات الحضـارية فى العهد الأموى منارات وضاءة فى التـاريخ الاسلامى ، سواء فى مجال الاقتصاد الزراعى حيث شقت القنوات وأقيمت الجسور •• و •• و •• الخ ، أو فى الفن المعمارى ، حيث شيدت المساجد وزينت بالفسيفساء الذى يعتبر آية فى الفن المعمارى ، وأنشئت الحمامات العامة على أحدث طراز •• الخ •

* وفى عرضه لأسباب انهيار الدولة الأموية يقول :

« انغمس الخلفاء فى الترف والحياة المدنية ، فصاروا يفهمون فى الخمر والنساء والفن أكثر من فهمهم لواجباتهم كخلفاء ، فلم يبق لديهم أى صفة من صفات خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى يدعونها ، فحفروا قبورهم بأنفسهم » •

* ثم تتاول أحداث تصاعد المعارضة ضد الدولة الأموية •• والتفاف الشعوب غير العربية — وعلى الأخص الشعب الفارسى — حول المطالبين بالخلافة من آل البيت الى أن سقطت دولة بنى أمية فى عام ٧٥٠ م •

*** أوقفت معركة « بواتيه » فى سهول فرنسا زحف المسلمين على أوروبا ، وردتهم عن مواصلة فتح أقطارها • ويختلف الباحثون فى تصوير أحداث هذه المعركة ، وتقييم نتائجها بالنسبة لأوروبا ، فبينما نجد المستشرقين يشيدون بـ « كارل مارتن » فى قتاله وبسالته ضد المسلمين ، ويرجعون انتصاره عليهم الى طبيعة عقليته العسكرية ، والى تفوق قدرة جنوده على جنود المسلمين فى ميدان القتال ، يجد الباحث المدقق أن فوز « كارل مارتن » يرجع الى الداء الذى أصيب به المسلمون بعد فتحهم للأندلس مباشرة ألا وهو :**

تكالبهم على الغنائم •

والنزعة العصبية التى شاعت بينهم • ففرقتهم الى عرب وبربر •

*** ذلك أنه عندما التقى الجيشان استمرت المعارك بينهما سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ كل جيش فيها بمركزه ، وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معارك عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادلا حتى دخول الليل ، واستأنفا القتال فى اليوم التالى وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الاعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين • ولكن حدث حينئذ أن افتتح الفرنج ثغرة الى معسكر الغنائم الاسلامى فارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الاسلامية بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى أيدى العدو ، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم • وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن الغافقى — قائد المسلمين — أن يعيد النظام وأن يهدىء روع الجند وبينما هو**

يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها اذ آصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته فسقط قتيلا من فوق جواده ، فعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسلامى واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل ٠

* وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامى ، واختلف الرأى ٠٠٠ وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع ، ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب ، وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا فى جوف الليل ، وتحت جنح الظلام ، تاركين أثقالهم ، ومعظم أسلابهم غنما للعدو ٠

* ومن الأسباب التى عاقت الجيش الاسلامى عن أحراز نصر حاسم فى تلك الموقعة حالة القلق التى أصابته ، بسبب الشقاق الذى كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكان الكثير منهم يتوق الى الانسحاب مؤثرا النجاة بغنائمه الكثيرة ، ذلك أن المسلمين قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثنـــاء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها ، وأديارها الغنية ، وأثقلوا بمالا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى ٠

* فكانت هذه الأثقال النفسية تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تغيير سير المعركة ٠

* أما حديث المؤرخين الأوروبيين عن نتائج هذه المعركة ، فتظهر روح الصليبية واضحة فى كل سطر كتبوه فيها ، فعلى سبيل المثال يقول « السير ادوارد كريزى » :

« أن النصر العظيم الذى ناله « كارل مارتن » على العرب سنة ٧٣٢ م وضع حدا حاسما لفتوح العرب فى غرب أوروبا ، وأنقذ النصرانية من الاسلام » ٠

* ويقول « أدوارد جيبون » متصورا النتائج ، لو انتصر العرب فى معركة « بواتييه » :

« ٠٠ بل ربمـــا كانت أحـــكام القرآن تدرس الآن فى معـــاهد « اكسفورد » ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة » ٠

ويقول :

« ان هذه المعركة أنقذت آباءنا البريطانيين ، وجيراننا الغالين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال روما ، وأخرت استعباد « قسطنطينية » وشـدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرقة والفشل »(١) ٠

* ونسى هؤلاء — أو تناسوا أن أوروبا — والعالم كله — خسرت كثيرا من جراء هذه المعركة ، فلو واصل المسلمون فتح أقطارها :

ما نصبت فيها محاكم التفتيش التى راح ضحيتها ألوف الأبرياء ٠

وما تأخرت نهضتها العلمية قرونا بسبب تحكم الكنيسة ، وتحريمها الاشتغال بعلوم الطبيعة — لم يتقدم الأوروبيون فى هذا المجال الا بعد أن تخلصوا من سيطرة الكنيسة — لأن الاسلام لو دخلها فى ذلك التاريخ لمنحها الحرية الكاملة فى البحث فى كل مجالات الحياة ٠

وما استعبدت المـادية الوثنية الانسان اليوم ، لأن أوروبا حين تخلصت من الكنيسة ، خلعت عن نفسها كل الأردية الروحية ، وانطلقت فى مجال المـادية ، فانغمست فيها دون ضوابط ، وغاصت فى أعماقها دون حدود ، فتحكمت فى القوة المـادية ٠ واستخدمتها لتحصـل على المزيد فأخضعت العالم لها ، وسيطرت على مجرى الأمور فى جميع مناطقه فخضعت لها المجتمعات كرها ، أو قلدتهـا فى حياتها جريا وراء دعاوى التقدم والمدنية فصـار العالم كله منغمسا فى مادية جاهلية ، تاركا وراءه المبادىء الروحية التى جاء بها الوحى ، أو مرددا لها باللسان دون أن يكون لها أثر فى واقع المجتمع ٠

هذه هى احدى نتائج معركة « بواتييه » فلو أنصف الباحثون فى تقييم هذه المعركة لرأوها واضحة أمام أعينهم ، اما عندمـا يلقى التعصب الغشاوة على ابصارهم ويخيم الحقد على قلوبهم وسمعهم ، رأيتهم يتخبطون فى الحديث عنها وعن نتائجها متوهمين ان « كارل مارتن » قد أنقذهم ، بينما الواقع يؤكد انه منع عنهم خيرا كبيرا وكان سببا — وان كان غير مباشر — فى بعض ما تعانى منه البشرية اليوم ٠

* * *

---

(١) بين الاسلام والمسيحية ص ٢٣ — ٢٥ ٠

٤ ــ الدولة العباسية (٧٥٠ ــ ١٢٥٨ م) :

* بدأت الدولة العباسية حقبة جديدة فى التاريخ الاسلامى ، فقد ذابت الدولة ذات الطابع العربى ، وتحولت الى مملكة ذات طابع عالمى ، حيث اندمجت فيها تدريجيا كل الأجناس ، وتساوى فى الحقوق كل المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، كما أصبحت السلطة فى يد الفارسيين ، فحلوا محل القبائل المكية فى جميع المجالات سواء كانت دينية أو دنيوية • وعن طريقهم دخل كثير من التقاليد الفارسية القديمة الى بلاط الخلفاء ، وانتشرت فى جميع أجهزة الدولة • ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الدولة بهرت العالم بقوتها ونهضتها ، كما فرضت سيطرتها على جميع المناطق ، فكانت تخمد ثورات العلويين بتوجيه الضربات القاضية لها •

* تحدث المؤلف عن أحداث قيام الدولة العباسية ، وجهود العباس وأخيه المنصور من بعده فى بناء الدولة ، وتشييد المبانى والمساجد فى بغداد ، كما تناول النهضـــة التشريعية مبينا جهود المدارس الفقهية الأربعة فى هذا المجال ، وذكر أن عهد المهدى تميز بتعقب المذاهب الفارسية القديمة ، التى كانت تستهدف القضاء على الاسلام ، ولم تشفع عنده أى علاقة فى انزال العقاب بمن يدين بهذه المذاهب فعلى الرغم من أنه كان يحب الشعر والغناء ، فقد راح ضحية هذه الحملة شاعران فارسيان كانا من أقرب المقربين اليه •

* أخذ حديثه عن هارون الرشيد مساحة كبيرة من هذا الباب ، حيث ذكر أن شهرته طبقت الآفاق ــ فعرفه الصغير والكبير عن طريق ما ورد عنه فى قصص ألف ليلة وليلة ــ لأن قوة الدولة وصلت ذروتها فى عصره ، وتبادل السفارة والهدايا مع كارل الأكبر ، رجل أوروبا الأول فى ذلك الوقت •

* عرف هارون الرشيد بحبه للعدل والرحمة • كما اشتهر عنه تذوقه للأدب والشـــعر والغناء ، ولهذا جمع ببلاطه كثيرا من العلماء والشعراء والمغنيين ، ولذا وجب على المؤرخين حين يتعرضون لسيرته ــ أن يتناولوا ناحيتين فى شخصيته :

احداهما : حبه للهو والغناء والشعر •

والأخرى : ميله للتدين والصلاح والتقوى ، فقد كان يحج كل

عامين ، ويؤدى الصلاة فى خشوع تام ، ويعطف على الفقراء والمساكين .

❋ امتاز هارون الرشيد بفكر ثاقب وعقلية جبارة ، ولذا فقد كان قاضيا منصفا وذا دراية واسعة بشئون الدولة ، بالاضافة الى ما كان يتميز به من هيبة وسلطان ، وضح أثرهما عندما كان يقود الجيوش بنفسه ، الا أنه ترك الأمر فى الشئون السياسية والادارية للبرامكة ، فصالوا فيهما وجالوا ، ووصلوا الى حد أثار عليهم حفيظة الخليفة ، فتكفل بهم ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن نكبة البرامكة ، محللا الأسباب التى يمكن أن تكون السبب فى غدر الخليفة بهم ، ولكنه لم يرجح واحدا منها ، ثم يذهب الى أن نجم الخليفة قد أفل بعد نكبة البرامكة ، واختتم حياته بالحملة التى وجهها الى الدولة البيزنطية لاجبار قيصرها على مواصلة دفع ما التزم بتأديته الى الدولة الاسلامية وكانت آخر حملاته تلك التى وجهها ضد الثوار فى خراسان ، وأشرك فيها ابناه : الأمين والمأمون ، الا أنه مات قبل الانتهاء من اخمادها . وكانت وفاته فى عام ٨٠٩ م .

❋ كانت الدولة مهددة بالانهيار أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، ولكن انتصار المأمون أنقذها ، اذ سار على طريق والده ، فقاد نهضة كبرى فى جميع المجالات ... فازدهرت العلوم والمعارف ، وخاصة فى مجالى الطب والرياضة ، حيث ترجمت أمهات الكتب الى اللغة العربية ، وأنشىء بيت الحكمة ، وأقيم مرصدان فلكيان ، أحدهما فى بغداد ، والآخر فى دمشق ، وظلت نظريات الفضاء التى توصل اليها العلماء فى عصره أساسا يعتمد عليها الباحثون فى أوروبا حتى عصر « كوبرنيك »(١) .. ثم تحدث المؤلف عن :

نشاط المأمون ضد العلويين ، ومحاولة التصالح معهم بتعيين على ابن موسى وليا للعهد .

ومحاولة قائده طاهر الاستقلال بحكم خراسان بعد نجاحه فى اخماد ثورة الخوارج بها .

واخماد ثورة الأقباط فى مصر .

ومعاركه مع الدولة البيزنطية من عام ٨٣٠ حتى ٨٣٣ م .

---

(١) « كوبرنيك » (١٤٧٣ — ١٥٤٣) فلكى بولونى برهن على دوران الكرة الأرضية حول نفسها وحول الشمس .

كما فصل القول فى وضع الدولة بعد المأمون وسيرة الخلفاء بعده ، وتسلط الاتراك على مقاليد الأمور فى بلاط الخلفاء ، مما أضعف هيبة الدولة ، وشجع الولاة على اعلان استقلالهم ، فتكونت دويلات كان لبعضها دور فى تسيير مجرى الأحداث فى المنطقة الاسلامية فقد قامت دولة الحمدانيين وفرضوا سيطرتهم على بلاد ما وراء النهرين ، كما فتحوا حلب ، ودخلوا فى معارك ضد الدولة البيزنطية ، واستمر فى سرده لمعاركهم حتى وصل الى نهاية دولتهم على أيدى الفاطميين •

* ودولة البويهيين التى أسسها أبو شجاع يوبة فى فارس وحكمت من ٩٣٢ حتى ١٠٥٥ م فقد استولى أبناؤه على والحسن وأحمد على أصفهان وشيراز وكرامان وبغداد ولقبوا بلقب معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة وأصبح أمير المؤمنين على عهدهم ألعوبة فى أيديهم ، ويستمر حديثه عنهم حتى نهايتهم على يد طغرل السلطان السلجوقى فى عام ١٠٥٥ م ثم يعقب على ذلك فيقول :

« لم يكن البويهيون أبطالا فى ميدان القتال فقط ، بل كان عندهم أيضا اهتمام بالحضارة ، فقد جعل عضد الدولة أثناء حكمه (٩٤٩ — ٩٨٣ م) — مدينة شيراز بحيث صارت أجمل مدينة فى المملكة الاسلامية وأنفق كثيرا من الأموال لتحسين مدن أخرى وعلى رأسها بغداد •

* * *

٥ — الدولة السلجوقية :

أقامها أمراء تركمان نشأوا فى بخارى ، وبدأ نفوذهم يزداد تدريجيا فغزوا ايران فى ١٠٣٩ م والعراق فى عام ١٠٤٣ م وقضى « طغرل »[1] على البويهيين فى بغداد عام ١٠٥٥ م فسمى نفسه « سلطان وملك الشرق والغرب » بدأ نجم الدولة السلجوقية يلمع فى عهده ، اذ لم تركز الدولة على النواحى العسكرية والسياسية فقط ، بل اهتمت أيضا بالعلم والفن — فبلغت ذروتها فى عهد « ملكشاه » (١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) حيث اعتنى وزيره نظام الملك بالمؤسسات الثقافية

---

(١) « طغرل بك » (ركن الدولة أبو طالب) قائد سلجوقى مؤسس السلالة السلجوقية قضى على البويهيين ودخل بغداد (١٠٥٥ م) فخلع عليه الخليفة القائم العباسى (١٠٣١ — ١٠٧٥ م) لقب السلطان وملك الشرق والغرب ، قهر البساسيرى الذى احتل بغداد وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر ، وأعاد الخليفة العباسى (١٠٦٠ م) •

فأسس « نظامية » نيسابور وبغداد ، فازدهرت العلوم الرياضية والفلسفية والشعر ، كما اهتم بالنواحى المعمارية فى المدن وخاصة بغداد .. ثم مضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة السلجوقية ونشاطها الحربى :

ضد الثائرين ، وضد بعضهم البعض فى ميدان الصراع على السلطة ، وضد الصليبيين .. الخ .. الى أن انتهت شهرتهم بظهور المنغوليين ، ففى القرن الثالث عشر ظهر جنكيز خان ، فهدد أركان الدولة جميعها فيما بين الصين والبحر الأسود ، اذ زحف نحو الغرب مبيدا كل المدن فى طريقه ، مخربا كل ما قابله من مظاهر الحضارة والمدنية ، ففى كل مكان تقريبا أكلت النيران كل ما كانت تملكه الدولة الاسلامية من كنوز علمية وحضارية . ولما مات « جنكيز خان » واصل حفيده « هولاكو » زحفه نحو بغداد فاستولى عليها فى عام ١٢٥٨ م ، وأعدم آخر خليفة عباسى ، كما أعدم كل أفراد أسرته وبذلك انتهت الدولة العباسية .

* * *

٦ ــ الاسلام فى أسبانيا :

* اذا تأمل المرء الرقعة الواسعة للدولة الاسلامية فى القرون الوسطى ، فان أول ما يبدو له فى كثرة شعوبها المتعددة الأجناس والألوان وفى تغلبها على الدسائس السياسية المتنوعة الاتجاهات ، وفى سيطرتها على مجرى الأمور التى تتنازعها المصالح الشخصية ، أن بقاءها لم يكن أمرا عاديا ، بل يبدو كما لو كانت مؤيدة بمعجزة ساعدتها على البقاء طويلا ، رغم الضغوط الداخلية ، والتهديدات الخارجية ، ومن المعجزات التى صاحبت هذه الدولة أيضا أنه على الرغم من انهيار نظامها السياسى فقد انتصرت العقيدة الاسلامية فى كل الميادين انتصارا لا نظير له مع الأديان الأخرى .

* وصل الاسلام الى الأندلس بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) بثمانين عاما ، أى فى عام ٧١١ م . ذلك التاريخ الذى لم ينسه الأوروبيون . فالفتح الاسلامى للأندلس تم فى عهد الأمويين ، وعندما قضى العباسيون عليهم هرب أحد أفراد الأسرة الى الأندلس وأسس دولة مستقلة عن مركز الخلافة فى الشرق .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة الأموية فى الأندلس وصراعها مع الامارات المسيحية التى تكونت فى الشمال ، واستمرار نشاط الأمويين الحربى ثلاثة قرون ضد الثائرين

على الدولة من مسيحيين ويهود وأمراء طمعوا فى اغتصاب السلطة ، كما تصدوا للفاطميين الذين أقاموا دولة فى شمال أفريقيا ، وهددوا امارة قرطبة . لكنهم ما لبثوا أن اتجهوا الى مصر ... ثم يتحدث عن دول الطوائف ، ومعركة الزلاقة ، ونجدة المرابطين للمسلمين فى هذه المعركة ، وعن الصراع الذى قام بين المسيحيين والأمراء . وامتداده بفضل مساعدة بنى مرين لهم : لكنهم حين ضعفوا عن تقديم هذه المساعدة انتهى الصراع باستيلاء « فرديناند » ملك « أرجوان » و « ايزابيلا » ملكة « قشتالة » على غرناطة آخر معقل اسلامى فى الأندلس .

* * *

٧ ــ شمال أفريقيا ومصر :

أسس الفاطميون دولة فى شمال أفريقيا فى عام ٩٠٨ م ، والمعروف أنهم كانوا يرفضون سلطة العباسيين ويدعون أنهم أحق بالخلافة على جميع أقطار العالم الاسلامى منهم . استطاع الفاطميون فى عصر ازدهار دولتهم أن يبسطوا سلطانهم من مصر على كل شمال أفريقيا ، وجزيرة صقلية ، وفى بعض الأحيان على سوريا ، كما هدد أتباعهم بغداد لمدة عام . فاعتقدوا أنهم وصلوا الى هدفهم ، وهو السيطرة على جميع العالم الاسلامى ، لكن سرعان ما انهار سلطانهم بعد ازدياد نفوذ العسكريين فى دولتهم ــ بالضبط كما حدث فى الدولة العباسية ــ حتى أصبح الخلفاء ألعوبة فى أيديهم .

* كانت نهايتهم على يد صلاح الدين الأيوبى ، الذى اشتهر بمعاركه ضــد الصليبيين ، فقد قضى على دولتهم فى مصر فى عام ١١٧١ م ، كما حقق نصرا ساحقا على الصليبيين فى عام ١١٨٧ م وعقد معاهدة صلح مع شارل قلب الأسد فى عام ١١٩٢ م ثم لم يلبث أن مات بعدها بعام واحد ... ويمضى المؤلف فى حديثه عن الدولة الأيوبية وصراع المماليك على السلطة ، وجهودهم فى قتال الصليبيين ، وانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت ، ونسير معه فى سرده لأحداث المماليك حتى الغزو التركى فى عام ١٥١٧ م ثم يختم الباب بقوله :

* « أصبحت الدولة المملوكية ، بعد سقوط بغداد مركزا للحضارة العربية الاسلامية فساعدها هذا ــ بالاضافة الى وضع الخليفة العباسى صوريا على رأسها ــ على تمكين سـلطان المماليك وازدياد نفوذهم وهيبتهم . وظل تأثيرهم واضحا فى السياسة والادارة فى أيام الصولجان

العثمانى على مصر ، ولم تنته مشاركتهم فى تسيير أمور الدولة الا فى بداية القرن التاسع عشر •

* * *

٨ — الوضع الجديد بعد الغارة المغولية :

* دمرت الغارة المغولية كل ما اجتاحته من بلاد العالم الاسلامى تدميرا شاملا وخاصة بخارى وسمرقند وبغداد ، كما تسبب الاهمال الادارى فى انهيار نظام الرى البديع فى العراق ، فتكبدت الدولة خسائر فادحة ، وعانت سوريا كثيرا من جراء ما ارتكبه المنغوليون من سلب ونهب لثرواتها ، كذلك الأناضول — مركز المنطقة التركية — وقع تحت سيطرة الدولة المغولية ما يقرب من سبعين عاما •• ثم يمضى المؤلف فى سرد الأحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى بعد الغارة المغولية — بما فيها دخول المغوليين الاسلام — مبينا الجهود التى بذلها الحكام لاستعادة مجدهم وسلطانهم •

* انقسم العالم الاسلامى بعد الغارة المغولية الى منطقتين :

الأولى : تمركزت فى ايران وامتد سلطانها نحو الغرب عبر الأناضول حتى حدود — المناطق الأوروبية ، ونحو الشرق حتى الهند ، واقتصر استعمال اللغة العربية فى هذه المنطقة على الدين وعلومه ، أما فى المجالات الأخرى فقد حلت اللغة الفارسية محلها •

الثانية : المنطقة العربية ، وتوزيع النفوذ فيها بين العراق ومصر ، التى امتد تأثيرها الثقافى فشمل شمال ووسط أفريقيا •

* وقعت المنطقتين سياسيا تحت تسلط الأتراك والمغوليين ، وكان الدين هو الرباط الوحيد بينهما ، لكن فى صورته الصوفية ، التى ظهرت فى أول الأمر فى عام ٧٠٠ م لكن تعقبها كل من السنيين والشيعيين واتهم بعض رجالها بالزندقة •• ثم ذكر المؤلف فى معرض حديثه عن الأفكار الصوفية أن الغزالى (١٠٥٨ — ١١١١ م) — وهو من أشهر علماء السنة — هو الذى مزجها بالمذهب السلفى ، مما جعل الصوفيين يتبؤون فيما بعد مكانا مرموقا عند المسلمين • ثم يختم الباب بقوله : « اقترب المذهب السنى من الصوفية بعد الغارة المغولية كثيرا لدرجة أن الصوفيين كانوا فى كثير من الأحوال يمثلون الاتجاه الدينى الرسمى ، على الرغم من أنهم لم يغيروا أساليب طقوسهم الصوفية • فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى والناس ينظرون الى الدرويش على أنه نموذج للحياة الدينية فى الاسلام • ومما يحمد للصوفية أن الوحدة الدينية ظلت متماسكة

بفضل جهودهم كما كان لهم تأثير فى بقاء المسلم متمسكا بعقيدته ، اذ انتشرت أفكارهم فى المجتمع فى عهد الضعف والانحلال ، ثم صيغت رسميا فى أول عمل سياسى للدولة العثمانية .

* * *

٩ — العثمانيون :

* حول السلجوقيون شرق ووسط الأناضول الى الاسلام ، وعندما شن المغوليون غارتهم كانت هذه المنطقة فى عصرها الذهبى ، فاستمر السلجوقيون — كولاة خاضعين للسلطة المغولية — فى الاحتفاظ بوضعهم حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى . ثم استولى الدراويش والمغامرون على السلطة السياسية والدينية . وساعدهم فى ذلك الأتراك الرحل الذين فروا من أمام الغزو المغولى .

* استطاع أحد هؤلاء المغامرين — ويدعى عثمان — أن يشن حربا على المناطق المسيحية المجاورة ، استمرت من ١٢٩٩ — ١٣٢٦ م ... ويمضى المؤلف فى سرد أخبار خلفائه وحروبهم فى أوروبا من عام ١٣٥٤ م حينما عبروا مضيق الدردنيل حتى عهد مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١ م) الذى قاد حروبا مظفرة ضد المجر وبولندا والصرب واليونان ، ثم تناول الوضع الداخلى للدولة وظهور الاقطاع ، وفساد الحياة السياسية ، واضطرار السلاطين — عندما تبين لهم عدم قدرة السلطة المركزية على حكم البلاد لاتساعها — الى الاستعانة بالمرتزقة ففشت الرشوة بين رجال الدولة فقد كان الولاة يشترون مناصبهم ، ثم يحصلون ما دفعوه من سكان ولاياتهم عن طريق فرض الضرائب الفادحة ، فاشتدت الوطأة على الشعب ، كما أهملت المشروعات الاصلاحية ، والخدمات ، فلم تشق قناة ، ولم يعبد طريق ، مما جعل الفلاحين لا يزرعون من الأرض الا ما يسد رمقهم وعائلتهم ، فانهار الوضع الداخلى ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما أصـــاب مصر بعد الغزو التركى فى عام ١٥١٧ م فقد كان يتولى امارتها أحد الباشوات ، فكان المماليك الذين تولوا الادارة فى الأقاليم يتمردون عليه ويشقون عصا الطاعة لدرجة أنهكت قوى الدولة فى الصراع الذى اندلع بين المجموعات المتصارعة على السلطة ، وكان من نتيجة ذلك انتشار الأمراض والفقر ، وانهيار الاقتصاد فنقص عدد السكان ، وأصبحت البلد التى كانت تتمتع بخيرات أرضها الوفيرة تعانى من فقر مدقع .

* بدا الوضع كما لو كان الخلفاء قد أغضوا أعينهم عن الحالة الداخلية المتدهورة لكنهم استطاعوا الصمود طويلا بفضـــل حماتهم .

الحربية ضد أوروبا المسيحية ، فقضوا على الدولة البيزنطية قضاء تاما عندما استولوا على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث المعارك التى خاضها العثمانيون فى دول البلقان .

١٠ — فارس بين الانحطاط والازدهار :

* اتجه العثمانيون نحو الشرق ، ففرضوا سلطانهم على الامارات المتبقية فى الأناضول ، ومن بينها المملكة البيزنطية طرابزون ، التى ضمت فيما بعد الى الدولة التركية بعد زواج « آصون حسن » من أميرتها . كذلك وقعت بينهم وبين القبائل التركستانية — الذين حطوا رحالهم فى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات — معارك هزمت فيها تلك القبائل على يد محمد الثانى فى عام ١٤٧٣ م ، فمد العثمانيون سلطانهم على الأراضى الفارسية ، لكن الصفويين استطاعوا فى عام ١٥٠٢ م اغتصاب الحكم فى ايران وتكوين دولة شيعية .

* أرجع مؤسس الدولة الصفوية نسبه الى على بن أبى طالب ، وأعلن مذهب الشيعة مذهبا رسميا للدولة ، فقــامت بين الشيعيين الايرانيين وبين العثمانيين السنيين عداوة مذهبية ، ظلت نارها متأججة حتى نهاية الدولة الصفوية ، وكانت لها آثار سيئة على السنيين المقيمين فى ايران ، اذ اضطهدتهم الدولة ، وتعقبتهم فى كل المجالات .

* أحرز سليمان الأول نصرا محليا على الصفويين ، فغزا المدينة الايرانية تبريز لكن سرعان ما استعادت الدولة سلطانها ، ووصلت الى ذروة مجدها فى عهد عباس الأكبر (١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) الذى نقل مقر الحكم الى أصفهان ، وكون أول جيش نظامى فى دولته ، وصرف لأفراده رواتب منتظمة ، فانتزع به بغداد من الأتراك ، كما استولى على المدينتين المقدستين عند الشيعة ، وهما : مشهد وكربلاء . لكن الدولة انهارت تدريجيا بعد موته ، بسبب النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعيين وبسبب غارات الأفغانيين الذين استطاعوا فرض سلطانهم على مناطق ايرانية فشاعت الفوضى فى الدولة ، وأدت الى قيام دولة القاجاريين — ويجرى فى عروقهم دم تركى — الذين حكموا اسما فقط حتى عام ١٩٢٥ م .

* كان المنتصر فى هذا التحول هم الروسيون والأتراك ، فقد ضم الروسيون فى عهد بطرس الأكبر مناطق جديدة على البحر الكاريبى الى دولتهم ، واحتل العثمانيون غرب فارس .

* * *

١١ — سليمان العظيم :

* كان عام ١٥١٧ م بداية حقبة زاهرة فى تاريخ الدولة العثمانية ، وذلك بعد غزو مصر ، فعندما قضى السلطان سليم على آخر سلطان مملوكى فى مصر ، ومحا واجهة الخلافة العباسية فيها ، أصبح الطريق الى مكة مفتوحا أمامه ، فوحد السلطة الدينية والسياسية • كما سهل له استيلاؤه على مصر والمناطق الخاضعة لها اخضاع شمال أفريقيا له ، وفتح باب التحكم فى تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط ، فأقام أسطولا بحريا ليفرض سيطرته على هذه المنطقة فى مواجهة القوى المسيحية •

* لم تظهر فعالية هذا الأسطول الا فى عهـد ابنه سليمان العظيم ، الذى انتقل اليه الحكم بعـد أبيه ، دون أن يظهر الصراع المـألوف — فى مثل هذه الأحوال — على السلطة • وصفه الأوروبيون بـ « العظيم » بسبب ما شاع بينهم عن بلاطه من أحداث وقصص خيالية ، أشبه ما تكون بقصص ألف ليلة وليلة ، أما المسلمون فيلقبونه بـ « القانونى » لأنه أعاد تنظيم الجيش وأدخل تعديلات فى قوانين الملكية ، وفى أنظمة الدولة •

* أدخل سليمان تعـديلات فى العلاقات السياسية بالمنـاطق الشمالية فور توليه الحكم ، اذ استغل النزاع الداخلى فيها ، فغزا بلجراد فى عام ١٥٢١ م ، كما نفذ خطط أبيه ، فاستولى على جزيرة رودس ، فقضى بذلك على قراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون حركة التجارة التركية • كذلك استفاد من النزاع الذى كان قائما بين القيصر الألمـانى وملك فرنسا ، الذى أيد سليمان فى سـياسته فى أوروبا ، فظل الفرنسيون بفضل هذه السياسة مفضلين فى بلاط السلطان العثمانى لعدة قرون •

* هزم سليمان المجر فى موقعة « موهاكس » فأجبر « فرديناند » قيصر النمسا على تتويج « يوحنا زابوليا » ملكا على المجر •• ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث معاركه فى أوروبا — وشمالى أفريقيا حين طرد كارل الخامس من الجزائر — وسياسته مع حكامها ، وإقامته المساجد فى المناطق التى استولى عليها ، ثم فترة الهدوء النسبى التى سادت الجبهة الأوروبية بسبب انشغاله بحروب ضد ايران لتخليص بغداد من الشيعيين وتعقبهم حتى احتل تبريز • ثم بعد الانتهاء من الجبهة الايرانية • استأنف نشاطه فى أوروبا حتى أجبر « فرديناند » على دفع الجزية للدولة العثمانية •• ثم ختم الحديث عن سليمان بقوله :

« قويت الدولة فى عهد سليمان — الذى امتد ٤٩ عاما — الى درجة، لم تبلغها أى دولة فى آسيا وأوروبا فى ذلك التاريخ ، فقد ارتفع الهلال التركى فوق الأناضول وشمال افريقيا ، ومصر ، وفلسطين ، وسوريا ، والبلقان ، والمجر • وفى المجال السياسى والعسكرى استطاعت الدولة العثمانية أن تثبت قدرتها بتفوق على العمل فى عدة جبهات فى وقت واحد ، فلمع نجمها وتلألأ مجد سلطانها بين الدول • ويرى المؤرخون أن الدولة بلغت ذروة مجدها فى عهد سليمان العظيم ، ثم بدأت طريقها الى الضعف بعد موته ، وأخذت تترنح فى طريق منحدر ، ولم يستطع خلفاؤه انقاذها لأنهم كانوا ضعافا عاجزين •

* * *

١٢ — انهيار السلطة العثمانية :

* بدأ انهيار السلطة العثمانية من الجانب الاقتصادى ، عندما أخذت البرتغال المبادرة فى هذا المجال ، ونجحت فى تحويل مسار السفن التجارية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن هذا التاريخ بدأ كسر احتكار تجارة الحرير والتوابل ، فأصبحت لشبونة المركز التجارى الرئيسى لهذه البضاعة الهامة ، فقضت على استراتيجية البحر الأبيض المتوسط التجارية ، التى ظلت ملازمة له فى العصر القديم والعصور الوسطى ، نعم ! •• ظل طريق القوافل عبر سوريا الى أوروبا كما كان من قبل ، لأن البرتغاليين — على الرغم من حاميتهم العسكرية فى الخليج — لم ينجحوا فى فرض سيطرتهم على البحر الأحمر •

* لم تنتظر انجلترا طويلا ، فقد بحثت عن أسواق جديدة للتنك والصوف فرسمت خططها على أساس تبادل سلعها ببضائع شرقية فبينما كان الوضع بالنسبة لفرنسا فى بلاط السلطان لا يعود عليها بفائدة كبيرة ، نجحت انجلترا فى استمالة السلطان الفارسى الى جانبها ، فأبحرت سفنها فى الخليج ، ودخلت فى صراع مع القواعد البرتغالية فى البحرين وهرمز • وبينما بدأت سلطة البرتغال تتهاوى ، تشجعت انجلترا ، فسيطرت على طريق رأس الرجاء الصالح ، كما أخرجت البرتغال من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى •

* بدأت بواعث فرنسا تتحرك الى تكوين مستعمرات لها فى عهد « لودفيج » الرابع عشر •• ثم يمضى المؤلف فى تناول أحداث الصراع بين انجلترا وفرنسا على المستعمرات بالتحليل ، وبيان نجاح انجلترا فى السيطرة على المناطق المجاورة لفارس ونجاح فرنسا فى غلق أبواب سوريا أمام التجارة الانجليزية •

* بينما قام مجد الدولة العثمانية بمجهود سليمان الشخصى ، لم يستطع سليم الثانى أن يضيف شيئا سوى استيلاؤه على بغداد • ومن الأحداث التى اشتهر بها عهده هزيمة أسطوله عند « ليبانتو »(١) هزيمة ساحقة أمام القوات النمساوية بقيادة دون جوان ، وللأسف لم يستغل المسيحيون — هكذا يقول المؤلف — هذه الفرصة واكتفوا بفرض سيطرتهم على الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط •

* لعب سوء الحالة الداخلية دورا فى اخفاق الدولة العثمانية فى المجال الخارجى فمنذ عام ١٤٠٠ م تقريبا واغتيال الأشقاء فى مجال الصراع على السلطة يكاد يكون من الأمور العادية ، فقد كان البقاء للأقوى ، ولكنهم اتفقوا فى عام ١٦١٧ م على أن يلى العرش أكبر أبناء الخليفة الراحل ، فترك الخلفاء تسيير أمور الدولة لوزرائهم وانشغلوا بملذاتهم من نساء وغناء ولهو • ومنذ القرن السابع عشر لم يخرج خليفة بنفسه على رأس جيشه فى أى معركة ، فوقعت الدولة تحت سيطرة الفرق الانكشارية ، التى كانت تعد أنفاس الخليفة وتتحكم فيها بواسطة براعتهم وتكاتفهم فى المجال السياسى كذلك أصبح حكام الولايات ملوكا فى ولاياتهم فكثرت الثورات ، وانتشرت الرشوة لدرجة أن سلطة الموظفين المدنيين فاقت سلطة العسكريين ، فأصبحت مصالح الشعب تحت رحمة المنافع الشخصية • ووصل الفساد الى ذروته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى •

* نشط الوزراء من آل « كوبرولو »(٢) فبسطوا سلطانهم على

---

(١) « ليبانتو » : مدينة فى اليونا على خليج « ليبانت » •

(٢) « كوبرولو » أسرة تركية ، تولى عدد منها منصب الوزارة فى الدولة العثمانية • محمد : (١٥٨٣ — ١٦٦١ م) مؤسس العائلة ، ارتفع من خدمة المطبخ الشاهاني الى الصدارة العظمى بعد تعاقب الوزراء وانتشار الفساد • خدم الدولة بنزاهة ونشاط ، وقمع التعصب ، ورد الى الحكم هيبته •

فاضل أحمد : (١٦٣٥ — ١٦٧٦ م) ابن محمد وخلفه ، جمع فى استامبول مكتبة ، اشتهرت باسم « كوبرولو » فتح مدنا فى المجر وقريطش ، وجدد الامتيازات الفرنسية •

مصطفى : (١٦٣٧ — ١٦٩١ م) ابن محمد ، تسلم الصدارة (١٦٨٨ م) ، فأصلح المالية ، وفتح بلجراد • قتل فى الحرب •

حسين : ابن أخى محمد ، تولى الوزارة من (١٦٩١ — ١٧٠٢ م) عقد معاهدة كارلوفتس فى عام ١٦٩٩ م •

المجال السياسى بعد موت سليمان حتى ابرام معاهدة « كارلوفيتس » فى عام ١٦٩٩ م ويرجع الفضل اليهم فى مكاسب الدولة فى جزيرة كريت ، وغزو « بودوليا »(١) فى عام ١٦٧٢ م ، كذلك بذلوا جهودا محمودة فى المجال العسكرى ، ولكن لم يمكنهم هذا من وقف تدهور الدولة .. وبعد أن يسرد المؤلف أحداث حصار فيينا ، ونجاح الأوروبيين فى فكه يقول : « ومنذ ذلك التاريخ تتحكم البلاد القريبة فى سير الأحداث فى المجالين : السياسى والعسكرى فقبل سبعة عشر عاما من حصار فيينا ، وصلت الدولة الى ذروتها فى التوسع الاقليمى وذلك عندما أجبرت بولندا على التنازل عن « بودوليا » ولكنها أدركت أنها بدأت فى التقلص . وبعد فك حصار فيينا أصبح المدافع مهاجما ، اذ كونت النمسا وبولندا وفينيسيا حلفا ضد العثمانيين ، فاستطاعوا بعد موقعة « موهاكس » فى عام ١٦٨٧ م تحرير المجر ، ثم استولوا على بلجراد فى ٦ سبتمبر ١٦٨٨ م ، وهاجموا « نيش » .. فأخذوها فى عام ١٦٨٩ م ، وكانت هزيمة الأتراك ساحقة فى عام ١٦٩٧ م لدرجة أنهم وسطوا انجلترا وهولندا فى عقد معاهدة صلح ، فأبرمت معاهدة « كارولوفيتس » فى عام ١٦٩٩ م ، فأكدت للنمساويين والبولنديين والسلافيين والروس أيضا ضعف تركيا فتحفزوا جميعا لاستغلال هذا الضعف .

* * *

١٣ — الضغط الروسى :

* اندلع النزاع بعد توقيع معاهدة « كارلوفيتس » بين حاكم المجر « فرانس فون راكوكس » والنمسا ولم يستطع أحمد الثالث تقديم أية مساعدة له . ولم يتخذ نفس الموقف مع كارل الثانى عشر ملك السويد — الذى وجد ملجأ حصينا عند العثمانيين بعد هزيمته أمام الروس فى موقعة « يولتاو » — فقدم له مساعدة مكنته من هزيمة القيصر عند « بروث » لكن رشوة الصدر الأعظم أنقذت روسيا من توقيع معاهدة سلام مهينة .

* حالف الحظ العثمانيين فاستطاعوا استرداد بعض المناطق من الفينيسيين لكن حلفاءهم النمسويين ساعدوهم على انزال الهزيمة بالجيش العثمانى .. ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحروب والمعاهدات التى أبرمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، ومحاولة

---

(١) « بودوليا » ولاية فى غرب أوكرانيا ، خضعت للحكم التركى من عام ١٦٧٢ م حتى ابرام معاهدة (كارلوفيتس فى عام ١٦٩٩ م) .

العثمانيين اصلاح الجيش بواسطة الاستعانة بالخبرة الفرنسية وظهور النزعة القومية ، ورد الفعل المضاد من العثمانيين باحياء العاطفة الدينية على أساس حماية مركز الخليفة الدينى ، وتقوية الروح الاسلامية فى المجتمع فأدى ذلك الى نوع من الترابط فى مواجهة الرعايا غير المسلمين، وخاصة اليونانيين ، وبهذا اكتسبت المجالات السياسية والعسكرية طابعاً دينيا ..

* أعجب مصطفى الثالث — الذى تولى الحكم فى عام ١٧٥٧ م — بـ « فردريك الأكبر » فاتخذ واقعيته نموذجا له ، غير أن الروس فى عهد « كاترينا الثانية » أفسدوا خططه اذ تسبب ادعاؤهم بأن لهم الحق بالتدخل لحماية المسيحيين الأرثوذكس — ليس فقط فى البلقان ، بل فى داخل تركيا أيضا — فى اندلاع حرب مع الدولة العثمانية ، استمرت من عام ١٧٦٨ — الى ١٧٧٤ م ، ففقدت فيها تركيا أسطولها كما خرجت شبه جزيرة القرم(١) من تحت سيطرتها ، وهكذا انفصلت منطقة اسلامية — طبقا لمعاهدة « كوتشك » — عن السلطة العثمانية ، مع بقاء زعامة الخليفة الروحية لسكانها ، الا أن روسيا أعلنت فى عام ١٧٨٣ م أن القرم جزء لا يتجزأ من المملكة الروسية ، ولا يجوز لأحد التدخل فى شئونها اطلاقا . وبذلك فقد الخليفة حقه فى ممارسة زعامته الروحية لسكانها . ثم انتزعت روسيا لنفسها الحق فى أن تبحر سفنها فى البحر الأسود ، وان كانت تركيا قد استطاعت فيما بعد أن تسترد حقها فى الرقابة على حركة الملاحة ، كذلك تسبب هجوم النمسا وروسيا على تركيا اثر نزاع على الحدود فى القوقاز فى القضاء على الأسطول التركى فى عام ١٧٨٨ م وأجبر المسلمون فى عام ١٧٩٢ م على الاعتراف فى معاهدة «ياسا» بـ « دستر » كخط للحدود .

* أضعفت الهزائم المتتالية مركز تركيا فى مجال السياسة الخارجية والداخلية فلم تستطع وقف تقهقرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط ، الذى انتهى بخروج مصر من دائرة سلطانها . ويرجع صمودها طويلا فى هذا الوضع الى النزاع الذى كان قائما بين القوى العظمى : انجلترا وروسيا وفرنسا ، اذ كانت مشاكل الدردنيل وقناة السويس سببا فى ظهور ما يسمى بـ « المسألة الشرقية » على مسرح السياسة الدولية وهى من المشاكل التى كانت تهم أوروبا بالدرجة الأولى ، ومن

(١) القرم : شبه جزيرة تقع بالقرب من شاطىء البحر الأسود .

هنا كانت السياسة الأوروبية مهتمة بخلق توازن بين القوى ، لمنع روسيا من ارث تركيا فى حالة انهيارها انهيارا كليا ، وعليه فقد التزمت بالمحافظة على بقاء تركيا أكبر وقت ممكن ، وتضمنت خطتها ألا تسمح بتفككها الا فى حالة ضمان توزيعها بالتساوى ، لكن هجوم نابليون على مصر حول اهتمام انجلترا نحو مصر ، فشغلها عن مراقبة الضغط الروسى لعدة أعوام تالية •

* * *

١٤ — طريق مصر الى الاستقلال :

* كان المقصود من الحملة الفرنسية — التى نجحت الى حد ما — قطع طريق انجلترا الى الهند ، فبضائع الهند كانت تنقل عبر البحر حتى السويس ، ثم تنقل برا الى البحر الأبيض المتوسط ، ثم تنقلها السفن الى أوروبا ، فأرادت فرنسا — وهى المنافس الرئيسى لانجلترا فى مجال التجارة الدولية — مضايقتها ، فأرسلت حملة الى مصر بقيادة نابليون لأنه لم يكن من الممكن — فى مجال الصراع الدولى — أن تشن حرب على الجزيرة البريطانية • لم تحرز هذه الحملة نصرا عسكريا — باستثناء معركة غرب القاهرة عند سفوح الأهرامات — ولكنها وضعت أساسا لتوطيد العلاقة الفرنسية مع مصر • لم تمكث القوات الفرنسية فى مصر طويلا ، فقد أجبرتها قوات تركية بقيادة ابن السلطان سليم الثالث على الجلاء عنها فى عام ١٨٠١ م ، ويوجع الفضل فى نجاح القوات التركية فى مصر الى ضابط ألبانى اسمه : محمد على ، رقى فيما بعد الى رتبة جنرال تقديرا لجهوده العسكرية •

* استطاع محمد على أن يطغى على نفوذ الباشا ، الذى عينه السلطان واليا على مصر ، فنصب نفسه حاكما على جنوب مصر ، ووافق أصحاب الرأى فى القاهرة على توليته هذا المنصب • وفى عام ١٨٠٦ م بسط نفوذه على القطر المصرى كله ، فعينه السلطان واليا عليه •

* أحرزت الدبلوماسية الفرنسية أول نصر لها فى هذه الفترة اذ نجح رسول نابليون فى اقناع تركيا بالخروج من التحالف مع انجلترا وروسيا ، فنتج عن ذلك قيام حرب بينها وبين روسيا ، ساعدت فيها انجلترا روسيا ، وذلك بانزال كتيبة على شاطىء مصر فى عام ١٨٠٧ م ولكن محمد على انتصر عليهم وردهم على أعقابهم ، كان لهذه الحملة آثار بعيدة المدى فى رسم طريق المستقبل لمصر ، اذ لم يستحسن المماليك ازدياد نفوذ محمد على بعد انتصاره على انجلترا ، كذلك لم يغفر هو

لهم محاولة استغلال الموقف لصالحهم أثناء المحاورات مع انجلترا ، فدبر لهم مذبحة وتخلص منهم نهائيا ثم اتجه الى بناء الدولة متخذا الطراز الفرنسى نموذجا له ، وكان اهتمامه فى هذا المجال مركزا على بناء جيش وأسطول والنهوض بمصر لتلحق بالحضارة الأوروبية • ولكن المبادرة تركزت فيما بعد على تحقيق مصالح شخصية ، فتحولت الى دكتاتورية قاسية عانى منهــا الشعب ــ وخاصة الفلاحون ــ معــاناة لا حدود لها ، فقد كانت كل المشروعات الاصلاحية ــ بما فيها المدارس والمصانع ــ موجهة لبناء القوات المسلحة فقط ، لأن هدف محمد على كان الاستقلال عن تركيا وان تظاهر بالولاء والطاعة للسلطان •

❊ تركز اهتمام محمد على باشا على النجاح فى العمليات العسكرية ، لأنه رأى أنها طريقه الى المجــد ، والى امكانية استقلاله بمصر عن تركيا ، ولذا لم يتأخر فى تلبية طلب السلطان منه اخضاع الوهابيين •• ويمضى المؤلف فى بيان :

رأى الوهابيين فى الاصلاح ونجاحهم العسكرى ثم هزيمتهم أمام قوات محمد على •

وقيام الثورات فى البلقان ، وارسال محمد على ابنه ابراهيم ــ بناء على طلب السلطان ــ على رأس جيش مصرى الى اليونان ، فاستولى على « ميسولونجى » على خليج « كورنث » فى عام ١٨٢٦ م ثم سقطت « اكروبوليس » فى عام ١٨٢٧ م فقررت انجلترا وفرنسا وروسيا فى معاهدة لندن مساعدة اليونان ، فأرسلوا انذارا الى محمد على بســحب قواته فلم يستجب ، فضربوا أسطوله فى موقعة « نوارين » ثم وافق فى ٨ أغسطس سنة ١٨٢٨ م على الانسحاب من اليونان • وفى بروتوكول لندن عام ١٨٢٩ م أعلنت القوى الأوروبية العظمى استقلال اليونان عن تركيا ، ولكن لم تعترف تركيا بهذا الاستقلال الا فى معاهدة «ادريانويل»•

❊ لم يف السلطان بوعده لمحمد على باعطائه سوريا مكافأة له على اشتراكه فى الحرب ، فجرد حملة استولى بها على عكا ودمشق وحلب ، ثم ضرب الجيش التركى ضربة قاصمة عند كونيا فى عام ١٨٣٢ م فتحركت الدبلوماسية الانجليزية والفرنسية ــ بدافع من خوفها من وصول روسيا الى المضايق ، بعد أن رسى الأسطول الروسى فى القسطنطينية ــ لحماية السلطان ــ فتوصلت الى اجلاء محمد على عن سوريا وانسحاب الروس من القسطنطينية •

* وثق محمد على بالسياســة الفرنسية ، فاقتربت انجلترا من السلطان ، وعندما وصل محمــد على عام ١٨٣٨/٣٧ م الى الخليج ، سارعت انجلترا باحتلال عدن لمنعه من مواصلة التوسع •• ثم بعد فشله فى محاولة استرداد سوريا قرر مؤتمر لندن الذى اشتركت فيه انجلترا وروسيا وبروسيا أن يكون الحكم فى مصر لأبناء محمد على يرثونه من بعده ، وفى مقابل هذا ينسحب محمد على من جزيرة كريت ومن سوريا ومكة والمدينة وبهذا انفصلت مصر عن تركيا عمليا وان ظلت تبعيتهــا للسلطان اسمية لا أثر لها •

* * *

١٥ ــ الرجل المريض عند البوسفور :

* استطاع الوزير رشيد باشا أن يقنــع السلطان عبد المجيد بمواصلة تنفيذ البرامج الاصلاحية ، التى بدأها أبوه محمود الثانى • فقد استعان محمود بخبراء عسكريين من بروسيا لاصلاح الجيش • كما اتخذ النظام الأوروبى نموذجا له فى الاصلاح الادارى •

* واصــل عبد المجيد دفع عجــلة الاصلاح ، وتبنى الأفــكار الليبرالية ، فأصدر مرسوما نال بمقتضاه الشعب حقه فى الحرية والملكية، كما وضع خططا اصلاحية ضخمة فى مجال القضــاء والتعليم والرعاية الصحية ، ولكن لم يكن لهذه السياسة صدى فى أوروبا فقد تأخر الاعتراف بمماثلة تركيا للقوى الأوروبية ،اذ كان ينظر اليها فى هذه الحقبة على أنها الرجل المريض عند البوسفور • فعندما زار القيصر « نيكولاوس الأول » انجلترا فى عام ١٨٤٤ م تناولت المباحثات الاجراءات المشتركة التى يجب اتخاذها فى حالة الانهيار السياسى لتركيا فى المستقبل القريب•

* واتت الرجل المريض ــ الذى حفرت قطع أوصال مملكته جروحا عميقة فى جسمه فتسببت فى نزيف داخلى حاد ــ فرصة لتضميد بعض جراحه ، وكان ذلك بعد الانتهاء من حرب القرم • بدت ملامح هذه الفرصة ، عندما طلبت روسيا منحها حق ممارسة زعامتها للمسيحيين الأرثوذكس ، المقيمين داخل الدولة العثمانية • فرفضت تركيا وأيدتها انجلترا فى هذا الرفض • فتحركت روسيا وفرضت حمايتها على ادارة الدانوب فأعلنت تركيا الحرب ضد روسيا ، وساعدتها فى هذه المرة انجلترا وفرنسا اذ حرس أسطولهما الشواطىء التركية فأمن حركة التجارة فى البحر الأسود • ثم عقدت معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ م ، ونص فيها على التزام القوى العظمى بعــدم الاعتداء على تركيا ، وتحييد البحر

الأسود ، وانهاء الحماية الروسية على امارة الدانوب ، كما اعترفوا فى المعاهدة بسيادة تركيا على « فولدافيا » و « فالاخيا » و « الصوب » ، فنجت تركيا مرة أخرى من التقسيم بسبب الاختلاف بين القوى العظمى على تقسيم تركة الرجل المريض .

* شعرت الدولة العثمانية ، بفضل أوروبا عليها ، فازداد اقترابها فى سياستها الداخلية من النموذج الأوروبى الليبرالى ، فصدر دستور ١٨٥٦ م الذى سوى فيه بين المواطنين — بما فيهم المسيحيين — فى الحقوق المدنية ، وكفل حرية الأديان ، .. وقضى على التفرقة فى كل المجالات المهنية والوظيفية سواء كانت عنصرية أو طائفية ، فليس هناك سوى عثمانى فقط ، وبهـذا انتهى — رسميا — عهد اضطهاد الطوائف الأخرى كما سمح للأجانب بالحيازة والملكية .

* أدت الحروب وبرامج الاصلاح — بالاضافة الى تفشى الرشوة بشكل مخيف ، لا يتوقف عن الانتشار فى المجتمع والى بذخ السلطان — الى وقوع تركيا فى عام ١٨٧٤ م فى أزمة مالية عصيبة .

* وتسببت الثورات فى البلقـان فى اقلاق مضـاجع الأتراك ، فاستعملوا أسلوبا قاسيا معهم ، أثار حفيظة زعيم المعارضة فى انجلترا ، فطالب بطرد الأتراك من المناطق الأوروبية .

* تطورت الأحداث الى أن عقد مؤتمر برلين فى عام ١٨٧٨ م فحصلت فيه انجلترا رسميا على قبرص ، واستقل شمال بلغاريا فأصبح امارة ذات سيادة واعترف باستقلال منطقة الجبل الأسود (مونتنجرو Montenegrw وضمت اليونان منـاطق جديدة الى ادارتهـا ، كما أخذت روسيا ولاية « بسارابيا » من رومانيا فى مقابل أن تحصل رومانيا على « دوبروجيا » .. الخ . لقد خطت أوروبا فى تقسيم تركة الرجل المريض خطوات نحو الأمام ولكن لم تخرج تركيا من كل مناطق البلقان ، ومن هنا استمرت القلاقل التى تدفع القوى العظمى المتنازعة الى وضع خطة .

* * *

١٦ — مصر على الطريق البحرى الانجليزى :

* وقعت مصر فى أزمـة مالية بسبب المشروعات الاصـلاحية المتعددة ، والتدخل فى منطقة البحر الأحمر والسودان ، ولم يجد الخديوى مخرجا منها سوى بيع أسهم الدولة فى شركة قناة السويس لانجلترا ، وبهذا ازداد نفوذهما فى البلاط الخديوى ، فأرسلت هى وفرنسا هيئة

رقابة مالية الى مصر لمراقبة الميزانية ، ثم عين وزيران أحدهما انجليزى والآخر فرنسى فى وزارة نوبار باشا ، ولكن حين اشتد ضغط التيـــار القومى عزل السلطان الخديوى لعـــدم استطاعته التصـــدى للتدخل الانجليزى والفرنسى • تطورت الأحداث بعد ذلك ، فثار الجيش ضد الخديوى وأجبره على تعيين وزارة محمود سامى التى كان أعضاؤها واقعين تحت تأثير الأفغـــانى الذى يعتبر الأب الروحى للحركات الوطنية ، فتدخلت انجلترا بحجة حماية الخديوى ، وأدى هذا التدخل الى احتلال انجلترا لمصر فى عام ١٨٨٢ م وبهذا خرجت مصر من محيط التأثير الفرنسى ودخلت فى دائرة النفوذ الانجليزى •

* وهكذا ازداد التفتت فى أجزاء الدولة العثمانية ، فقبل هذا بعام واحد — أى فى عام ١٨٨١ م — دخلت تونس فى دائرة النفوذ الفرنسى •

* * *

١٧ — المهدى : لعبة صغيرة بين الأحداث الكبرى :

* لم تستقر الأحوال أيضا فى السودان منذ حركتهـــا طائفة دينية بقيادة الدرويش محمد بن عبد الله فى عام ١٨٧٠ م • فقد منع المهدى أتباعه من ممارسة كل ما يخالف تعاليمه فى مجال العقيدة ، وحرم عليهم التدخين وشرب الخمر ، كما تصدى لمحاربة التدخل الأجنبى بجميع صـــوره • وفى عام ١٨٨١ م أعلن الجهـــاد وزحف بجيشه حتى وصل الى الخرطوم حيث وقع الحاكم البريطانى « جوردون » قتيلا بسيوف أتباعه • وفى عهد خليفة المهدى هاجم أتباعه الحبشة ، ولكن « اللورد كيتشنر » استطاع فى عام ١٨٩٨ م التغلب على هؤلاء « الأعداء المتعصبين » — هكذا يقول المؤلف — ويقضى على المملكة المهدية قضاء نهائيا •

* * *

١٨ — المبادرة الألمـــانية لانشاء الخط الحديدى :

* وجد السلطان نفسه فى موقف حرج ، فكلما انتشرت القلاقل فى المملكة ازداد خوفه :

من تدبير المؤامرات ضد الدولة •

ومن تضييق الدائرة عليه داخل مقر حكمه •

ومن ارتفاع معدل الانفاق على أجهزة النظام البوليسية •

ولكى يضمن الاستمرار فى السيطرة ، فقد رغب فى توسيع شبكة

المواصلات حتى يتمكن من احكام الرقابة على كل أجزاء الدولة ، فاختار مهندسين ألمانيين للقيـام بهذا العمل ، ولم يكن هذا الاختيار عشوائيا ، فهو لم يثق فى الانجليز بعد استيلائهم على قبرص ، وموقفهم العدائى فى مصر • ولذا فضل الاستعانة بالألمـان •

* ازداد التأثير الألمـانى فى المملكة ، دون أن يحرك ذلك شكا عند البريطانيين ، اذ قدم الألمـان مساعدة لتركيا فى بناء الخط الحديدى فى البلقان ، وأرسلوا فى عام ١٨٨٣ م بعثة عسكرية الى تركيا ، وعقدوا معاهدة تجارية فى عام ١٨٨٩ م ، كما حصلوا فى عام ١٨٨٨ م على اذن بتوصيل الخط الحديدى حتى أنقرة • دفعت انتصارات الألمـان على فرنسا فى عام ٧٠/١٨٧١ م السلطان الى منح الشركة الألمـانية عقدا لبناء خط بغداد • وقبل نهاية القرن بقليل ومنح عقد لتوصيل الخط الحديدى الى حلب عن طريق « كونيا » •

* لم تتحرك انجلترا الا عنـدما حاولت الحكومة الألمـانية الحصول على اذن من شيخ الكويت بتوصيل الخط حتى الخليج • وبناء ميناء عليه ، فقام أسطولها بمظاهرة حربية فى الخليج ؛ لكن المفاوضات طالت وتعسرت الى أن وافقت انجلترا على مد الخط حتى البصرة ، كذلك اصطدم مشروع بناء خط الحجاز بمعارضة انجلترا •

* أفسد الاهتمام الألمـانى — الذى لم يعرف أحد ما يخفى وراءه — سياسة التوازن فى الشرق ، لأن خطوط المواصلات ساعدت تركيا على ارسال قواتها للدفاع عن سيادتها فى المناطق الثائرة • كان هدف السياسة الألمانية وضع اسفين بين القوى العظمى ، •• للحصول على ما يمكن الوصول اليه ، ومن مكاسب هذه السياسة قيام صداقة متينة بين تركيا وألمـانيا ، تلك الصداقة هى التى دفعت تركيا الى دخول الحرب العالمية الأولى بجانب ألمـانيا بمجرد اندلاعها •

* * *

١٩ — استيلاء الشباب التركى على الحكم :

* ارتفعت الأصوات فى المملكة مطالبة بعودة الدستور الذى وضع مسودته مدحت باشا فى عام ١٨٧٦ م وتحت ضغط الاضطهاد تكونت لجان سرية فى كل مكان داخل الأراضى التركية ، وبين المنفيين خارجها ، وانضم اليها تدريجيا بعض أفراد من الجيش ، وكان هدف هذه اللجان :

الاصلاح طبقا للنموذج الأوروبى •

الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية •

✻ اشــتد غضب أعضاء هذه اللجان من تدخل الأوروبيين فى مقدونيا ، فقاموا بأول ثورة لهم ، وكان ذلك فى ٥ يوليو سنة ١٩٠٨ ، وفى نهــاية الشهر أعلنوا فى سالونيكى عودة الدســتور ، واحتلوا القسطنطينية ، فاضطر السلطان الى الاذعان لمطالبهم •

✻ كانت أغلبية البرلمــان الذى افتتح فى ديسمبر من نفس العام من الشباب التركى ، غير أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان وجدت أيضا لها بين المحافظين أنصارا • فاستطاع السلطان أن يوجه ضربة الى الشباب التركى ، ولكن الجيش زحف من مقدونيا على القسطنطينية فخلع السلطان ، وعين أخاه محمد الخامس مكانه •

✻ وافقت الأحزاب الليبرالية على أن يكون للسلطان الحق فى تعيين كبير الوزراء واختيار الوزراء الذين يتحملون المسئولية أمام البرلمــان ، ولكن ليس للسلطان الحق فى حل هذا البرلمــان •

✻ ولكن لم تستطع الحكومة الجديدة أن تمنع انهيار المملكة العثمــانية •

✻ ✻ ✻

٢٠ — الحرب العالمية الأولى :

✻ لم تتردد تركيا فى الدخول فى الحرب بجانب ألمــانيا ، وفشلت جهود الحلفاء فى حملها على اتخاذ موقف حيادى ، كما ضاعت أيضا جهود السلطان فى حمل العالم الاسلامى على الوقوف بجانبه عن طريق محاولة اقناع المسلمين بأنها جهاد فى سبيل الله لحماية الدولة الاسلامية ، اذ انتهز العرب هذه الفرصة للتخلص من سيطرة الحكم التركى عليها وكان هدفهم قيام دولة عربية ، فنسوا فى سبيل الحصول على هذا الهدف كل الروابط الدينية التى تربطهم بتركيا ، فاشتركت قواتهم — بجانب القوات الانجليزية — فى محاربة اخوانهم فى العقيدة •• ويمضى المؤلف فى سرد أحداث القتال فى جبهات عدة مبينــا نشاط الشريف حسين و « لورانس » والوهابيين واستيلاء « اللنبى » على فلسطين ووعد « بلفور » بانشاء وطن قومى لليهود ، كما وضح أن القوات التركية أثبتت جدارتها فى القتال ، فقد ألحقت بطارية الجيش

التركى الهزيمة بالأسطول الفرنسى الانجليزى عند هجومهما على الدردنيل فى عام ١٩١٥ ، وأرغمتهما على التقهقر ، كما فشلت محاولة البريطانيين انزال قواتهم فى « جالبولى » ، ويرجع الفضل فى ذلك الى براعة مصطفى كمال العسكرية ..

* عقدت محادثات فى ابريل سنة ١٩١٦ م بين انجلترا وفرنسا وروسيا ، فكان من بين بنود الاتفاق السماح لروسيا — بعد انتهاء الحرب — بضم أرمينية وجزء من شمال الأناضول وكردستان اليها .

* تكبدت تركيا فى العام الرابع للحرب خسائر فادحة ، فبدا عليها الانهاك ولاح فى الأفق أن النهاية قد قربت ، فلم تستطع المملكة أن تتحمل العبء أكثر من هذا ... فانتهت الحرب وفتحت المضايق المائية أمام الحلفاء فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ م كما وزعت التركة ، فأصرت انجلترا على استمرار حمايتها لمصر ، وأسندت اليها عصبة الأمم الوصاية على فلسطين ، والى فرنسا الوصاية على سوريا ، وصارت كل الدول العربية تابعة للقوات الأوروبية ، وان اختلفت صورة التبعية من قطر لآخر .

* نزل الايطاليون واليونانيون الى آسيا الصغرى فى أوائل عام ١٩١٩ أملا فى الحصول على نصيبهم من الغنائم فقد كانوا كلهم يفكرون فى تقسيم باقى التركة العثمانية على أنفسهم ، ولكن لم تتحقق أطماعهم فى آسيا الصغرى .

* * *

٢١ — مصطفى كمال « أتاتورك » :

* ظهر مصطفى كمال فى وقت حرج بالنسبة لتركيا ، اذ كانت تواجه عالما منتصرا يريد أن يمزقها اربا ، وكان ظهوره رد فعل للنزعة الوطنية التركية ازاء موقف الحكومة التركية المتخاذل أمام القوى المنتصرة ، فأيقظت شجاعته فى جبهات القتال الوعى القومى عند الأتراك لمقاومة محاولات القوى العظمى بخس الدولة واهانتها ، فدعا الى اجتماع وطنى طالب فيه بالمحافظة على وحدة الأراضى التركية .

* كان احتلال الحلفاء للقسطنطينية فى عام ١٩٢٠ هو السبب فى اندلاع لهيب هذه النزعة القومية الخطيرة ، اذ كان رد فعل مصطفى كمال على هذا العمل تأليف حكومة فى أنقرة ، وعقد معاهدة عسكرية مع روسيا ، ورغم هذا انهزم الوطنيون الأتراك المنهكة قواهم أمام

اليونانيين الذين دفعهم الحلفاء بعد انتصارهم فى معركة Alaeschir الى احتلال « بروسة » و « ادريانويل » ٠

* وقعت الحكومة المتهالكة فى القسطنطينية فى ١٠ أغسطس ١٩٢٠ م معاهدة « سرفاى » التى نص فيها على تنازل تركيا عن كل المناطق غير التركية ووضع « أزمير » والمنطقة الواقعة وراءها تحت الادارة اليونانية لمدة خمس سنوات ، ومنح ايطاليا « رودس » وما يجاورها من الجزر الاثنتى عشرة ، كما اعترف فيها باستقلال « أرمينية » كما أعلن أن المضايق المائية مناطق منزوعة السلاح ، وخاضعة لرقابة دولية ٠ ولم يبق لتركيا من أوروبا سوى منطقة صغيرة حول القسطنطينية ٠

* لم يكتف مصطفى كمال بالمعارضة السلبية لهذه المعاهدة ، بل استعد لحرب فى « أرمينية » لكنه لم يحصل منها الا على منطقة « ايريوان » الصغيرة ، لأن « أرمينية » صارت فى ذلك الوقت احدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ٠

* أمن الأتراك ظهورهم بصداقتهم للاتحاد السوفييتى ، واتجهوا الى مقاومة العالم الغربى ، ومما ساعد مصطفى كمال على انتزاع حقوق تركيا من المنتصرين الاعتراف الذى حظيت به حكومته من كثيرين ، وخروج ايطاليا من الأناضول مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية ، وانتصار تركيا على اليونان فى خريف عام ١٩٢٢ وفشل محاولة انجلترا حمل ايطاليا وفرنسا على التدخل ضد تركيا ، فاستردت تركيا منطقة شرق تراقيا فى البلقان مقابل موافقتها على تدويل المضايق المائية ٠٠ ويمضى المؤلف فى بيان سياسة الحكومة التركية ، وانتهازها فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا للحصول على قدر أكبر من المكاسب السياسية والاقليمية الى أن وصل الى اعلان مصطفى كمال الغاء الخلافة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ فلم يعد الاسلام دين الدولة ٠ ومن الطبيعى حدوث صدى فى العالم الاسلامى لهذا الاجراء خاصة فى الهند ، فقد كان المسلمون هناك يرغبون فى المحافظة على الخلافة لتكون لهم سندا يمكنهم من الوقوف فى وجه السياسة الانجليزية فى الهند ، كذلك تسبب الغاء الخلافة فى احياء النزعة القومية عند الأكراد فقاموا بثورة ضد الحكم التركى للمطالبة باستقلالهم داخل دولة كردية تفرض سلطانها على جميع المناطق الكردية فى المنطقة لكن الحكومة التركية أخمدتها

بعنف فسالت الدماء أنهارا فى مسرح العمليات وأعدم الشيخ المسئول عن اندلاع الثورة فى أنقرة ولكى تقضى الحكومة على مقاومة المتحمسين للاسلام فقد حلت التنظيمات الصوفية ، وأقفلت زواياهم • وفى بداية الثلاثينات من هذا القرن صدر قرار من الحكومة بألا تقل المسافة بين مسجدين عن ٥٠٠ مترا ، وتحول مسجد الحاجة صوفيا الى متحف ، كما حل القانون السويسرى محل قانون الأحوال الشخصية فحرم تعدد الزوجات تحريما قاطعا — وهو أمر لم يعرفه الشرق الاسلامى حتى الآن — واعطى للمرأة حق الترشيح والتصويت فى الانتخابات •

* أراد مصطفى كمال بنـاء الدولة على الطراز الأوروبى ، وساعده الشعب — على الأقل سكان المدن — ظاهريا على ذلك فارتدى الملابس الأوروبية واستبدل غطاء الرأس الوطنى بالقبعة • وطبقـا لقانون ١٩٢٩ حلت الحروف اللاتينية محل العربية ، فمنع استعمال العربى والفارسى فى المدارس ، كما حرم على المطابع استعمال الحروف العربية فى طبع الأدب التركى ، وبهذا عزل الأدب التركى عن الآداب الأجنبية التى تشترك معه فى عقيدة واحدة •

* كذلك اتخذ اجراء لم يكن من الممكن أن يتخذه رجال الحكم السابقون ، ولو علقوا على المشانق ، ذلك هو ترجمة القرآن الى اللغة التركية ، واستعمال الترجمة فى المساجد ، والسماح للمواطنين بالردة واعتناق المسيحية ، ولكن لم يحدث شىء من هذا فى الواقع العملى ، اذ لم يسمع أحد أن خرج مسلم عن دينه واعتنق المسيحية •

* أصبحت تركيا عضوا فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ ، وفى عام ١٩٣٤ كرم البرلـان التركى مصطفى كمال فأطلـق عليه لقب « أتاتورك » ومعناه : أبو الأتراك ، تقديرا لخدماته لدولة تركيا الحديثة •• وبعد أن يستعرض المؤلف علاقات تركيا مع الاتحاد السوفييتى والعالم الغربى فى المجالات السياسية والاقتصادية يقول : مات مصطفى كمال فى ١٠ من نوفمبر ١٩٣٨ م تاركا وراءه دولة قوية ، تخلصت قيادتها من أحلام اللاواقعية •

* * *

٢٢ — نهضة فارس فى عهد الشاه رضا خان :

* استطاعت فارس أيضا أن تنجو من ضغط القوى العظمى بعد الحرب العـالمية الأولى ، فقد رغبت انجلترا فى بادىء الأمر فرض

سيطرتها عليها بعدما أعلن الاتحاد السوفييتى تنازله عن كل حقوقه فى فرض الحماية على أى منطقة خارج حدوده ، لكن البرلـــان الفارسى رفض التوقيع على معاهدة الحماية ، فاضطر البريطانيون الى التراجع لأنهم لم يكن لديهم الاستعداد لاراقة المزيد من الدماء بعد الحرب ، فسحبوا قواتهم •

* ثم ظهر فى فارس رجل ذو نزعة تقدمية هو : رضا خان • كان ضابطا فى الجيش ، أبدى شجاعة وإقدام فى حرب الحدود ضد البلشفيين ، وبعد توقيع المعاهدة مع روسيا ، زحف على طهران فأصبح قائدا عاما للجيش ووزيرا للدفاع فاستغل مركزه فى بناء جيش قوى ، وتسليحه بأحدث الأسلحة • وفى عام ١٩٢٣ أصـــبح رئيسا للوزراء ويمضى المؤلف فى سرد تاريخه حتى أصبح الرجل الأول فى الدولة ، فأراد أن يعلنها جمهورية ، ولكن التقاليد الدينية الشيعية لم تمكنه من تنفيذ رغبته ، فنصبه البرلـــان فى عام ١٩٢٥ ملكا ، له كل حقوق الشاه فى فارس ، وغير اسمه فأصبح يعرف باسم رضا بهلوى ، كما غير اسم فارس فيما بعد فصارت تعرف باسم : ايران •

* قام رضا بهلوى بنهضة شاملة فى البلاد فعوضها ما فقدته عبر مئات السنين ولم يكن للبرلـــان سوى الموافقة الروتينية على كل ما يعرضه من مشروعات وخطط ، ومن المشروعات الرئيسية لنهضة البلاد ربط المناطق بطرق مواصلات حديثة ، وانشاء الخط الحديدى بين بحر قزوين والخليج • وحظيت الآداب والتاريخ والتعليم باهتمام الحكومة اهتمـــاما لا يقل عن اهتمامها بالنواحى الاقتصـــادية ، كما انتهجت سياسة مع شركات البترول ، ضمنت لها ربحا أكبر ، واعتنت بالزراعة ، فأنشأت المعـــاهد الزراعية ، ووضعت خطة لتوطين البدو الرحل •

* سقط حجاب المرأة رسميا فى عام ١٩٣٦ م ، وان كانت التقاليد حالت دون سقوطه عمليا لعدة أعوام لاحقة ، ولكن الحركات النسائية أيقظت المرأة من ثباتها •

* بقى الاســـلام فى صيغته الشيعية دين الدولة فى فارس ، فاحتفظت بصداقة البلاد الاسلامية ، وحاولت اقامة علاقات ودية معها ، كى لا تنقطع مشاركتها فى المجالات الدينية والأدبية فى منطقة الشرق ،

كما احتاجت ايران فى تنفيذ البرامج الاصلاحية الى اقامة علاقات طيبة مع القوى العظمى فى العالم ، ومع الدول المجاورة لها فعقدت معاهدة صداقة مع القوى العظمى ، كما نص فى معاهدة سعد آباد التى عقدت فى عام ١٩٣٧ م مع تركيا والعراق وأفغانستان على الاعتراف بالحدود القائمة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية • وعدم الدخول فى أحلاف عسكرية مع القوى الأخرى وحل المشكلات التى تظهر على مسرح الأحداث مستقبلا سلميا •

* قامت النهضة الفارسية على أسس مشابهة لمـــا انتهجته تركيا فى مسار نهضتها ولكن لم تستطع التقدم بخطوات سريعة مثل تركيا بسبب اختلاف تكوين الدولة الظاهرى وبسبب ارتباط الشعب الفارسى بالدين والتقاليد ارتباطا وثيقا وعميقا • ورغم هذا فقد وصل الشاه بشعبه الى مرحلة من التقدم لم يصل اليها من قبل قط ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة التخلص من النفوذ الأجنبى ، اذ ظلت انجلترا وفرنسا تمليان على فارس — على مدى عدة قرون — انتهاج السياسة التى كانت تحدد مصـــيرها •

* * *

٢٣ — مصر أمة حرة :

* كان كفاح مصر ضد الحماية البريطانية طويلا ومعقدا ، فقد عارض الشعب المصرى الحماية البريطانية فور اعلانها مباشرة ، فلم يلب نداء التطوع فى الحرب ضـــد الجيش العثمانى ، فاتخذ الانجليز اجراءات صارمة ، اذ انتزعوا الفلاحين من قراهم تاركين وراءهم أسرا تحتاج الى من يعولهـــا •• ويمضى المؤلف فى سرد أحداث الحرب وموت السلطان ، وعدم استطاعة انجلترا تنفيذ الفكرة التى كانت تراودها ، وهى ضم مصر الى الامبراطورية البريطانية ، ولذا فقد وافقت على تعيين أحمد فؤاد سلطانا على مصر ، وقيام ثورة ١٩١٩ م واعلان الدستور والملكية ، وتعاقب تشكيل الوزارات المختلفة ، واعلان استقلال مصر فى معاهدة ١٩٣٦ م مع احتفاظ الانجليز بحق مرابطة قواتها فى منطقة قناة السويس • وبين فى معرض حديثه عن المجتمع والأحزاب أن الاختلاف الطبقى فى الحزب الذى قاد البلاد سياسيا كان كبيرا ، فقد ضـــم الحزب مجموعة من الاقطاعيين والأثرياء بجانب الفقراء المعدمين ، ولم يفكر أعضاء الحزب فى برنامج يقضى على هذه الفوارق

الكبيرة ، ولكن جماعة الاخوان المسلمين هى التى نادت بالاصلاح الاجتماعى القائم على الأسس الاسلامية .

* تبوأ بعض علماء الأزهر مكانة الزعامة الدينية ، فكان ينظر اليهم على أنهم نواب الشعب ، يعبرون عن آماله ، ويرفعون شكواه الى المسئولين ويطالبون بحقوقه وليس هناك شك فى أن مصر تزعمت العالم الاسلامى بعد انهيار الدولة العثمانية ، وأن برامج الاصلاح التى أعلنت — بعد عزل الجيش بقيادة اللواء محمد نجيب الملك فاروق — تقوم فى أغلب بنودها على أفكار الاخوان المسلمين فى مجال تحقيق العدالة الاجتماعية . بين أفراد المجتمع . وهذه عوامل كان لها أثر بالغ فى تقوية مركز مصر الاسلامى .

* * *

٢٤ — النضال ضد وصاية القوى العظمى :

* انشغلت كل البلاد العربية فيما بين الحربين العالميتين بمقاومة اقليمية ضد وصاية القوى العظمى ، فقد فشلت الفكرة الخيالية التى كانت تستهدف قيام دولة عربية كبرى تضم كل المناطق العربية ، على صخرة الواقع السياسى الذى أرغم كل قطر عربى على اتخاذ طريق طويل مختلف عن الآخر ، أدى الى قيام دويلات عربية ، مستقل بعضها عن بعض .

* أخذت سوريا طريقها فى وقت مبكر للتخلص من القيود الأجنبية بعد الحرب مباشرة ، وذلك بتنصيب فيصل — أحد أبناء الشريف حسين ، أمير مكة — ملكا عليها ولكن قضى على هذه الرغبة بطريقة مهينة ، اذ عندما باشرت فرنسا حمايتها بعد الحرب مباشرة على سوريا ولبنان ، طردت « الملك » من البلاد . ثم تولت السلطات الفرنسية تسيير شئون الدولة فى ظل الأحكام العرفية التى أعلنت عند اندلاع الحرب ، وبقيت سارية المفعول بعد انتهائها . سارت الأمور سيرا حسنا حتى عام ١٩٢٥ حينما انفجر غضب الشعب فاندلعت الثورة مبتدئة بالقبائل الدرزية ، ثم عمت جميع أنحاء سوريا ولبنان ولم تستطيع فرنسا اخمادها الا بعد أن تلقت مساعدة من الحلفاء واستخدمت الطائرات فى قمعها .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث ما بعد الثورة حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول سوريا على الاستقلال الكامل فى عام ١٩٤٦ كذلك تناول — بالتفصيل — المقاومة

الوطنية فى العراق ضد الحماية الانجليزية ، وحصـــول العراق على استقلاله فى أوائل الثلاثينات ، وقبوله عضوا فى عصبة الأمم المتحدة والامتيازات التى حصلت عليها انجلترا فى العراق أثناء الحرب العالمية الثانية بفضل صداقتهم لنورى السعيد .

* * *

٢٥ — فلسطين والجامعة العربية :

* اصطدمت مســألة فلسطين داخل العــالم العربى بصخرة عاتية ، فقد تعارض فرض وصاية بريطانيا على هذا البلد — وهو عربى بحكم القانون الدولى — مع الوعد بانشــاء وطن قومى لليهود ، فعلى الرغم من أن وثيقة هذه الوصاية لم تتضمن وعدا باعطاء اليهود حقوقا خاصة ، الا أن الحركة الصهيونية بذلت جهدا كبيرا فى سبيل الوصول الى هدفها ، فحاولت — ما أمكنها — دفع اليهود المبعثرين فى العالم الى الهجرة الى فلسطين ليكونوا محور وأداة قيام الوطن القومى اليهودى . ازداد عدد المهاجرين الى فلسطين عاما بعد عام — وخاصة بعد ظهور الاتجاه النازى المعادى للسامية — فغضب الســكان العرب وثارت ثائرتهم . وعندما رفضت سلطات الانتداب فى عام ١٩٣٥ طلبهم وقف هجرة اليهود الى فلسطين أعلنوا الاضراب العام ، وظلت الثورة العارمة متأججة بين صفوف العرب على امتداد ثلاثة أعوام ، فلم يستطع البريطانيون السيطرة على الموقف الا بشق الأنفس . فقد كان الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين هو الزعيم الروحى لهذه الثورة ، استمدوا منه قوتهم واستمرارهم فى مقاومة المخطط الصهيونى وعلى الرغم من نفى الانجليز له خارج البلاد فقد استمرت القلاقل وفشلت جهود بريطانيا فى اقناع الطرفين بقبول مبدأ المصالحة حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية .

* وكانت خيبة الأمل فى السياسة البريطانية فى فلسطين دافعا قويا لانحياز مفتى فلسطين الى جانب هتلر ، ومحاولته تقديم مساعدة لقواته فى شمال أفريقيا ، ولكن انتصــار « مونتجمرى » ضيع على المفتى كل أمل كان ينتظره من انتهاج هذه السياسة .

* شغلت الحرب العالمية الثانية القوى العظمى ، فلم تتدخل الحرب العالمية الأولى ، فلم تورط نفســها ، وبريطانيا انشغلت فى فى شئون دول الشرق الا بطريق غير مباشر ، فتركيا تعلمت من درس

البلاد الواقعة تحت سيطرتها بتدريب القوات وارسالها الى جبهات الحرب، وايران — بحكم علاقتها مع روسيا — اضطرت الى السماح بانزال قوات الحلفاء فى أرضها ، ولم يكن لدى العالم وقت يسمح له بالاهتمام بمشاكل العرب الداخلية •

✻ أعقب الهدوء المفروض بقوة السلاح نشاط كبير نتج عنه قيام « الجامعة العربية » فاختيرت القاهرة مقرا لها ، وكان أعضاؤها فى بدء تكوينها هم : مصر ، وسوريا ، والأردن ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وانضم اليها فيما بعد ليبيا والسودان • وكان الهدف من هذه المنظمة تبادل المساعدات دون المساس بحق استقلال كل قطر عن الآخر ، والعمل المشترك فى مجال الاقتصاد • وهكذا ظهر على المسرح الدولى كتلة دولية ، فهى وان كانت لا تقاس من ناحية القوة بالكتل العالمية الأخرى • الا أن قيامها كان شعلة نشرت ضوءها على العالم العربى والاسلامى : سياسيا وفكريا ، ولعبت دور السند والمعين للمستعمرات الأفريقية فى كفاحها على طريق الاستقلال •

✻ هذا هو الوجه الخارجى للجامعة العربية ، أما الداخلى فقد دارت فيها بعض مناورات ومصادمات صغيرة فى مجال محاولة فرض الوصاية عليها ، وعند النزاع على مناطق اقليمية ، وازاء المشاكل الاقتصادية ، اذ لم تظهر التناقضات فى مجال النزاع على الحدود أثناء الحكم العثمانى واضحة ولكن بعد سقوط الخلافة ، لم تظهر النزعات القومية الاقليمية فقط ، بل أصبح التفكير فى قيام دويلات مستقل بعضها عن بعض واضحا ، كما ظهرت انقسامات حادة داخل الأقطار بين الشعوب والملوك ، وبين الشعوب والحكومات ، وبين الطوائف المختلفة الآراء والاتجاهات داخل المجتمع الاسلامى •

✻ نسى العرب خلافاتهم أمام مواجهة العدو المشترك : اسرائيل ، ولكن الجامعة العربية فشلت فى أول امتحان لها فى مجال الصراع العربى الاسرائيلى ، ويرجع فشلها الى عدم الجدية فى مساندة أعضائها بعضهم البعض ، كما يرجع الى الضعف العسكرى اذ بينما كانت تحصل اسرائيل على الأسلحة من كل بلاد العالم — على الرغم من حظر الأمم المتحدة توريد الأسلحة الى المنطقة — اعتمد العرب على أنفسهم فقط فلم يتلقوا مساعدة من أحد ، حتى بريطانيا نفسها ، لم تمد لهم يد المساعدة •

* تسبب الضعف الداخلى والخارجى فى شل حركة الجامعة العربية ، فلم تستطع القيام بالدور الذى كان يأمل بعض السياسيين أن تقوم به ، غير أن وقوع معظم أعضائها فى القارة الآسيوية ، صنع منهـا — ككل — أداة ربط فى منظمة الدول « الآفروآسيوية » ولهذا بدت — رغم التناقضات الداخلية — فى مجال السياسة العالمية ، كما لو كانت قوة ثالثة ، تغمز باحدى عينيها للشرق ، وبالأخرى للغرب للحصول على مكاسب من كلتا الناحيتين •

* * *

٢٦ — أمل العالم الاسلامى فى عودة مجده العالمى القديم :

* ليس غريبا أن يقابل كل تدخل بشىء من الشك والارتياب ، بعد ما قاست الدول كثيرا من المتاعب فى سبيل الحصول على استقلالها ، فقد أرادت الدول أن تستقل بتدبير شئونها ، والسيطرة على ما يقوم داخل حدودها من مؤسسات ، ولهذا جاهدت فى سبيل السيطرة على شئون البترول الذى يمثل الانتاج العربى منه ربع انتاج العالم ، كذلك بدا الخطر واضحا من الشرق ، عندما طالب الشعب فى ايران بتأميم البترول اذ كادت الجماهير المنادية باتخاذ هذا الاجراء أن تدفع البلد الى أحضان الوصاية السوفييتية ، لولا أن حالت بريطانيا والولايات المتحدة دون وصول السوفييت الى الغاية التى لم تغمض أعينهم عنها لحظة ، ألا وهى تحقيق أطماع روسيا القديمة فى ايران • كذلك دخلت الولايات المتحدة بعد الحرب بثقلها فى المنطقة ، فقـامت بالدور الذى عجزت بريطانيا عن القيام به ، بعد خروجهـا منهكة من الحرب العالمية الثانية •

* تشير ظواهر الأحداث الى أن لدى مصر أسبابا تدعوها الى الوقوف ضد سياسة الولايات المتحدة ، فهى وان ساعدتها على استعادة قناة السويس الا أنها وقفت أيضا بجانب اسرائيل • ودافعت عنها ، فكانت بمثابة شوكة فى جنب العلاقات مع العالم الغربى • ولهذا فليس غريبا أن ينظر العرب الى كلتا القوتين العالميتين بحذر •• وأن يراقبوا أخطارهما بعين مفتوحة ، ويساوموا للحصول على ما ينفعهم من كلتا القوتين •

* تطمع كل الدول الاسلامية فى الوصـول الى الاسـتقلال الاقتصادى ، وتكوين قوة سياسية تمتد من الشاطىء الشرقى الافريقى حتى الشرق الأقصى ،ولذا فهى تحتاج الى الخبرة الأجنبية للكشف عن

مواردها الاقتصادية واستغلالها ، وتأمل فى تكوين « كومنولث » اسلامى ، وقد أعلنت عن ذلك مرارا فى مؤتمرات اقتصادية ، عقدت فى كراتشى وطهران واشتركت فيها كل البلاد الاسلامية ، معلنة عزمها وتصميمها على العمل المشترك فى المجال الاقتصادى داخل اطار التعاليم الاسلامية •

* يتجه الترابط الدينى بين الشعوب الاسلامية — داخل اطار التحول الحضارى — الى اعادة المجد العالمى القديم ، فقد ارتفعت أصوات فى آسيا تنادى بتطبيق أحكام القرآن ، ففى باكستان ، تلك الدولة التى أعلنت الاسلام دينا رسميا للدولة يحاول المسلمون تطبيق أحكام القرآن للنهوض بالمجتمع ، فهم يتخذون القرآن أساسا لنهضتهم الحضارية ، كذلك طبعت جماهير الشعب فى اندونيسيا الدولة بطابع اسلامى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى تبذلها بعثات التبشير المسيحية فى ظل ضمان حرية العقيدة التى كفلتها الدولة للجميع كما يعيش الناس فى أفغانستان طبقا لتعاليم القرآن فى ظل دولة اسلامية ، حتى فى الفلبين والصين واليابان ، يعيش ملايين المسلمين ، وعلى الرغم من أنهم أقلية ، فهـم لا يكفون عن التفكير فى محاولة تطبيق أحكام القرآن — ما أمكن — فى شئون حياتهم •

* انضم شمال أفريقيا الى الجامعة العربية ، وأسهمت دوله فى الحركة الاسلامية الجديدة ، كما يعيش ملايين المسلمين فى أفريقيا السوداء ، ولهم نشاط ملحوظ فى تأييد ودعم الاتجاه الاسلامى • فاذا خرجنا من هذا الحزام الاسلامى فى افريقيا وآسيا قابلنا قوى اسلامية أخرى ، تركها الحكم العثمانى فى دول البلقان : يوغوسلافيا وألبانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، اذ يرى المرء معالم الطابع الاسلامى بين شعوب هذه الدول ، وبخاصة يوغوسلافيا ، ويلمس تعلقها عاطفيا بما يجرى فى البلاد الاسلامية كذلك يعيش داخل حدود الاتحاد السوفييتى أكثر من عشرين مليون مسلم ، يمارسون الآن عباداتهم — طبقا لأحدث التقارير — فى هدوء بعد أن اجتازوا مرحلة اضطهاد النظام الشيوعى لهم •

* لا زال الشرق الاسلامى يكون وحدة سياسية وثقافية ودينية ، على الرغم من ظهور الاتجاهات القومية المتعددة فى أقطاره منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اذ يشعر المسلمون أن ترابطهم يتجاوز حدود الدول السياسية ، فالدين — بالنسبة لهم — ليس أمرا شخصيا ذاتيا ،

ينفصل عما عداه من النظم الاجتماعية التى ترتضيها الأغلبية أساسا لحياتها داخل اطار الدولة السياسى ، بل هو القانون الأساسى الذى يشكل كل جوانب حياة المسلمين ، وعليه فمن يتحدث عن روح الاسلام ، فيجب عليه أن يراعى الوحدة الكلية : الروح أو (العقل) والطبيعة أو (الجسم) والثقافة • فحياة المسلمين التى تحكمها التعاليم الدينية تختلف عن حياة الناس خارج المجتمعات الاسلامية ، سواء فى الشرق أم الغرب ، فطبيعة المسلم ترفض المادية المجردة رفضها لانكار وجود الله •

* يتطلب التقدم الحضارى فى هذه البلاد التغلب على عقبات كأداء ، اذ يجب على سكانها أن يسلكوا طريقا آخر فى التنمية غير الطريق الأوروبى ، لأنهم لا يملكون من الصناعات ما يمكنهم من سلوك طريق أوروبا ، وفضلا عن ذلك فهم مشغولون بتغيير نظام الأسرة القديم المتخلف ، وتغيير أسلوب الحياة القبلية ، الذى ارتضى الأفراد تقسيمه الاجتماعى على أنه ارادة الله • فليس من السهل ادخال الآلة الحديثة للمساعدة فى اعادة تكوين مجتمع حر ، فقد قامت ثورة فى أفغانستان فى عام ١٩٤٨ لأن بعض النساء خلعن الحجاب ومشين فى الشارع سافرات الوجه •

* لن تدرك الجماهير فى القريب العاجل الملاءمة بين القرآن وبين النظم الحديثة فى مجال العدالة الاجتماعية ، وكذلك بينه وبين بناء الدولة العصرية ، اذ لا يزال الشرق يمر بمرحلة التفاعل والتصدع ، ويجب عليه معالجة التصدع أولا ، فهل سيكون الغرب هو الطبيب المناسب ؟ •

* سوف يجيب المستقبل على هذا السؤال !!!

*** لم يستطع المؤلف التخلص من رواسب الماضى كلية ، فهو وان أشار فى مقدمة الكتاب الى روح التعصب التى سيطرت على البحوث التى كتبت عن الاسلام ، وأنه لن يسير على منهجها ، الا أنه كان يميل فى سرده لتاريخ الاسلام السياسى الى اتخاذ الموقف الأوروبى فى مواجهة الاسلام والمسلمين ، ذلك أن ملامح التوجس والخوف بدت واضحة كلما ظهرت قوة الاسلام كعقيدة على مسرح السياسة الدولية ، فأثبتت الدولة الاسلامية وجودها فى المناطق التابعة لها اداريا ، وتحكمت فى حركة التجارة العالمية •**

* فاذا ضعف التيار الاسلامى أو اهتز سلطان الدولة ، فلم تستطع السيطرة على مجرى الأحداث دوليا ومحليا ، أرجع ذلك الى التخلف الحضارى الذى كان السبب فيه التمسك بتعاليم الاسلام . غير أن أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية أثبتت أن تخلف دول الشرق لا يرجع الى الاسلام كما تصور ذلك الأوروبيون ، فقد تخلصت تركيا — بايعاز وتخطيط من الغرب — منه ، لتلحق — كما أوهموها — بركب الحضارة الغربية لتكون دولة قوية . ولكنها لا زالت ضعيفة حتى الآن ، فهى تعانى من أزمات اقتصادية مزمنة . ولم ينقذها التعلق بأذيال الغرب ، بل ان الغرب هو الذى امتصها فقد صرح الغربيون أنفسهم بـ « أن تركيا تمر بأزمة اقتصادية لا يعرف أحد كيف تنتهى .. واذا كانت تركيا قد اكتسبت فى النصف الأول من القرن العشرين اسم « رجل أوروبا المريض » .. فانها يمكن أن تسمى الآن بـ « رجل أوروبا المحتضر » .. ويظلم الغرب تركيا حين يرجع حالتها السيئة الى « التخلف » الشرقى .. فالواقع أن ما تعانى منه تركيا فى الواقع هو مرض غربى .. فقد تبعت تركيا باخلاص أعمى « الوصفات » الغربية للتنمية الاقتصادية فى الثلاثين عاما الماضية ... والنتيجة : تضخم لا يتوقف (٦٠ ٪ سنويا) ، بطالة (٢٥ ٪) ، اعتماد على استيراد الطاقة (٨٠ ٪) والديون الأجنبية (٧ ر ١٧ مليار دولار) .

* وتحاول تركيا التخلص مثل سمكة وقعت فى شباك الصيادين من رجال البنوك الغربيين ، وخبراء صندوق النقد الدولى ، الذين لا يقبلون سوى الاستسلام بدون قيد أو شرط مهما كانت الخسائر السياسية أو الاجتماعية [١] .

* ولم يتحرر من الفكرة المسيطرة على عقول الأوروبيين ، وهى أن حجاب المرأة عقبة فى طريق التقدم الحضارى ، ولذا يجب التخلص منه .

* ونسى أن هذا ليس أمرا جوهريا فى مجال البحث عن أسباب التخلف فى المجتمعات ، اذ يرجع التخلف فى المقام الأول الى :

---

(١) جريدة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٩٧٩/٨/٧ عن : نيويورك تايمز وفينانشال تايمز .

الاستعباد الفردى والجماعى ٠

❊ وقد حرمه الاسلام ٠٠

تراخى المجتمعات وكسل أفرادها فى مجال الانتاج ٠

❊ وقد حث الاسلام على العمل ٠٠

انتشار الاختلاسات فى أموال الدولة ،

❊ والاسلام يحرم ذلك ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ الخ ٠

❊ فلو طبق الاسلام كما ينبغى — بعيدا عن التعصب الكهنوتى ، ومحررا من سيطرة أنصاف العلماء والمنافقين على تحديد مفهوم مبادئه التشريعية والتوجيهية — لدفعت عجلة التقدم فى العالم الاسلامى دفعا ، ولرفرف علم الرخاء والعدل الاجتماعى على المسلمين ٠

❊ ❊ ❊

الباب السادس

إسهام الإسلام في الحضارة العالمية

* الشرق والغرب
* اللغة العربية
* التعليم والكتب
* النهضة العلمية
* الطب في مجالي البحث والممارسة
* الأدب
* الاقتصاد والتجارة وشئون المواصلات

اسـهام الاسـلام فى الحضارة العالمية

ويشتمل على :

١ ــ الشرق والغرب :

* أسهم الشرق الاسلامى ــ فى نفس الوقت الذى أنتج العقل الأوروبى فيه الكاتدرائيات ذات الفن القوطى المعمارى ، وظهر فيه الصراع على الانفراد بالسيادة والسلطة بين القيصر والبابا ، وازدهرت فيه مثالية الفروسية ــ فى الحضارة العالمية ــ تحت ظل حماية القوة النامية منذ القرن الثامن الميلادى ــ بانجازاته الضخمة فى مجالى : الفكر والفن ، ولم يتوقف تيار التجديد والمعرفة حتى طمر التيار المغولى منبعه النقى الفياض ، لكن ما أفاضه ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر قرون مليئة بالأحداث والتقلبات العنيفة حتى عصرنا الحالى •

* لم تزدهر التجارة والزراعة والصناعة فقط فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى ازدهارا لم يتوقعه أحد ، بل تدفق تيار فكرى ، احتوى ما فى آسيا وأوروبا ، وصبه فى قلب المملكة الاسلامية ، التى هضمته ، وصاغته صياغة جديدة ، فكان هذا هو البذرة التى أنبتت الحضارة الاسلامية العربية ، فأصبحت بغداد لؤلؤة المدن فى كل بقاع العالم الاسلامى ، من الهند حتى اسبانيا ، ومن البحر الأسود حتى الجنوب العربى • حدث هذا فى عصر القرون الوسطى الأوروبى ، ولكنه لم يكن قرونا وسطى بالنسبة للعالم الاسلامى ، بل كان أسمى العصور وأبهاها ، عصر النموذج الحضارى الذى استمر ألف عام ، فأنقذ الشرق من ظلام العصور الغابرة •

* تكمن أصالة هذه الخصائص الحضارية فى العالم الاسلامى ، فلم يكن ظهور التيار الحضارى فجائيا ، يظهر ويختفى مثل الظواهر الطبيعية ، بل كان معالم حقبة عظيمة ، امتد تأثيرها الفكرى ــ حتى بعد التدهور السياسى ــ فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة ، لم تبحث كل جوانبها حتى الآن •

٢ ــ اللغة العربية :

* انتشرت اللغة العربية مع الفتح الاسلامى فى خطين متوازيين ، اذ تسبب عدم جواز قراءة القرآن الكريم الا باللغة العربية (١) فى دفع كل مسلم الى محاولة تعلمها ، كذلك كان استعمال اللغة العربية فى ادارات الدولة من عوامل انتشارها فى مناطق الدولة المتعددة ، فدخلت كلمات كثيرة منها فى لغات ولهجات الشعوب الأخرى ، وبالاضافة الى هذا فقد استعملت اللغة العربية فى مجال الدين والعلم عند الأتراك والفارسيين ، والهنود ، والملاويين • وكما اقتبست اللغات الأوروبية مصطلحات عديدة من اللغة اللاتينية واستعملت حروفها فى الكتابة ، دخلت أيضا كلمات عربية فى اللغات : التركية ، والأوردية ، والفارسية ، واستخدم الخط العربى فى كتابتها •

* وصلت الحضارة العربية الى أوروبا عن طريق اسبانيا ، فحملت معها تعبيرات لغوية ، يستعملها السكان الآن دون أن يعرفوا مصدرها ، فالأسبانيون يستعملون كلمات عربية عديدة فى لغة تخاطبهم ، كذلك تذكرنا الكلمات العربية التى تستعمل فى اللغة الالمانية • بعصر ازدهار الاسلام ، فهناك العديد من الكلمات العربية المستعملة فى كل مجالات الحياة اليومية ، وفى مجال علم الطبيعة ، فمثلا :

كلمة « Alkohol » هى الكلمة العربية : « الكحول » •

وكلمة « Sirup » محرفة من كلمة : « شراب » •

---

(١) اختلف العلماء فى جواز ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأخرى فحرمها بعضهم تحريما قاطعا استنادا الى أن الوحى هو كلام الله المنزل على نبيه باللغة العربية ، ، فاذا ترجم ذهبت عنه هذه الصفة ، لأنه ــ بعد ترجمته ــ تعبير المترجم لمعنى القرآن ، وليس هو القرآن ، لأن الصياغة اللغوية تختلف من شخص لآخر ، ولذا فهى تحمل ملامح المترجم الفكرية ، فتخرج بذلك عن دائرة الوحى ، غير أن بعضهم أجاز ترجمة معانى القرآن الكريم ويعتبرون ما ترجم الى اللغات ــ عن طريق المستشرقين ــ انما هو ترجمة لمعانى القرآن وليس لنصه ، وعليه فلا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية الا على اعتبار أنها ترجمة لمعناه ، وبقصد التعليم ، لا للتعبد ــ لمن عجز عن تعلم اللغة العربية ، فهو يقرؤها لمعرفة ما فيه من أحكام وتشريع • هذا فى غير الصلاة ، أما فى الصلاة فالراجح عدم جواز قراءة الفاتحة الا باللغة العربية •

وكلمـــة « Damast » مأخوذة من كلمة : « الدمقس » •

وكلمـــة « Maguzin » من كلمة « مخزن » •

وكلمـــة « Gitarre » من كلمة : « قيثارة » •

وكلمـــة « Algebra » هى كلمة « الجبر » •

والكثير غيرهـــا •

* قدمت اللغة العربية للعالم خدمة جليلة • فى مجال المعرفة ، فهومدين بالشكر للدور الذى قام به العرب فى حفظ الثقافة الاغريقية • فقد بدأ اهتمام العرب بما أنتجته الشعوب — سواء كانت خاضعة للدولة الاسلامية أو مجاورة لهـــا — فى العصر العباسى ، حيث ترجمت العلوم والمعارف من اليونانية والفارسية — ومن الهند أيضـــا — الى اللغة العربية ، وكان الاهتمام الأكبر فى الترجمة منصبا على ما دون فى اللغة اليونانية فى مجالات الرياضة والفلك والجغرافيا والطب ، فأوصل ذلك الى الاهتمام أيضـــا بالفلسفة وعلوم الطبيعة •

* لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة لفقدنا كثيرا مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف اليونانية — أو لتأخر على الأقل انتفاعنا به دهورا طويلة — فما لم يصلنا مباشرة من اللغة اليونانية أخذناه مما ترجمه العرب الى اللغة العربية • غير أن الاهتمام بالحضارة اليونانية كان من الدوافع القوية لظهور حضارة عربية اسلامية أصيلة ، اتخذت بغداد مركزا لهـــا ، تلك المدينة الزاهرة — فى وقت كان ظلام العصور الوسطى مخيما على أوروبا — التى اجتمع فيها التجارة والسياحة مع تبادل الأفكار والفنون والعلوم ، فبدت فى منتدياتها معالم الثراء ، وفى قصورها أبهة العظمة والسلطان •

٣ — التعليم والكتب :

* تطور نوع خاص من طبقة الاقطاع فى المملكة الاسلامية تطورا كبيرا جدا ولكن الشعب على اختلاف طبقاته لعب دورا مهما فى الحياة الثقافية ؛ ولا يمكن أن يحدث هذا الا فى حالة انتشار التعليم انتشارا واسعا ؛ فقد تسابق كل من المذهب السنى والشيعى فى كسب المزيد من الأتباع فى المجتمع الاســـلامى ؛ فأدى ذلك الى بذل الجهد فى كلا

المذهبين لانشـــاء مدارس لتعليم الناس مبادىء المذهب واتجاهاته وعليه فقد انتشرت المدارس منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الاسلامى من اسبانيا عبر شمال افريقيا حتى بلاد فارس ، والتحق بها الأطفال من سن السابعة ، وكانت مواد التعليم فيها : القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، ثم يختار الطـــالب بعد ذلك مواد أخـــرى مثل : تحسين الخطوط ، والعلوم الدينية والحساب والشعر ، ثم أنشئت فيما بعد مدارس لاعداد الدارسين لتولى مناصب مختلفة فى أنحاء الدولة فكان مستواها عاليا •

* واختير للتدريس بها علماء مشهورون ، وكانت المدرسة النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥ م نموذجا يحتذى فى كل ما أنشىء بعدها من مدارس ، سواء فى اعداد سكن خاص للدارسين ، أو فى المواد التى كانوا يدرسونها وهى : العلوم الدينية ، وعلوم اللغـــة العربية ، والفقه والتاريخ والطبيعة من زاوية اتصالها بالدين • انتشرت المدارس المماثلة لهذه المدرسة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وكان عدد المقبولين فيها محدودا ، حصل المتفوقون منهم على منح دراسية •

* أمدت المدارس العليا التى أنشئت فى قرطبة و « سيفيلا » و « توليدو » •• باسبانيا الحياة الثقافية الأوروبية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة ، وبدأ هذا بترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية فقد أنشىء لهذا الغرض مدرسة للترجمة فى « توليدو » فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، فضمت مكتبتها العديد من المراجع العربية التى أعدت للترجمة الى اللاتينية • وجدير بالذكر هنا أن اللغة العربية كانت فى ذلك الوقت لغة المثقفين •

* تعلم العرب صناعة الورق من الصينيين بعد فتح سمرقند فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، فأنشىء فى بغداد مصنع للورق ، ثم انتشرت هذه الصناعة فى غضون ستة قرون عبر شمال أفريقيا واسبانيا وفرنسا حتى وصلت الى انجلترا ، الا أن تجارة الكتب ازدهرت فى بغداد منذ نهاية القرن التاسع الميلادى ، فربح العلماء والطلاب كثيرا من نسخ الكتب ، لكن المؤلفين لم يتقاضوا أجرا على ما ألفوه •

* أنشئت المكتبات فى المساجد ، كما ضمت المدن الكبرى دورا

للكتب العامة كان يقصدها الجميع للاطلاع عليها وعلى ما يريدون ، كما حرص الأغنياء على اقتناء الكتب للفخر والمباهاة ، وأنفق العلماء أيامهم فى دراستها مع تلاميذهم .

* يرجع الفضل فى استمرار اللغة العربية وتبوئها مكانا مرموقا بين لغات العالم الى الجهود الجبارة التى بذلهـا العلماء فيما أرسوه من بناء فى مجال النحو والمعاجم اللغوية ، والعلوم الانسانية ، ودوائر المعارف ، وكان العصر عصرا ذهبيا أيضا للمؤرخين ، الذين ندين لهم بالشكر على ما سطروه من أحداث المملكة الاسلامية وما سجلوه لنـا عن حياة الفلاسفة والعلماء ، وأخبار الملوك وكبار رجال الدولة ... وقد قام ابن النديم بأصعب عمل ، حيث سجل الكتب والمصنفات التى كتبت باللغة العربية .. اذ أنتجت الحركة العلمية الواسعة كثيرا من الكتب لم يصل الينا منها الا النذر اليسير ، فما أكثر مـا اختفى منها فطواه النسيان .

٤ — النهضة العلمية :

* انتقلت المعارف اليونانية الى المسلمين عن طريق الترجمة ، فقد اهتم الخلفاء بالحصـول على الكتب الطبية والرياضية من قصر القيصر البيزنطى عن طريق ارسال رسلهم الخاصة لهذا الغرض . وقام الطبيب النسطورى حنين بن اسحاق ومساعدوه بترجمة معظم مؤلفات « جالينوس » وتلامذته من السريانية الى العربية وكذلك أهم مؤلفات « أفلاطون » و « بقراط » و « أرسطو » فلم يأت منتصف القرن التاسع الميلادى الا وقد ترجمت مجموعة كبيرة من المراجع اليونانية فى الفلك والطب والرياضة الى اللغة العربية .

اهتم المسلمون اهتماما كبيرا بالمعارف اليونانية فى مجال الطبيعة ، ومالوا فى مجال الشعر الى الفارسيين ، ولكنهم اكتشفوا معارف هندية أيضـا بجانب العلوم اليونانية فى مجال الهندسة فقد أخذوا العشر والصفر من المؤلفات الهندية الهندسية . وفى مجال الجبر — الذى يعرف فى اللغات الأوروبية باسمه العربى — توصل بعض علماء المسلمين فيه الى أشياء تنم عن عبقرية المسلمين فى هذه الأبحاث ، اذ توصل محمد ابن موسى الخوارزمى (٧٨٠ — ٨٥٠ م) من الأعداد الهندية الى رسم لكتابتها ، كان أساسا للرسم الأوروبى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل

الجدول الفلكى الذى وضعه — وكذلك جدوله فى حساب المثلثات والمربعات المتساوية — المرجع الوحيد لعدة قرون • كما عرفت أوروبا حياته عن طريق ما ترجمه « Gerhard von Crimona » فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فدخلت مصطلحات علم الجبر الى أوروبا عن طريق هذه الترجمة ، وهو ما ينم عن عبقرية فى مجال علم الحساب الفلكى •

* ترجم « جرهارد فون كريمونا » — وقد أقام فى « توليدو » باسبانيا وتعلم اللغة العربية — ما يقرب من مائة مرجع علمى من العربية الى اللاتينية ، ومن بينها « مبادىء الهندسة » و « اقليدس » ، و « المجسطى » لـ « بطليموس » ومؤلفات البطانى ، وأرشميدس ، والفارابى والخازن • ويرجع الفضل فى دقة حساب دورات كواكب الفضاء : الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى لأبحاث البطانى •

* اختبر كثير من الفلكيين الذين كانوا فى خدمة الخليفة المأمون النظرية البطليموسية فى هيئة الأفلاك ، فأثبتوا خطأها ، ووصلوا الى ما يؤكد أن مواقع الشمس وقطرها يتغيران ، وأن كسوف الشمس وخسوف القمر يقعان فى أزمان محددة ••• ويمضى المؤلف فى بيان أن المسلمين قطعوا شوطا كبيرا فى أبحاث الفضاء ، فكان عندهم الأدوات الهندسية مثل الزوايا والدوائر وتربيعها •• و •• و •• الخ وظل الشكل الاسلامى لحساب الدوائر مستعملا فى أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى •

* ولما كان اتساع المملكة سببا فى تنشيط حركة التجارة شرقا وغربا ، تطلب ذلك معرفة الطرق والالمام بمسطحات الأرض ، فأدى ذلك الى البدء فى رسم الخرائط الجغرافية ، ووصف طبيعة البلاد • فقد وصف العرب فى عام ٨٥٠ م — أى قبل أن يكتب « ماركو بولو » مؤلفه عن الصين بعدة قرون — عادات الصينيين وتقاليدهم الاجتماعية ، اعتمادا على ما رواه أحد التجار العرب بعد رحلة قام بها الى الصين •• كذلك عرف العرب الكثير عن الهند وسيلان والصين مما كتبه الرحالة العرب ، كما ضم فتوح البلدان الذى كتب فى القرن التاسع الميلادى وصفا للمملكة الاسلامية بجانب ما سطر فيه عن كثير من البلاد والمناطق الأجنبية • وبعد مرور قرن آخر كتب محمد المقدسى أهم وأشهر مرجع فى الجغرافيا العربية • أما التاريخ فقد دونوا فيه المراجع الضخمة وعلى رأسها كتاب الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » الذى دون فيه أخبار العالم من البدء حتى عام ٩١٣ م ••

* لم يكن عند المؤرخين وكتاب السيرة نظرة فاحصة لما يسجلونه من أخبار ، فقد كانوا دوائر معارف ، ولكن لم تؤد بهم غزارة مادتهم الى نظرة شاملة ، تجمع شتات ما تناثر فى صورة كلية ، اذ دفعهم ولوعهم الخيال الى خلط الأساطير بالحقائق التاريخية .

* كان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) نموذجا للعالم ذى المكانة العالمية فى تلك الحقبة التاريخية ، فقد عاش فى كنف الأمير محمود الغزنوى — فى المنطقة التى تعرف الآن باسم أفغانستان — فاستطاع بمكانته العلمية أن يحمل الأمير على الاقتناع بما يبديه من آراء وتقديم المساعدة له لمواصلة البحث والاختراعات ، لأن محمود الغزنوى اشتهر بانجازاته الضخمة فى الجانب الحربى ، الا أن أعماله فى الجانب السلمى ملأت العديد من كتب العلماء ، ثم يمضى المؤلف فى بيان جهود البيرونى أثناء مصاحبته لجيش محمود الغزنوى الى الهند فى تسجيل ما رآه فى الهند من حضارة ولغات وأجناس وطقوس وعبادات ، ونشر هذا فى عام ١٠٣٠ م ، ومن الموضوعات التى اهتم بها أكثر من اهتمامه بالمسائل السياسية الدين والأدب والفلسفة ولا يقل ما سطره فى هذا الكتاب فى مجال الفلسفة عن نظيره فى الفلسفة اليونانية . كما أبدع فى مجال الفلك والرياضيات ، فكان من أشهر علماء ذلك العصر ، الذى لم يقتصر العلماء فيه على مجال علمى واحد ، بل انشغل معظمهم بعدة مجالات ، فكانوا دوائر معارف ، فالكندى الطبيب كتب عن انكسار الضوء ، كما كان يعتبر أول فيلسوف عربى . كذلك الرازى الذى اتجه كطبيب الى البحث عن أسباب بثرة الجدرى والحصبة أثبت جدارة فى مجالات : الكيمياء وعلوم الدين والعلوم الفلكية والفلسفية .

* اعتمدت كل نظريات علم النجوم فى القرون الوسطى على أبحاث الكندى فى مجال الفضاء ، اذ بعد ما ضعف مستوى الأبحاث فى هذا المجال بعد تحول الدولة الرومانية الى المسيحية انتقلت هذه المعارف الى العرب عن طريق بيزنطة ، وفى نفس الوقت تخلت أثينا عن موقعها كمركز للأفلاطونية الحديثة . فانتقلت المراكز العلمية للرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة الى فارس ثم انتشرت فى جميع أرجاء العالم الاسلامى . وعبر سوريا انتقلت انجازات عصر قياصرة الرومان والعصر الاغريقى فى مجال علم النجوم الى الغرب ، فأصبحت بعد ترجمتها علوما عربية ، تناولها العلماء بالبحث والتمحيص . فزادوا فيها ، وصححوا

ما أثبتت الأبحاث أنه خطأ فقد كتب الكندى عن اشعاعات النجوم التى لها تأثير قوى على كل الكائنات الحية •• ويمضى المؤلف فى بيان ما توصل اليه الكندى فى عالم النجوم مؤكدا على عروبته — أى أنه ينحدر من أصل عربى — ومبينا سير كثير من العلماء والمسلمين الذين ينحدرون من أصول غير عربية • وبعد أن يسرد أسماء العلماء الذين اهتموا بأبحاث الفضاء ويشرح نظرياتهم يقول : ان بغداد كانت مركزا للأبحاث الفضائية فى هذا العصر ، وأن جهود العرب فى هذا المجال دفعت علماء أوروبا فى ذلك العصر الى الاهتمام بهذا النوع من الأبحـــاث ، ثم يذكر أسماء العلماء الأوروبيين الذين تعلموا فى معاهد عربية منهم :

« جربرت فون أوريلاك » •• (تقلد منصب البابوية فيما بعد تحت اسم « سلفستر » •• الثانى ، ومات فى عام ١٠٠٣ م) اهتم بما كان يدور فى « توليدو » — ملتقى الرســل والوفود الى المعاهد العلمية العربية — من أبحاث ومناقشات ، وعلى الأخص : الرياضيات ، وعلم النجوم ، فبرع فيها لدرجة أن الشعب اعتقد أن بينه وبين الجن صلة •

* « دانيال مورلى » : درس فى « توليدو » علم النجوم العربى ، ودون معارفه التى اكتسبها من هذه الدراسة فى كتاب •

* ويمضى المؤلف فى بيان من تحدثوا فى كتبهم عن العلماء العرب وتأثيرهم على العلماء الأوروبيين ، ثم يختم الباب بقوله :

« ومن الطبيعى أن الأفكار العربية وصلت الى الشعوب الأوروبية عن طريق علمائها »

٥ — الطب فى مجالى البحث والممارسة :

* ارتفع مستوى المعيشة فى المملكة الاسلامية ، فأدى ذلك الى الاهتمام بالفرد ذلك أن الانسان لا يريد الثروة فقط بل يتمنى أن يعيش سليما معافى ، فكانت هذه الأمنية سببا فى رفع مكانة العلوم الطبية ، وفنون التمريض ، والأبحاث الكيمائية فازدهرت الصيدليات ومحلات العقاقير الطبية ، وربح تجار الأدوية ، أموالا طائلة

* وصل الأطباء المسلمون بفن العلاج الى مستوى الكمال ، أما فى الجراحة فقد تعلموها فى الغالب نظريا ، لأن رجال الدين حرموا عليهم التشريح ، الا أن المعارك الحربية هيأت لهم ظروف تطبيق ما تعلموه

نظريا عندما كانوا يعالجون الجرحى ، كمـا أخذوا بعض التمرينات العمليات فى تشريح الحيوانات •

* أنشئت أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء المملكة • وكان أشهرها « بيمارستان » دمشق ، فقد توجه اليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، وأمه الطلبة للتدريب على ما يحتاجون اليه فى امتحاناتهم كما كان فيه قسم خاص للاسعافات العاجلة •

* امتدت الرعاية الطبية الى جميع أنحاء الدولة ، اذ كان الأطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات مماثلة للقرى النائية واهتم الأطباء أيضا بعلاج الأمراض النفسية ، فلم يتجنب المسلمون المرضى ، وينظرون اليهم نظرة احتقار ، كما كان يفعل الأوروبيون معهم آنذاك ، واستمرت هذه المعاملة قرونا ، فقد ظل المريض نفسيا محتقرا فى أوروبا وكان الأوروبيون يفرون منهم كما يفرون من مرضى الجزام ، ويتجنبونهم ،كما يتجنبون المجرمين •

* كانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية، ذلك المجال الذى أصبح علم العرب الذى لا ينازعهم أحد فيه اذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الأعشاب فى علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة •

* ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب العربى ثم انتقلت عبر اسبانيا الى أوروبا ، فكانت أسس علم الطب فى مدارسهـا العليا لعدة قرون •

* ومن بين من كتبوا هذه المراجع : الرازى ؛ فقد اشتهر فى أوروبا بأبحاثه الطبية ، وخاصة ما تناول فيها مرض الجدرى والحصبة ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية وطبعت طبعات عدة على امتداد عدة قرون وكان آخرها طبعة نشرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحرصت جميع المكتبات الأوروبية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازى ، كذلك أطلق الأوروبيون على ابن سينا لقب « أمير الأطباء » فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق ؛ فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه : « القانون » الذى بلغ شهرة لا مثيل لها بعد ترجمته الى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن علم الصحة ، والفسيولوجيا ، وطرق

العلاج ، والأدوية ، وأمراض العيون وغير ذلك من المجالات التى لم يسبقه أحد فى بحثها .

* كان ابن الهيثم من أشهر أخصائى أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء ، والرؤية بالعدسات ، وأهمية الحجرة المظلمة فى عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد انتفع « روجر بيكون » و « كيبلر » بهذه الأبحاث .

* وكان أبو القاسم — الاسبانى المولد — أشهر جراح فى ذلك العصر ، فقد باشر فى عالم الجراحة أعمالا لم يجرؤ أحد من قبله على القيام بها ، كما استعمل أيضا فى الخياطة الداخلية لأول مرة نوعا لا يحتاج الى نزعه ، بل يتآكل كيماويا داخل الجسم .

* كما أحيطت شخصية الكيميائى الطبيب جابر بن حيان فى القرون الوسطى بهالة من القصص العجيبة ، التى تتعلق بتجاربه الكيميائية فى خامات الاحجار الكريمة وصبغ الجلود ، والنسيج ، وطلاء المعادن .. و .. و .. الخ . والحق أن العرب توصلوا الى أن التجربة هى أساس البحث ، وذلك هو ركيزة العلم الحديث .

* وعندما أصيب المجال العلمى فى الشرق بضربة قاضية على يد المغوليين فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، اهتم المرينيون فى أسبانيا — بعد سقوط قرطبة فى يد المسيحيين — ببعض المجالات العلمية التى لعبت دورا جوهريا فى اتساع المجالات الفكرية الأوروبية وكان التقارب الوثيق بين العقل الاسلامى والمسيحى سببا فى دفع تيار خصب عبر الطريق المفتوح بينهما الى العالم الغربى المتخلف .. الذى أسهم رجال الكهنوت والأمراء بنصيب وافر فى تجميد فكره ، وبقائه فى بحر الظلمات . بينما كان العالم الاسلامى يسطع بنور العلم والمعـرفة .

* كما نقل الانجليزى « روبرت أف شيستر » علوم العـرب الكيميائية — كما نقل كثيرون غيره مختلف العلوم والمعارف العربية الى أوروبا — من أسبانيا الى انجلترا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ومن هناك انتقلت الى البلاد المجاورة .

* وصل وطن العلوم العربية الى ذروة المجد العلمى فى القرن العاشر الميلادى ثم بدأ رجال الدين فى تقييد حرية البحث الحر ،

بحجة أن العلم أضعف العقيدة فى المجتمع ، وحجب بهاءها ، ورونقها فعجزت عن التأثير فى الحياة الاجتماعية ، كما فقد العلم مكانته عند الناس عندما أخذت سلطة حماته والمؤيدين له طريقها الى الانحدار • وهكذا مات الجذر ، ولكن فروع تلك الشجرة العملاقة أورقت وأثمرت فى ذلك العصر ثمرا طيبا فى أسبانيا — البعيدة عن الوطن الأم للعلم العربى ، موطن البذرة ، ومكان الجذر الذى أنبت تلك الشجرة — ، اذ أصيبت البلد بحمى الترجمة كما لو كان الوقت المتاح لنقل هذه العلوم النفيسة محددا بمدة قصيرة • وهكذا نقلت المادة الجوهرية من الشرق الى العلم الأوروبى ، فدفعه هذا الدعم الى التطور الذاتى •

٦ — الأدب :

* لم يعثر الباحثون فى أدب المجتمعات الاسلامية على الرواية الطويلة ، لأن شعوبها كانت مغرمة بالقصص القصيرة التى تتلى بصوت عال وتروى بين الناس شفاها فقد نالت اعجابهم روايات « بيدبا » التى ترجمت من الهندية الى الفارسية فى القرن السادس الميلادى ، ثم ترجمت فى القرن الثامن الى العربية وكانوا مغرمين أيضا بقصص ألف ليلة وليلة ، التى ترجمت أيضا من الفارسية الى العربية فى القرن العاشر الميلادى ويدل بناؤها الفنى على أنها تعتمد على أصل هندى •

* اتسعت دائرة هذه المجموعة الهندية الفارسية فى النص العربى بما أضيف اليها من قصص هارون الرشيد ، وبما دخلها من روايات مصرية ويهودية ، ثم تكون من هذه المجموعات المختلفة وحدة عرفت باسم « ألف ليلة وليلة » ، اشتهرت بعض أجزاء هذه المجموعة فى ايطاليا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم ترجمت كلها الى الفرنسية ونشرت فى عام ١٧٠٤ م وبعدها انتشرت فى أوروبا كلها ، فاكتسبت شهرة فى المنتديات الأدبية وبين عامة الشعب ، وظل كتاب « ألف ليلة وليلة » من أوسع الكتب انتشارا حتى عصرنا الحالى • ومن القصص التى لاقت رواجا كبيرا أيضا ما كتبها بديع الزمان الهمزانى ، لأنها صيغت بأسلوب شيق جذاب •

* اعتمد انتشار الأدب قبل اختراع الطباعة على فن الالقاء وحسن استماع الناس وتلك طبيعة تعمقت جذورها فى المجتمعات عن طريق التمرين الطويل •

* كان قرض الشعر دليلا على الثقافة والاطلاع الواسع فأدى ذلك الى المنافسة فى هذا المجال • منـــافسة دفعت الى خلق قصص البطولات المبالغ فيها • كما تسببت فى ابتكار الصيغ الفنية الرائعة فى الأدب • تلك الصيغ التى كان لها الفضل فى وجود الجوانب الفنية فى الشعر الأوروبى •

* جمع أبو الفرج الأصفهانى فى العصر العباسى كتابه « الأغانى » وكان ذلك فى القرن العاشر الميلادى ، وتدل مادة الكتاب — الذى بلغ عشرين مجلدا — على أن الفن الأدبى والثقافة بلغا شأوا بعيدا فى هذا العصر ، وأن الشعراء تبوأوا مكانا ساميا فى بلاد الخلفاء وقصور الأغنياء ، الا أن اهتمام الحكام وأصحاب الثروة بالشعر والشعراء ، وتلبية الشعراء رغبة من يدفعون المـــال ، هوى بالشعر من عليائه ، فأصبح موجها من خزائن الأغنياء ، لا تعبيرا عن وجدان الشعراء ، ولهذا يرى بعض النقاد أن الشعر فقد مكانته التى تبوأها فى العصر الجاهلى •

* الحرب والحب : هما الموضوعان الرئيسيان اللذان دار حولهما الشعراء وعندما هدأت موجة الفتح ركز الشعراء على الحب وقصصه وأساطيره ، فرسموا له صـــورا وردية وأحاطوها بهالة من الخيـــال اللانهائى ، وسرعان ما انتشرت هذه المفاهيم فى أنحاء العالم الاسلامى وانتقلت بعض جوانبها عبر مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا الى ألمـــانيا •• ثم تناول المؤلف سيرة أشهر الشعراء ومنهجهم فى الشعر مثل أبى نواس والمتنبى وأبى العلاء المعرى وبين اسهام الفارسيين مع العرب فى هذا المجال وفصل الحديث عن الفردوسى ، الذى قضى ٣٦ عاما فى تأليف « الشاهنامة » ، كما ألف « يوسف وزليخة » وهى تعادل فى طولها ملحمة « الالياذة » •

* لم يرفع الفردوسى بتأليفه « الشاهنامة » الأدب الفارسى فقط الى مرتبة سامية بل أضاف الى الأدب العـــالمى احدى الملاحم الشعرية الكبرى التى لا زال الشعب الفارسى يفخر بها حتى الآن • وكانت سببا فى دفعه الى الانتاج الغزير فى مجال الشعر • فقد ظهر بعد الفردوسى : الخيام ، صاحب الرباعيات التى اشتهرت فى أوروبا بعد أن ترجمهـــا « ادوارد فريتس جيرالد » •• فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، وكذلك نظامى ، الذى كانت أفكاره متعارضة

مع أفكار الخيام ، اذ بينما كان الخيام يميل الى الفجور وشرب الخمر ، كان نظامى تقيا ورعا يكره الخمر ويتجنب مواطن الريبة •

* لبس موضوع الحب فى الشعر الفارسى رداء دينيا ، فتحول الى حب صوفى ، وممن حملوا لواء هذا النوع من الشعر فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومى ، وابن الفارض •• ويمضى المؤلف فى بيان صلة الشعراء بالقصور والأغنياء ، وموضحا اتجاهاتهم ، سواء كانت فلسفية تشاؤمية ، أو دينية تأملية ، ومشيرا الى ما ترجم منها الى اللغة الألمانية وتأثيرها على الشاعر الألمانى « جوته » •

* كان انتاج الأدب الاسلامى بعد هذا العصر الكلاسيكى قليلا فى مجال الابتكار ، فقد ظل يدور لعدة قرون فى حلقة التقليد ، أما الابتكار فكان نادرا ، اذ دار الشعر حول وصف الرحلات وأسفار الأمراء ، ثم اهتم الاستعمار فى العالم الاسلامى بادخال الأدب الأوروبى الى المنطقة ولم يبدأ الاهتمام بالأدب القديم فى العالم الاسلامى واضافة مبتكرات جديدة اليه ، الا بعد ظهور النزعات القومية فى العصر الحديث •

٧ ـ الاقتصاد والتجار وشئون المواصلات :

* بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوروبا ـ سواء كانت قسسا أم أمراء ـ تنظر الى التجارة وما يتعلق بها نظرة ازدراء واحتقار ـ وظل هذا المفهوم مسيطرا عليها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ـ سيطر العالم الاسلامى على شئون التجارة فأصبح التبادل التجارى محتكرا فى أيدى المملكة الاسلامية • اذ لم يكن هناك بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود تقف مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورات الحياة ، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون المواصلات التى بلغت حد المثالية ، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة •

* بعثت كثرة الامكانات المتاحة فى مجال التجارة النشاط المحموم فى صغار التجار ، وحركت البدو لتوسيع نشاطهم فى مجال تربية الماشية ، ودفعت الفلاحين الى الاكثار من زراعة الحبوب والفاكهة

والنباتات الأخرى • كذلك شق الخلفاء القنوات ، فزرع قصب السكر والقطن والبرتقال ، فأورقت مناطق فى العالم الاسـلامى واخضرت بشكل حمل الناس على أن يطلقوا عليها جنات الأرض ، ومن تلك المنـاطق : المنطقة الواقعة بين بخارى وسمرقند ، وجنوب فارس وجنوب العراق ومنطقة دمشق •

❋ درت تجارة المعادن والأحجار الكريمة ربحا كبيرا على العالم الاسلامى ، على الرغم من تعثر عمليات استخراجها من باطن الأرض • أما الورق فقد أقيمت مصانعه منذ القرن العاشر الميلادى ، كما نشأت حرف مهنية عديدة ازدهرت تحت رعاية النقابات المهنية ، التى تعهدتها بالرعاية والتسويق •

❋ أنتجت الموصل القطن الموصلى ، كما اشتهرت مصر وسوريا وفارس بالبضائع المصنعة ، وعرفت دمشق بالدمقس ، وعدن بالصوف • تعلمت أوروبا من المسلمين صـناعة الحفر وزخرفة المعادن ، ورسم الأشكال الفنية بمادتى الذهب والفضة على البرونز فقد نشأت هذه الصناعة فى مصر ابان العصر المملوكى ، ثم انتقلت الى سوريا ومنها الى فينيسيا • كما وجد فى المملكة الاسلامية من يهتم بصناعة الزجاج والبللور والأوانى ، والسيراميك ، وأدوات العطور والزينة ، والزيت والصابون والسجاد •• الخ لأن مساحة الدولة كانت شاسعة فضمت أناسا مختلفى الاهتمامات ، ومتنوعى الأمزجة مما جعل لكل صناعة منتجا ومستهلكا • لقد تركت صناعة الزجاج أثرها فى أوروبا حيث يجد المرء فى الكنائس والمتاحف أعمالا فنية رائعة تحمل بصمات المسلمين •

❋ جابت قوافل التجارة — التى كانت تبلغ أحيانا آلافا من الجمال المحملة بالبضائع — العالم الاسلامى ، اذ كانت تخرج من بغداد الى كل اتجاه ، الى الشرق حتى حدود الصين ، والى الغرب حتى الشواطىء السورية ، فنشأت على طريق القوافل محطات لتزويد المسافرين بما يحتاجون اليه من طعام وماء .ثم تطورت هذه المحطات الى مستوطنات ، فمدن كبيرة •

❋ استقبلت السفن فى موانىء الخليج وشواطىء البحر الأبيض المتوسط البضائع المنقولة اليها من داخل البلاد ونقلها الى ما وراء البحار ، اذ عبرت نهر الفولجا الى البـلاد الاسكندنافية ، والبحر المتوسط الى أسبانيا وما وراءها • ويدل ما وجد فى الحفريات من

العملات الاسلامية على مدى الانتشار الواسع للتجارة الاسلامية فى ذلك العصر •

* أثرت الطبقة الحاكمة من التجار ثراء فاحشا ، وأصبحت حياة الترف التى كان يحياها نسبة قليلة من السكان قائمة على ازدهار الأعمال التجارية ، فقد كان المال المستثمر فى التجارة وفى أعمال القوافل يدر فوائد ربوية على أصحابه ، على الرغم من تحريمها رسميا • كذلك تسبب النشاط المالى فى خلق فرص عمل لأعداد لا حصر لها من العبيد ، ولم يكن الاسترقاق قاصرا على جنس دون آخر ، فكما ضم زنوجا من أفريقيا ، كان من بينهم أيضا أتراك ، وصينيون ، وبيض من روسيا وأسبانيا وايطاليا • وعلى الرغم من أن القرآن الكريم قصر الاسترقاق على أسرى الحرب وأبناء العبيد ، فقد تعدى الناس هذه الوصية ، فشمل الاسترقاق أناسا لم يكونوا أسرى حرب ، ولم يكن آباؤهم عبيدا ، اذ جلب العبيد بطرق شتى من جميع أنحاء الأرض ، حتى كثر عددهم فى المملكة الاسلامية وسببوا لها بعض المتاعب فقد كانت ثورتهم فى عام ٨٧٠ م خطرا على جميع الأنشطة الاقتصادية فى كل أنحاء المملكة •

* قامت التجارة والصناعة فى العالم الاسلامى على أساس النظام الاقتصادى الحر فأصبح المكسب المادى هدفا لكل طموح ؛ لأن الفكرة التى كانت سائدة فى المجتمع آنذاك : أن من كثر ماله ارتفع قدره بين الناس ، وعلى قدر ما يملك ينال من الاحترام •• ان من يقارن مفهوم ذلك العصر بما هو سائد اليوم فى مجتمعاتنا يدرك أن الوضع لم يتغير •

* * *

الباب السابع

الفن الاسلامى

* ملامح الفن الاسلامى الأصلية
* النسيج
* صناعة السجاد اليدوى
* فن الخطوط
* الرسومات الصغيرة
* أعمال السيراميك والخزف والفسيفساء
* صناعة المعادن
* صناعة الزجاج
* فن العاج
* فن العمارة الاسلامى
* قصور الصحراء
* الفن المعمارى فى العصور المختلفة

الفن الاســلامى

ويتضمن :

١ ــ ملامح الفن الاسلامى الأصلية :

❋ ذكر القرآن الكريم التماثيل فى معرض حديثه عن أعمــال الشيطان ، وكان المقصود من هذا ــ فى المقام الأول ــ هو التحذير من اتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله . كما جاء فى الحديث الشريف أيضا تحريم النبى صلى الله عليه وسلم على المسلمين اقامة التماثيل لأى كائن حى . وبهذا حرم الاسلام ما أباحه اليهود من تصوير الله بصورة انسان ، فرفع منزلة الله الى مقام لا يستطيع الانسان أن يصل اليه ، وبالتالى لا يمكنه تخيل صورته أو رسمها بأى شكل من الأشــكال .

❋ التزمت دوائر الفن الاسلامى بهذا التحريم الى أقصى درجة ممكنة ، فلم يجرؤ مسلم على رسم صورة الله ، اذ أن أى محاولة فى هذا المجال ، هى رجوع ــ حسب ما جاء فى الحديث الشريف ــ الى عبادة الأصنام . غير أنه ظهرت بعض الصور فى مجال الفن الشعبى بعد انتهاء القرن الأول نتيجة الوقوع تحت تأثير الثقافة الاغريقية ، وفيما بعد بتأثير الثقافة الفارسية أيضا . فقد رسمت ــ على ســبيل المثال ــ صور على الأوانى والسجاد ، فجاء معظمها فى شكل معبر جذاب . كانت هذه الأشكال بعيدة عن محيط الدين ، قصد بها جذب السياح القادمين من الغرب ودفعهم الى شرائها ، كما صدرت الى كل أنحاء العالم ، كما يحدث فى عصرنا الحالى ، لأن عدم ارتباطها بالزمن أكسبها الدوام والاستمرار عبر القرون .

❋ اذا تأملنا هذا الطراز الثابت ــ أى الذى لم يتغير بتقلب العصور والأزمان ــ فى الفن اليدوى ، لتأكد لنا أنه يتجه الى الزخرفة العامة ، ولا يعبر عن ميول الفنان الذاتية ، فقد تنازل عن التعبير عن ذاتيته فى سبيل ابراز الألوان والأشكال التى تبعث السرور فى نفس المشاهد . حتى الفن الذى يذكر بتاريخ وعصر معين لم يفقد اهتمام المشاهد وتمتعه باقتنائه ، وذلك على عكس الأعمال الفنية اليدوية فى

الغرب ، حيث يتحول نظر المشاهد من الشكل الى المضمون وملامح الفنان الذاتية ، وقد ركز العلمانى منها على ابراز المضمون لدرجة أن اتجاه الفنان فى جانب الشكل لم يفهم الا نادرا ، ان لم يظهر رفضه اياه •

أصبحت الزخرفة هى موضوع الفن الاسـلامى الذى احتفظ بقواعد ثابتة — الى حد ما — على امتداد العصور ، حتى فى رسومات السجاد التى تحتوى على صور آدمية ، ورسومات حيوانية ، نجد أن الأشكال الهندسية المتداخلة معهـا ، تلقى اهتماما أكثر من الصـور والرسومات ، لأنها ليست هى الأساس ، بل الزخرفة هى المحور الذى يقوم عليه العمل الفنى •

* لم يقتصر هذا الاتجاه على جانب دون آخر ، بل شمل جميع الجوانب اذ كان الفن مرآة الدين ، فالتاريخ بأحداثه التى لا حصر لها ، يعنى فى الاسلام معبرة الى عالم الألوهية اللازمنى • وقبول هذا المبدأ فى الأعمال الفنية ، يبرهن — أكثر من أى كتاب — على مدى تعمق العقيدة الاسلامية فى وجدان المجتمع • ومن هذا المنطلق تكونت فى كل مجالات الفن الاسلامى وحدة ، جمعت بين المبادىء الدينية ، وما يستعمله المؤمن فى حياته اليومية ، وحدة لا نعرفها نحن المسيحيين ، اذ يوجد عندنا حائط يفصل بين الفن الدينى والدنيوى ، فاذا دار حديثنا حول الفن المسيحى ، كان المقصود الفن الدينى ، أما اصطلاح « الفن الاسلامى » فهو يعبر عن المجموع الكلى للفن ، الذى أنتجته الشعوب التى تؤمن بالاسلام •

* تميز الفن الاسلامى من بداية عصره عن كل الاتجاهات الفنية فى العالم ، فقد وجه الى أهداف خاصة ، وخضع فى مجال الاستعمال للمنافسة • كذلك بذلت النقـابات المهنية المختلفة جهودها فى مجال التسـويق ، فاعتنت بجودة الصـناعة ، وراقبت تنفيذ المواصفات فى التصنيع ، فانغرست فى نفوس العمال الرغبة فى تحسين ما ينتجون فأدى ذلك الى خلق بدائع فنية ، وروائع زخرفية ، اكتسبت شهرة على مدى قرون عديدة •

* أخرج الوعى الفنى شيئا من مجال اللاوعى ، ومن هنا جاء السحر الذى شع فى فن الزخرفة الاسلامية ، اذ يحمل اللاوعى — لدى كل انسان — فى أعمق درجاته الحاسة الأصلية لتذوق الجمال •

* استلهم الفن الاسلامى أفكارا من الفن الاغريقى والفارسى والمسيحى ، ولكن ما أخذه من هذه الفنون المختلفة أعاده فى شكل اتخذ طابعا مختلفا كل الاختلاف عن مصادر هذه الأفكار الثلاثة ، اذ عبر عن اتجاه اسلامى خالص يحمل بصمات الروح الاسلامية التى تخضع لارادة الله ، الذى حدد فى اللوح المحفوظ مصير العالم ككل ، وقدر لكل كائن حى قدره على حدة ، فما يباشره الانسان من أعمال هى فى واقع الأمر منسوبة الى الله • وفى ضوء هذا الرأى يستطيع المرء أن يدرك عدم وجود الاتجاه الطبيعى Naturalismus — بمفهومنا — على الرغم من أن الشعوب الشرقية كان — ولا يزال — عندها دائما حاسة واقعية قوية •

* انحصر الاعجاب بالصور فى الأشكال التى تجنح للخيال ، وكذلك أيضا الموضوعات التاريخية ، التى قدمت لفن الزخرفة وصناعة السجاد فرصة لرسم صور فنية فى اطار أكثر حرية من التصور الخيالى •

* قد تكون أفكار الفن الاسلامى غير معروفة فى كل العالم ، أو مختلطة على بعض الناس ، ولكن يستطيع كل انسان ادراكها فى مسجد أو حتى فى النقوش العربية ، اذ تعنى كل الشعوب الاسلامية بهذا النوع من فن الزخرفة التى تستخدم رسومات الزهر والبراعم ، ولا يستطيع أى فن فى العالم اتقان هذا التناسق الموجود فى لوحات الرسوم الاسلامية •

* وبالاضافة الى هذا فقد ظهر فى رسومات النسيج أشكال هندسية وصور للانسان والحيوان ، وخطوط عربية فى أشكال زخرفية بديعة • وهكذا دخلت الآيات القرآنية والحكم والأمثال فن الزخرفة فصنع منها الفنانون لوحات زخرفية رائعة •

٢ — النسيج :

* عرف المسلمون فن النسيج من سكان المناطق التى فتحوها ، وبالذات من المصريين والسوريين والفارسيين ، فقد أخذوا منهم قواعده الفنية ، ولكنهم أضافوا اليها نمـاذج الرسومات والزخرفة ، بفضل ابتكارهم فى هـذا المجال • ظهرت رسـومات ثابتة — أى لا تزول بالغسيل أو التعرض لأشعة الشمس — على نسيج الحرير والصوف الفارسى ، وقلدته مصر وسوريا ، فتلقت المصانع طلبات عديدة لتوريد

هذا النوع من الملابس والستائر ، ولكن مدن النسيج الفارسية فاقت المدن الأخرى فى صناعة نسيج الحرير والقطن والصوف • وبعد تدمير المنغوليين هذه المصانع استطاعت بعض هذه المدن أن تستعيد قدرتها على الانتاج تدريجيا • فأنتجت المنسوجات الحريرية ، وصدرتها الى أوروبا ، كما أضافت الى الرسومات الزخرفية المحلية رسومات أخرى استنبطت من عالم الأساطير ومن المجالات الثقافية لشعوب شرق آسيا كالأفاعى والسحب ، والطائر السحرى الذى اتخذ رمزا لعودة الروح •

* بلغت صناعة الأنواع الفاخرة عصرها الذهبى فى عهد الدولة الصفوية عندما طلبت قصور أوروبا ذلك النوع المرصع بالذهب والفضة من أصبهان ، وظلت تستورده منها ابتداء من عام ١٥٠٢ م على امتداد مائتين وخمسين عاما • ثم ضاعت هـذه الصناعة • بذهاب الدولة الصفوية ، اذ كانت هزيمتها أمام الأفغانيين انهيارا لهذه الصناعة •

٣ ــ صناعة السجاد اليدوى :

* يعتبر اقتناء السجاد الفارسى عندنا علامة على ثراء وتحضر من يملكها اذ ينظر اليه على أنه من الطبقة المميزة فى المجتمع • يندرج تحت كلمة « سجاد فارسى » العديد من أنواع السجاد الشرقى المستورد من بلاد كثيرة • فعلى الرغم من أن السجاد المصنوع آليا بلغ درجة ممتازة ، الا أن خبراء السجاد لا يزالون يفضلون السجاد المصنوع يدويا ، لأنه لم يزل محافظا بقيم وتقاليد الفن الشرقى •

* احتلت عقد السجاد ــ على امتداد التاريخ ، منذ القدم حتى الآن ــ مرتبة عالية ، لدرجة أنه يوجد حتى اليوم مراكز خاصة لبحث ودراسة صناعة السجاد اليدوى ، فقد توصل الباحثون الى أن هذه الصناعة كانت منتشرة فى القدم بين البدو الرحل فى وسط آسيا ، ثم انتقلت الى منطقة الشرق الأوسط ، ويرجع أقدم ما وجد من هذه الصناعة الى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكن الباحثين لم يجزموا بأنها لم توجد قبل هذا التاريخ •• ثم يمضى المؤلف فيبين المـادة التى صنع منها السجاد وطرق صـناعته المتنوعة فى العقد والرسومات ، ومجال استعمال المصنوع •

* عندما رحل « ماركو بولو » الى الشرق الأقصى كانت صناعة السجاد مزدهرة فى الأناضول ، فكتب عنها بأسلوب ينم عن اعجابه

ودهشته عندما شاهد هذه الصناعة • ازدهر هذا الفن فى آسيا الصغرى وفى مصر — فى عصر المماليك — ، فان أقدم القطع الشرقية الأصلية بما عليها من رسومات زخرفية جاءت من هاتين المنطقتين الاسلاميتين ، اذ تحمل طابعا اســلاميا ، وان اختلفتا فى الزخرفة ، اذ بينما كان السجاد المصرى — غالبا — قطعا صغيرة ، محلاة برسومات هندسية حول دائرة كبيرة فى الوسط ذات رسومات أشبه ما تكون بالميداليات ، نرى السجاد الأناضولى — وخاصة ما صـنع فى العصر العثمانى — يميل الى الزخرفة النباتية •

❋ أخذت مصانع الدولة المقامة فى قلب المملكة الاسلامية — ومنها ما كان فى كونيا وفى القاهرة وتبريز — نماذج رسوماتها الزخرفية من كتب الرسامين ، اذ توجد نفس النماذج فى الكتب وعلى السجاجيد ، ولهذا عندما نفقد قطعة من السجاد الأصلى ، فيمكننا التعرف على رسوماتها بسهولة من الكتب ، واعادة طبعها على قطعة أخرى • أخذت أشهر الرسومات الأصلية على السجاد ، من أشهر الرسامين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فقـد كانت منافسة الألوان والأشكال فى ذلك الوقت على أشدها •

❋ وجد بجانب السجاد الفاخر أنواع أخرى من السجاد اليدوى للاستعمال الشخصى وللطبقات الشعبية ، اذ أن كل انسان فى حاجة الى سجادة للصلاة فأحدث هذا الطلب المتزايد رواجا فى صناعة وتجارة السجاد ، لدرجة أن البدو الرحل كانوا دائمى العمل فى نسج السجاد وكانوا يحملون معهم فى حلهم وترحالهم الأدوات التى يستعملونها فى نسج السجاد •

❋ ظل الشرق حتى اليوم أكبر مورد سجاد للعالم ، وكان السجاد التركى أوسعها انتشارا فى العهد العثمانى ، ولا زال مطلوبا فى كل أنحاء العالم حتى اليوم بجانب الفارسى والقوقازى •

٤ — فن الخطوط :

❋ أظهر الخطاطون قدراتهم الفنية فى رسم الكتابة العربية فى أشكال فنية رائعة بصرف النظر عن كون الكلمة العربية فى الأصل كان تركيا أو فارسيا أو عربيا ، فقد أوحت الكتابة فى حد ذاتها — ولا زالت توحى الى الآن — الى الفنانين بالابداع فى خلق اللوحات الفنية •

ويرجع السبب فى اهتمام الفنانين باستعمال الكتابة فى لوحاتهم الى تحريم التصوير فى الاسلام • فكيف يمكن للمرء أن يقترب من تعظيم كلمة الله ، سوى بذل كل ما يستطيع فى كتابتها بخط جميل بديع ••• وهكذا كانت العقيدة سـببا فى تطوير فن الخطوط فى بداية النهضة الاسـلامية •

* احتل الخطاط مكانا ساميا فى بلاط الخليفة فقد كان يكتب النصوص الطويلة من أوامر ومراسيم ورسائل دبلوماسية ، فكان خطه يبعث السرور فيمن يراه ، حتى لو كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة • ولذا كان الخلفاء فى بغداد والمماليك فى مصر يدفعون مبالغ كبيرة فى لوحات الخطوط الجميلة ، ويطلبون كتابتها بمادة ذهبية أو فضية كما رغبوا فى اقتناء الكتب التى كتبت بخط جميل •• ثم يستعرض المؤلف أشكال الكتابة المختلفة ، وأنواع الورق المستعمل فيها ، وحجمه ودرجة جودته ، ثم ذكر أن بعض نسخ القرآن المكتوبة بخط اليـد فى تلك العصور السابقة ، لا زالت موجودة فى متاحف القاهرة •

* استعرض المؤلف أنواع تجليد الكتب ، واستعمال الجلد ، والحرير فى صنعها وبين أن أنواعا عديدة من جلود الغنم والمـاعز استعملت فى تجليد الكتب فى جميع المناطق الاسلامية ، من فارس حتى أسبانيا • أخذ الفارسيون استخدام الحرير والمواد اللامعة فى تجليد الكتب من الصينيين ، كما زينوا المجلدات بالفسيفساء وبقطع من العاج •

* لم تستغرق كتابة الكتاب فقط وقتا طويلا ، بل أخذ التجليد فى بعض الحالات سنين طويلة ، اذا كان المجلد مكلفا بتحقيق رغبة ملك أو سلطان فى تجليد الصفحات المكتوبة بالذهب ، والمرصعة بالنقوش الفنية تجليدا يضفى عليها رونقا أكثر مما فى داخل المجلد •

* ولـما كانت الصور الفنية ــ بجميع أنواعها ــ عاجزة فى العالم الاسلامى عن الاقتراب من نص القرآن الكريم فى مجال فن الخطوط ، فليس من المسـتغرب أن تحتل اللوحات الفنية للآيات القرآنية مكان الصدارة فى هذا المجال الفنى •

٥ ــ الرسومات الصغيرة :

* خضع تزيين الكتب لفن رسامى الرسومات الصغيرة ، فقد

قاموا بعملهم بعد الانتهاء من كتابة النص ورسم العنوان والزخرفة الهـامشية .

* كما لم يكن عمل هؤلاء الفنانين قاصرا على ما يضيفونه فى الكتب المصورة ، بل استخدموا ريشتهم أيضا فى كتب علمية ، وكتب الرحلات . وسنحتلهم بجانب هذا العمل فرصة رسم كتابة أسماء الحملات الشهيرة مزينة بالورود والزهور ، وقد اقتصر الفن العربى فى هذا المجال على تزيين الكتابة بالصور ، أما الفارسيون فقد ابتدعوا موضوعات خاصة لهم ، استنبطوها من الأعمال الأدبية الحرة ، ومن الطبيعة وأضافوا اليها أنماطا من الحياة والمناظر الشخصية .

* كانت رسومات الصور الصغيرة فى القرون الأولى أمرا مكروها فى مجال الفن فى العالم الاسلامى ، وخاصة عند العرب بسبب نفور المسلمين من الصور ، وتردد المؤمنين كثيرا فى رسم صورة ، عندما كانت ظروف اللوحة الفنية تقتضى رسمها . ولهذا التزموا فى فنهم رسـم الخطوط المتـداخلة مع الكتابة ، وتركوا تصـوير الأشخاص للمسيحيين والمـانويين الذين اكتسبوا شهرة بين قومهم بفضل ابداعهم فى هذا المجال الفنى ومن هنا كانت الكتب المصورة التى صدرت فى القرون الستة الأولى من تاريخ الاسلام ، من عمل المسيحيين ، حتى القصور التى أقامها الأمويون ، لم يقم برسم ما فيها من صور سوى مسيحيين ويونانيين ، ورسامون عالميون جاءوا من بلاد غير اسلامية .

* استعاد الفن مركزه بعد اصابته فى الزحف المغولى ، فقد انتقل معهم — وهم شعوب آسيوية — تذوق الفن الصينى ، وخاصة ما احتوى على صور وخطوط مستقيمة ، وما أوحى باللين والتخيلات . تأثرت فارس — وهى وطن المنغوليين — بالنماذج والألوان والتراكيب الأجنبية ، فتحررت من قيد تحريم تصوير الانسان وتجاوز الرسامون الحد فى هذا المجال ، لدرجة أنهم رسموا صورة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ففتحوا مجالا جديدا فى تاريخ الحياة الانسانية ، حيث رسموا صورا خيالية لأعمال التقرب الى الله ، كما يتصورها المتصوفون .

* كانت شاهنامة الفردوسى — التى احتلت مركزا مرموقا عند الفارسيين — مرجعا للرسامين أثناء الحكم المنغولى ، ولكنهم استلهموا أيضا كثيرا من صـورهم من قصص الحب التى أذاعها الشعراء فى

المجتمع ، سواء كان ذلك فى الجانب المدنى أو الصوفى وظلت مسيطرة بصورها ولوحاتها حتى القرن التاسع عشر الميلادى •

❊ كان مركز تجمع صفوة الرسامين فى أواخر الدولة التيمورية فى هراة ، وفى عهد الصفويين فى تبريز ، فكانت كلتا المدينتين — على التوالى — مقر أكاديمية الرسم العليا التى اكتسبت شهرة واسعة ، ثم انتزعت منها هذه الشهرة مدرسة قزوين المقر الثانى للصفويين ، حيث وصلت فى القرن السادس عشر الميلادى الى ذروة مجدها فبسطت أسلوبها على البلاط المنغولى فى الهند ، ذلك الأسلوب الذى مال الى تناسق الصورة والكتابة ، مع الملاءمة بين الألوان والأشكال •

٦ — أعمال السيراميك والخزف والفسيفساء :

❊ وجد فن الزخرفة الاسلامية سوقا كبيرة فى مجال تزيين الأوانى بالسيراميك لأنها صنعت لتستعملها كل طبقات المجتمع ، وقد أمكن اعادة ما وجد فى الحفريات من أوانى وقطع زجاجية الى حالتها الأصلية ، فأعطت الأشكال والالوان التى كانت طابع الفن فى العصور الاسلامية ، ففى العصر العباسى كانت زخرفة الأوانى نماذج مبسطة تبدو فى صورة خطوط زجاجية صفراء وسوداء وخضراء ، وبروز ناتئة على سطح الزجاج الشفاف ، كما طبعت نماذج زرقاء مالطية على أرضية بيضاء •

❊ يبدو من محاولة تقليد الفن اليدوى الآسيوى — وخاصة الفن الصينى — أنه كان مشهورا فى ذلك العصر ، فقد ظهر فن صناعة الثريات من محاولة تصنيع الخزف الصينى ، ونشأ عنها أيضا صناعة الأوانى الفاخرة التى حلت فى الاستعمال محل الأحجار الكريمة المحرم استعمالها • كان فن زخرفة الأشكال الزجاجية غاية فى الابداع من ناحية الأشكال والألوان فقد بذلت محاولة ضخمة لتطويرها فى جميع المناطق ، من فارس حتى أسبانيا •

❊ كان من عادة قدماء المصريين وسكان غرب آسيا أن يكسوا الحوائط بسائل لامع ، ولكن عندما غزا الاسكندر الأكبر هذه المناطق كانت هذه الصناعة قد اندثرت وطواها النسيان ، ومن المحتمل أن نماذج الأوانى المكسوة بالطبقة الزجاجية اللامعة بعثت هذه الصناعة من جديد فى القرن التاسع الميلادى ، وخاصة فى بلاط الخلفاء فى سامراء وبغداد

ثم أمكن تحسينها بواسطة التقدم فى مجال صنع المواد اللامعة فقد استطاعوا طبع ألوان — حمراء وصفراء وسمراء — لامعة على مسطح أبيض شفاف مثل الزجاج • ومن أقدم قطع هذا اللون من الفن محراب جامع سيدى عقبة فى القيروان ، فقد صنع فى سامراء ، ولا زال محتفظا بلمعانه حتى اليوم •

* كانت النقابات المهنية آنذاك حريصة على حصر سر المهنة فى محيط أبنائها ولكنها لم تستطع أن تمنع تسربها منعا كليا ، وعلى كل فقد توصل الفارسيون الى دقائقها ، فطوروها الى أحسن فى « سلطان آباد » و « كاشان » و « الرى » ثم اخترع أخيرا الفسيفساء اللامع • ولما كانت صناعته تحتاج الى وقت طويل ومال وفير فقد استعاض عنه الفارسيون برسم دوائر دقيقة على مسطحات كبيرة بصورة تعطى الايحاء بأنه فسيفساء • وجد هذا النوع فى بلاط الشاه عباس ، كما لاقى رواجا كبيرا فى أسبانيا •

* سارت تركيا فى عهد العثمانيين فى اتجاه النهضة الايطالية ، فتحررت من النماذج الفارسية منذ القرن السادس عشر الميلادى ، ومنذ ذلك التاريخ وهى تلبى فى فنها الأذواق الأوروبية التى تأثرت بالطابع الشرقى •

٧ — صناعة المعادن :

* أنجزت البلاد الاسلامية فى مجال صناعة المعادن انجازات رائعة ، فقد اتخذ المسلمون البرونز والمعادن الخام أرضية لزخرفتهم لأنهم رفضوا استعمال الذهب والفضة امتثالا لتحريم القرآن الكريم استخدامها فى الزينة ، ولكن على الرغم من هذا التحريم فقد ذكر ابن خلدون أنهما استخدما فى قصور العباسيين •

* يبدو أن لجوء العمال الفنيين الى تطعيم المعادن كان راجعا الى ندرة وجود الأحجار الكريمة فى المملكة الاسلامية ، فقد طعم البرونز بخيوط من الأحجار الكريمة فثبتت فيها بطريقة خاصة ، يصعب انتزاعها • انتقلت هذه الصناعة من سوريا الى فينيسيا ، ومنها الى أوروبا •

* لم يتردد الصناع فى رسم صور الكائنات الحية فى زخرفة القطع المعدنية ، فقد ورثوا هذا الاتجاه عن الساسانيين فى الفرس ، وكان المسيحيون هم أول من قلدوا الفرس فى هذا المجال ، لأنهم لم

يكونوا ملزمين باتباع تعاليم القرآن الكريم تحريم رسم صور الكائنات الحية ، وهكذا ظهرت صور الحيوانات — وفى بعض الأحيان صور ذات مدلول معين من العالم العلوى — على الأوانى والأسلحة • وحوائط المنازل وكانت المباخر المصنوعة على هيئة حيوان من أحب الأشياء عند الناس ، كما وجدت الأوانى المصنوعة على صورة الحية — وعلى صور حيوانات الأساطير أيضا — فى أوروبا تقليدا لمثيلاتها المصنوعة فى الشرق ، كذلك قام الخطاطون بأعمال فنية على القطع المعدنية وخاصة على الأسلحة ، وكانت ترفع من قيمتها لو كان المكتوب عليها آية قرآنية •

* نشأ فن تطعيم المعادن فى فارس فى القرن الثانى عشر الميلادى ؛ ولكن القاهرة أصبحت المركز الرئيسى له بعد ذلك بأعوام قليلة ، فتطور فيها وازدهر ازدهارا لا مثيل له •

٨ — صناعة الزجاج :

* كانت بلاد فارس وطن صناعة الكريستال والزجاج أيضا ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الاسلامية • ويوجد الآن فى الكنائس المسيحية وقصور الأمراء التى أقيمت فى القرون الوسطى جبال من الأوانى المصنوعة فى الشرق من الكريستال والزجاج • وتنسب الأبحاث كثيرا من هذه القطع الفنية الرائعة الى عهد الفاطميين فى مصر ، وهى الفترة الزمنية المحددة فيما بين عام ٩٠٩ م ، وعام ١١٧١ م ، فقد كان حجاج أوروبا المسيحيون مغرمين باحضار قطع تذكارية مصنوعة من الكريستال على صورة حيوانات معهم الى أوروبا كما أحضروا معهم أيضا قوارير لاستخدامها فى المجالات المختلفة كأوانى للعطور والأدوية •• و •• و •• الخ •

* زينت الأباريق الكبيرة ذات المقبضين ، وأقداح الشرب ، والزجاجات (القنان) من الكريستال بصور الحيوانات كالأسد والزرافة ، وبأشكال الطيور على اختلاف أنواعها • كما وجدت أيضا أوانى زخرفت بخطوط فقط ولما كانت مادة الكريستال تعتبر من الكماليات ، فقد نافس الزجاج المجلخ فن الكريستال ، اذ غطى انتاجه الاستعمال المنزلى كالأكواب والقنان ، والأدوات المستعملة فى الكتابة ، حتى مصابيح الاضاءة المطلية بالذهب والفضة فى المساجد •

* اشتهر الصناع المهرة فى عهد الصفويين — وعلى امتداد قرون لاحقة — ، بصناعة الزجاج الملون بالألوان المفرحة ، فقد تناسقت ألوانهم الحمراء والصفراء والخضراء مع أشكال القطع الفنية ، سواء كانت ابريقا أو زهرية ، أو صهريجا للزينة أو للاستعمال •

٩ — فن العـاج :

* أعجب جنود الحملات الصليبية القادمين من الغـرب بالفن اليدوى الاسلامى فأخذوا معهم كل ما وقع فى أيديهم الى أوطانهم ليهدوه الى ذويهم أو ليطلعوهم على روعة هذا الفن • كان من بين هذه الهدايا والقطع التذكارية ، قطع فنية من العاج ، نحتها المسلمون على أشكال فنية ، بلغت درجة الكمال الفنى فكانت دقات قلب كل امرأة ترتفع من الفرح عندما يهدى لها زوجها العائد من الشرق مع الحملات الصليبية علبة مجوهرات مطعمة بالعاج • وكانت الخناجر ذات المقابض المصنوعة من العاج من الأسلحة الممتازة ، كما شع من الأبواق سحر حمل المشاهد على الاعجاب بها ، لـما فيها من العاج المنحوت بشكل فنى نادر •

* ازدهر فن العاج فى الأندلس وصقلية ثم انتشر من هناك فعم جميع بلاد الشرق الاسلامى ، كانت القطع الفنية تنتقل من هنا وهناك فجاءت قطع فنية من مناطق أخرى الى تلك المنطقتين وطن العـاج الأصلى ، لأن التبادل التجارى فى ذلك العصر كان نشطا لا يتوقف عن الحركة أبدا ، فالتجار دائمو الرحلات الى الأماكن التى تروج فيها بضاعتهم ، فحيث لا يرغب الناس فى اقتناء الأشكال المنحوتة يعرض التجار قطع الشطرنج المصنوعة من العاج ، وهكذا يرحلون ببضاعتهم الى حيث توجد الرغبة عند الناس لاقتنائها •

* تدل المهارة المماثلة لـما فى صناعة العاج فى نحت الأشكال الخشبية على التفوق الاسلامى فى هذا الفن ، اذ على الرغم من ارتفاع ثمن الخشب ارتفاعا فاحشا — فبسبب نقص الانتاج المحلى ، وخاصة فى مصر والعراق • استوردوا الخشب الهندى — لم يهملوا صناعة المنابر ومحامل الكتب للمساجد وقصور الأغنياء • كذلك ظهرت أيضا الشرفات ذات الأسـوار الخشبية فى القاهرة وبغداد ، كما صنعت الأبواب والشبابيك من الخشب وزينت بالرسومات والتماثيل المطعمة بالعـاج •

١٠ — فن المعمار الاسلامى :

* أراد الأمويون المحافظة على الاسلام كواجهة ظاهرية ، بجانب النمو فى جانب السلطة الدنيوية . ولما كانت هذه المملكة واقعة تحت تأثير الحياة البدوية التى خرجت منها فقد دارت حياتها بين مقرها فى دمشق وبين الصحراء ، اذ بينما كان الخلفاء حريصين على الجانب الدينى بجانب السلطة السياسية ، مال اخوانهم فى الدم الى الاقامة فى الصحراء ، حيث شيدوا لهم قصورا فخمة هناك . وفى هذا العصر — وهو عصر صدر الاسلام — لم يكن الفن المعمارى قد تحرر بعد من النماذج البيزنطية والمسيحية ، ويدل على ذلك التجهيزات الداخلية لهذه القصور ، وكذلك النقوش وأسلوب الزخرفة ، التى جلب لها فنانون يونانيون وبيزنطيون . وفى مقابل هذا تطور الطراز الأموى فى مجال الهيكل الخارجى المعمارى تطورا ذاتيا فأصبح طرازا اسلاميا .. ثم يمضى المؤلف فى وصف اقامة المساجد بمآذنها فى هذا العصر وزخرفتها ، ويخص بالتفصيل المسجد الأقصى وبناء قبته بأمر الخليفة عبد الملك وزخرفتها بالفسيفساء والآيات القرآنية ، ويرى أن وجوده فى المنطقة علامة على سيادة الاسلام فى مواجهة الدولة اليهودية .

١١ — قصور الصحراء :

* قلد الأغنياء الخلفاء فى الاهتمام بفن المعمار ، ومنهم من اهتم ببناء المساجد وزخرفتها . فاذا كان الخلفاء الأربعة الراشدون — الذى نفذوا تعاليم القرآن الكريم تنفيذا دقيقا — قد حرموا على أنفسهم كثيرا من متع الحياة الدنيوية خوفا من أن يبتعدوا عن الأسلوب الذى التزمه النبى — صلى الله عليه وسلم — فى حياته فلم يشيدوا قصورا ولم يزخرفوا دورا ، فان الوضع قد تغير فى عهد الأمويين ، فشيدوا لهم قصورا فى الصحراء ليستريحوا فيها من عناء السياسة والادارة ، وقد أطلق على قصر الصحراء « مشتى » .. ويمضى المؤلف فى وصف هندسة بناء بعض هذه القصور وزخرفتها وتعرض بالتفصيل لكل لوحة من لوحاتها ، كما بين معالم الفن الساسانى والرومانى ثم قال :

« كانت معالم الفن فى العصر الأموى هى الأخذ من كل النماذج الفنية الموجودة سواء كانت منحدرة من شعوب آسيا أو من اليونان أو من الرومان ، اذ يجد المرء فيه سمات الفن اليونانى والرومانى ، وفنون الشعوب الآسيوية حتى الهند » ..

١٢ — الفن المعمارى فى العصور المختلفة :

تناول المؤلف معـــالم الفن المعمارى فى كل عصر من العصـــور الاسلامية بالتفصيل مبينا أهم المعالم المعمارية من مساجد وقصور ، ومفصلا فى وصف دقائقها •• وما بقى منها وما ضاعت معالمه ، وأفرد لكل عصر بابا ، فجاءت فى كتابه على التوالى :

(ا) فن المعمار فى العصر العباسى •

(ب) بغداد المدينة الدائرية •

(جـ) الفـــاطميون •

(د) الفن فى العصر السلجوقى •

(هـ) الفن فى العصر المملوكى •

(و) الأبهة فى الدولة التيمورية •

(ز) الفن فى الدولة الصفوية الفارسية •

(ح) أسبانيا وشمال أفريقيا •

(ط) الفن فى العصر العثمانى •

ثم ختم الباب بقوله :

« كان الاســـلام بالنسبة لأوروبا — على الرغم من قربه فى أسبانيا — عالمـــا غريبا ، بل عالم المغامرين والأعداء ، وعلى الرغم من هذا فقد أمكن الاستمتاع بفنه الجميل دونما ضرر كما نقلنا عنه انجازاته الهائلة فى مجال التجارة ، ومجال الأبحاث العلمية ، ولكن ظل بين عقل الدين الاسلامى بانتاجه الخصب فى كل مجالات الحياة ، وبين الدوائر المسيحية هوة عميقة لا يمكن التغلب عليها •

❊ تدين كل البلاد — من أسبانيا حتى الهند — بالطاعة والخضوع لتعاليم الاسلام غير أن كل تفاسير هذه التعاليم اختلفت تبعا لمـــا يراه المفسر فى ضوء المتغيرات الاجتماعية التى يحياها • ومع ذلك لم يبعدهم الثراء الواسع — الذى عم بعض مناطقهم اليوم — عن تذكر الله ، بل زاد من قربهم له ، وقوى عقيدتهم فى وحى الله الواحد القهار » •

❊ ❊ ❊

الباب الثامن

الفلسفة والتصوف

* مفاهيم قديمة عن الكون
* تصور الاله
* ارتباط المبادىء
* جوهر التصوف
* آثار مسيحية فى صوفية العصر الأول
* المراتب وأصحابها
* فى مجال ما قبل الفلسفة
* أساطير عن خلق العالم
* تنوع القوى الفكرية
* معـــالم التطور فى الحضـــارة الفكرية الاسلامية

الفلسفة والتصـــوف

ويتضمن :

١ ــ مفاهيم قديمة عن الكون :

اجتك الفكر الاسلامى فى عصوره الأولى بمفاهيم وأفكار قديمة ــ وجدت منذ آلاف السنين ــ عن العالم ، نسبت الى السومريين(١) والكلدانيين(٢) فتأثر المسلمون بها ، لأن الحضارة الفكرية لم تكن قد انفصلت بعد عن الفلسفة فى هذا الوقت المبكر ، ومن هـــذه الأفكار اعتقاد الشرقيين أن الملائكة والأشباح أكبر المخلوقات الكونية ، ومن هنا كانت حياتهم بما فيها من تقاليد وأخلاق خاضعة لهذا التصور •

تحولت الأفكار الفلكية والالهية ، بما فيها من تنجيم وسحر الى تصورات عن كيفية خلق العالم ، اذ تخبر « ميثولوجيا » هذا العصر عن أن الله يجلس على كرسى فى السماء العليا • ثم تطورت فى نفس

---

(١) السومريون : شعب غير سامى ، استوطن بلاد سومر فى جنوب العراق فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، فأسسوا حضارة رفيعة ، امتد أثرها امتـــدادا واسعا ، وقد جلا الأثريون حضـــارة سومر فى جغرافيتها وسلالتها جلاء دل على فضلها فى وضع أسس النظم التجارية والمصرفية والموازين والمكاييل القانونية ، واعتماد العقود المكتوبة والأختام الشخصية فى المعاملة ، وتثبت أنها كانت فى تاريخ العالم أول من :

* عرف المركبات ذات العجلات •
* وقوم السنة باثنى عشر شهرا ، فورث تقويمها عنها : اليهود ، والفرس ، والمسلمون •
* وسن قانونا مدنيا مكتوبا •
* وجمع المعارف فى مكتبات ضمت احداها مجموعة من ثلاثين ألف لوح •
* ومن مدنهم « أور » و « أورك » و « لكش » و « تلو » •

(٢) الكلدانيون : هم سكان منطقة بلاد ما بين النهرين ، وكان يطلق على سكان هذه المنطقة قبل نزوح الكلدانيين اليها عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد « السومريون » كون الكلدانيون مملكة فيها ، بسطت سلطانها على كل أجزاء المنطقة وعندما وقعت تحت تأثير الأجانب الذين نزحوا اليها من الشمال (٢١٥٠ / ٢٠٥٠ ق•م) تمزقت الى عدة ممالك كان من بينها مملكة بابل الشهيرة •

الوقت تصورات شعبية ربطت المعارف الفلكية بالأساطير التى تحكى عما كان قبل خلق السموات ، ثم نسبتها الى أسماء الآلهة •

كانت هذه هى الأرضية التى خرجت منها الأفكار الخيالية عن تصور العالم فى المجتمع الاسلامى ، فقد كانت الفلسفة — التى تكونت تدريجيا قبل الاسلام — فى واقع الأمر هى علم النجوم ، وكان الدين عبارة عن تعاليم غامضة وأخبار مبهمة ، عن النور والظلمة مثل :

•• كان التنين حارسا لمملكة الظلمة ، فنزل اله النور غاضبا مع المد الأزرق فانحسرت مملكة الأشباح ••

كان هذا التصور هو منطلق « المزدكية »(١) و « الميترية »(٢) •• و « الغنوصية »(٣) ، كما أدت « الثنائية » فيما بعد الى انتشار عقيدة.

---

(١) المزدكية : دين فارسى قديم ، دعا اليه ذرادشت فى القرن السادس قبل الميلاد ، فكان يدعو قومه الى الاعتراف بالاله « مزدا » الذى يناضل ضد « اهرمان » ومنه خرجت عقيدة « الثنوية » وهى التى تتمثل فى الصراع بين الخير والشر ، وعليها بنى تعاليمه للناس • ومن أشهر تعاليمه : تقديس النـــار •

(٢) الميترية : جماعة كانت منتشرة فى الهند وايران ، قدست الاله « ميترا » اله النور عند قبائل الـ « هندو — أوروبية » وكانوا يعتقدون انه حامى العقود والعهود • اعترف بألوهيته زرادشت فيما بعد ، ثم تغلب على « اهورامزدا » وأصبح مساويا للشمس • انتشرت عبادته فى جميع أنحاء المملكة الرومانية ، وكان الزهاد يعتبرونه واسطة بين الانسان والخلود •

(٣) « الغنوص » أو « الغنوسيس » هى كلمة يونانية الأصل معناها « المعرفة » غير أنها أخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيا خاصا ، هو التوصل بنوع من الكشف الى المعارف العليا ، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا بأن تلقى فى النفس القاء ، فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية • وقد اعتبر الغنوصيون عقائدهم أقدم عقيدة فى الوجود • وأن الغنوصية أقدم « وحى » أوحى الله به ، فانتقل من طبقة غنوصية الى طبقة أخرى ، ولا يكف انتقاله ولا ينتهى • وهو يختلف عن غيره من العقائد الدينية بأن دائرته لا تتوقف أبدا • وقد احتفظ به مجموعة من الكهان والسحرة وتناقلوه ، معلنين أن بيدهم « مفاتيح الأسرار الالهية » و « أسرار القدس الأعلى » وأن « بالغنوص » الخلاص الأبدى ، ذلك أنه الوحى المتجدد ، والفيض الذى ينبعث دائما من الملا الأعلى • ولا نعرف بالدقة أين ظهر •• هل أتى من فارس ، أو من الهند ؟ !! » •

(د• النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ١ ص ٢٣٤) •

الحلول النورانى عند كل من الحلاج وعند المتصوفة المسلمين تقريباً •

حاولت الفلسفة الاسلامية ، تصوير عالم الأرواح ، ولم يكن هذا سوى تشخيص مفهوم « النرفانا »[١] الهندى ، وتعاليم الـ « مايا »[٢] التى مزجت تصورات فارسية ويونانية فى قالب صوفى غامض •

٢ — تصور الاله :

الله — بالنسبة للشرقى المتصل بالطبيعة اتصالا أكبر من اتصال الأوروبى بها — هو التجربة المباشرة التى يصل اليها الفرد بطريق مستقيم ، لا التواء فيه ، ويمكن أن يكون المقصود بهذا المعنى ، أن وجوده لا يحتاج الى دليل فى مرحلة ما قبل الوجود المدرك • ورغم هذا فلم تختف غريزة البحث من الانسان الشرقى ، بل كانت تلح عليه دائما ، ولم تدر المسألة فى المقام الأول حول اثبات وجود الله ، بل حول اظهار أن له السلطان على كل القوى الأخرى الموجودة فى العالم العلوى والسفلى ، فهو مسيطر على الملائكة والأرواح والأشباح •

كانت عجائب الكائنات المخلوقة واضحة للشرقيين ، ومع ذلك لم يترك علماء الطبيعة للمسلمين أى فرصة لتوضيح نواحى الاعجاز فى المخلوقات ، فكلما كشف الغموض عن معجزات الخالق فى خلقه ، كلما حصل الشعراء والفلاسفة على المزيد من الأدلة النظرية ، التى يتخذونها مادة لما يكتبونه •

---

(١) « النرفانا » : هى المرحلة التى يبلغها البوذى فى حياته على طريق التجرد والتخلص من أمانى الحياة المادية وجهالاتها ، فاذا مات بعد وصوله اليها ، تخلص من كل رباط يربطه بهذه الحياة ، واتحد مع العالم اللانهائى ، ولذا يعرفها البعض بأنها القضاء على الأنانية ، والتحرر من الهوى وسلطان النفس ، لأن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس ، ويمكن للانسان أن يكون سيد نفسه ، لا عبدا لها اذا استطاع أن يفلت من هذه الرغبات عن طريق الثقافة الروحية ، وحبه للآخرين •

(٢) « مايا » فى اللغة السنسكريتية : السحر أو الوهم والخيال وتدل فى كل الأديان والفلسفات الهندية على السلطة التى حولت العالم الى مادة ومظاهر متنوعة الأشكال والأنواع ولا يمكن أن يعود الى وحدته الأولى الا عن طريق المعرفة الخالصة للوحدة المطلقة •

أدت الملاحظة والتفكير فى كل الطبقات — سواء كانت عند قاطع الطريق أو لدى التاجر أو المزارع — الى تكوين أفكار تتناسب مع ما يقوم به من الأعمال اليومية ثم بدأ يتساءل :

•• كيف تكون القبو السماوى ؟

•• من شكل الجبال والوديان ، وأنبت الزرع ، وأنضج الثمار ؟

كذلك احتاج النور والظلمة ، والرياح والأمطار الى من يشرح أسبابها له •

أدت مصادر كل هذه الخطوات الأولى على طريق الفلسفة والتأمل الى ظهور بعض الحركات الاصـلاحية ، لكنها كانت تعميقا للعقيدة الدينية أكثر منها تفريعا واختلافا وتفريقا فى فهم النصوص المقدسة ، فهى لم تصب قلوب المؤمنين فبقيت على ايمانها وتصورها لله — سبحانه وتعالى — • ومن ثم ذابت الفلسفة فى مجال اللغويات فتقبلتها العقيدة بهذا المفهوم وظلت « الميتافيزيقيا » فى شد وجذب فى مجال تحديد الكون والوجود •

من كل هذه المسبقات خرج علم الأخلاق الاسلامى ، اذ حاول تطبيق الأخلاقيات السليمة ، وخاصة فيما يتعلق بـ « الواجب » فى المجتمع ، واتفق فى هذا مع الاتجاه مع تعاليم الدين الاسلامى •• ويمضى المؤلف فى بيان أن الحضارة التى نشأت فى ظل الاسلام ساعدت على ظهور الفلسفة ، ودفعت الى نوع من التأمل والبحث فى الكون • فاذا كانت التجربة الدينية فى صدر الاسلام قد عمقت العقيدة وصقلتها ، فان الازدهار الحضارى لم يتحقق الا بواسطة التوفيق بين مضمون العقيدة ومفهوم تصور الكون فى مجال الفلسفة ، ومن هنا كانت الفلسفة هى المقياس الأول فى أهمية التاريخ الفكرى ، ولم يشاركها القرآن الا فى جوانب قليلة جدا •

٣ — ارتباط المبادىء :

رسم محمد — صلى الله عليه وسلم — وسـار على منهجه ، واستمر فى طريقه من بعده الدعاة والمفسرون لمبدئى : بقاء الله ، وفناء كل من وما عداه من مخلوقات — للمؤمنين الطريق المستقيم فى مجالى الفرائض والسلوك العملى ، كما حذرهم أيضا من أن يخالط الشك

قلوبهم ، وطالبهم بالدفاع عن عقيدتهم ومحاربة أعداء الله • غير أنهم اضطروا فى المناقشات التى دارت فى المجتمع أن يبينوا رأيهم فى معنى الحياة ، وحقيقة الوجود ، وحرية الارادة ، وحقيقة القضاء والقدر فتزعزعت ثقة كثير من الناس فى هؤلاء المؤمنين الذين يرون أن الدين يطلب منهم الاذعان لا المعرفة ومن وظيفة العلماء المتحررين ، وكذلك أيضا الفلسفة •

لم تظهر الفلسفة فى العالم الاسلامى فى مجال البحث العلمى الا فى وقت متأخر نسبيا ، فقد أسست أول مدرسة فى بغداد فى عام ١٠٦٥ م ، ولكن وجد قبل هذا تأثير وتأثر فكرى بين علماء الغرب والشرق ، فمن فارس انتشر مفهوم « الثنائية » بين الله والشيطان منذ القرن السابع الميلادى ، ومن الهند جاء — بجانب الطب والسحر — الفن والتأمل فى وجود الظواهر الكونية مصحوبة بتفاسير خيالية ، وكان المسيحيون السوريون حلقة الوصل فى نقل الثقافة الاغريقية الى العرب ، اذ ترجمت مؤلفات يونانية فى القرن التاسع الميلادى الى اللغة العربية ، كما وجد فلاسفة الأفلاطونية الحديثة — الذين فروا من اليونان نتيجة الاضطهاد — ملجأ لهم فى المنطقة الاسلامية ، التى كان يسودها التسامح والحرية الفكرية • ومن هنا اشتهر فلاسفة اليونان عند العرب •

وكان حملة الفلسفة هم طبقة المثقفين العرب ، وعلى الرغم من أن أرسطو احتل مكانة مرموقة بين المثقفين الا أن مكانة تعاليم القرآن الكريم لم تهتز فى قلوب من درسوا الفلسفة ، أو تناولوها بالبحث والشرح ، وان كانوا قد عارضوا بعض اتجاهات المفسرين •

لا يجوز أن نقيس الفلسفة الاسلامية بمقياسنا ، فقد كانت شروحا وتعليقات أكثر منها انتاجا مبتكرا فى قضايا الفلسفة • نعم ! لقد وجدت مؤلفات عالجت المسائل الفلسفية الأساسية • ولكن يجب أن تؤخذ على أنها تعبير عن طريقة التفكير فى القرون الوسطى ، حيث كان المفكر دائرة معارف ، يعرف كل شىء •• حتى التاريخ الطبيعى • ومن هنا ارتبطت الفلسفة من ناحية بالعقيدة ، ومن ناحية أخرى بالتصوف ، ولكنها لا تفهم أيضا بدون معرفة العالم الشرقى ككل ، بما فيه الهند ، كما يجب أن تدرس الفلسفة الاغريقية قبل محاولة فهم فلسفة العالم الاسلامى •

٤ — جوهر التصـوف :

كان اتجاه الحياة الدينية الى التأثير الباطنى محركا للعواطف فى مجال عالم العقيدة الاسلامية فى كل العصور والأزمان ، واتخذ صيغا مختلفة ، اذ ظهر فى صورة رفض للحياة المـادية (زهد) ، أو فى صورة جماعات من الرجال اتخذوا أسلوبا خاصا فى حيـاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، وأطلق عليهم « صوفيون » بسبب ارتدائهم الصوف ، أو « دراويش » بسبب فقرهم .

ويخالف جوهر الصوفية الفكر المسيحى فى مقابلته بين الطبيعة والروح ، وبين الخطيئة والمغفرة ، اذ بينما يكون التغلب على بعد الله هنا بواسطة حلول الله فى مخلوق ، يرى الصوفى أن القرب يحدث عن طريق علاقة روحانية ، فيمكن أن نسمى المفهوم الغربى المسيحى « ظهور الله فى صورة انسان » ، ولكن يستطيع الله أن يقترب من عبده — حسب مفهوم الصوفى — عن طريق ملك ، فيبلغه ما يريد ، سواء كان اخبار بثواب أو عقاب ، أو كان مساعدة يحتاج اليها العبد . ومحبة الله تسرى فى جميع بدن المتصوف ، فيجد طريقة الى الله ويزداد اقترابا منه كلما زاد حبه له .

تمتع معظم الصوفيين بملكة خيالية واسعة مكنتهم من تخيل رؤية الله وملائكته ، فتجاوزوا بهذا مرحلة التصور المجرد لله ، اذ تدرجوا فى طريقهم فاجتازوا مرحلة حيث سمح لهم بالاطلاع على أسرار التجربة الصوفية فظهر لهم مكانهم الخاص فى سلسلة الرتب العليا ، واستمرت قوة الحب فى دفعهم الى التعمق فى عالم الأسرار الالهية .

يعتقد كل الصوفيين أن خلق العالم هو عمل كلمة الله ذاتها ، ومن هنا تجسدت كل الأرواح فى ملامح وجود الله (أى فى صورة الله) فهم دلائل على وحى الله ذاته ، ولكنهم يمثلون فى الوقت نفسه — اذا لاحظنا جانب وجودهم — أول درجات البعد عن الله ، وهذا هو الحجاب الأول ، اذ هم — على الرغم من وجودهم بواسطة الله — شىء آخر مختلف عن الله . ولمـا كان الله لا يقبل أن يكون بجانبه شىء غريب ، فقد اضطر الى الانسحاب منها ، فحولها الى طبيعتها الخاصة ، وهذا هو الحجاب الثانى . وبينما تأخذ الأرواح طريقها

فى النزول حتى الانسان ، يزداد بعد الله تدريجيا عن كل ما هو أرضى(١) •

يتلخص طريق الصوفية فى محاولة الرجوع الى الله عبر هذه الحجب ، ولذا يجب عليهم أن يغيروا أنفسهم ليروا بعين الله ، لأنهم بهذا فقط يستطيعون رفع الحجب عن المعنى الحقيقى لوجود الله ، ويصلون الى حضرته الالهية ، لأن الحجب ستصبح بالنسبة لهم مرايا يرون فيها الله فى هيئته الحقيقية • ولن يجدوا مدخل جنتهم الخاصة فى عالم التصوف الكامل الا بعد أن يتجاوزوا الحجب التى تحجبهم عن الله •

ومن هنا يخرج تبرير وجود الصوفيين ، فهم الوساطة بين المخلوقات وبين الخالق ، وهم « العين ، التى بها يستطيع الله أن يرى مخلوقاته » •• ولهذا يعتقدون أيضا أن العالم لا يمكن أن يوجد بدون الأقطاب المنتشرين فى الارض •• وبدون الأنبياء •

---

(١) تأثر الصوفيون فى هذه الفكرة بما أثر عن الفلاسفة من مبدأ الوساطة ، ذلك أنهم يقولون بـ « ثنائية الوجود » وبتقسيمه الى فاعل وقابل ، فاذا كانت صلة القابل بالفاعل صلة مباشرة ، أخذ القابل عنه كثيرا من صفاته ، ولما كان — الله كاملا والعالم ناقصا •

— الله متمحضا للخيرية ، والعالم غير متمحض لها •

— الله واحدا من كل وجه ، والعالم متكثر كثرة لا نهاية لها •

فلا يمكن أن يكون اتصال الله بالعالم اتصالا مباشرا ، ولهذا اخترعوا فكرة الوساطة ، وسلسلوها حتى وصلت الى الانسان ، « فهى وساطة بين فاعل وقابل ، ومسلسلة فى الترتيب — ان كانت متعددة — من الفاعل الى القابل ، ناقلة أثر الفاعل الى القابل ، نتصورها لا يكون الا على نحو أن الذى منها يلى الفاعل يكون ناقلا أثره الى ما يأتى بعده ، وهذا الذى يأتى بعده يكون ناقلا لهذا الأثر للذى يليه ، وهكذا ••• حتى اذا انتهى الأمر الى الطرف الأخير فى سلسلة هذه الوساطة مما يلى العالم ، يكون هو المتصل مباشرة به ، وهو الذى ينقل اليه مباشرة أثر الفاعل الأول •

※ واذا صورت الوساطة على هذا النحو ، فانها تصور أيضا على أن الذى منها يلى الفاعل أشرف فى الوجود ، وأعلى قيمة ، وأقل دائرة فى الكثرة من الذى يجىء بعده •• وهكذا •• اذ بدون هذا التصور الأخير ، لا يتصور ارتفاع الهوة أو تخفيفها على الأقل ، بين كامل من كل وجه وناقص ، وبين واحد من كل وجه ومتكثر كثرة لا نهاية فيها » (الجانب الالهى من التفكير الاسلامى للاستاذ الدكتور محمد البهى جـ ٢ ص ٧١ ، ٧٢) •

يتخذ كثير من خيالات المتصوفين أشكالا قديمة ، تظهر فى صورة ملك أو جبريل أو موسى ، أو محمد ، ويمثل هذا النوع من الأحداث الرمزية المعرفة التى أحدثت الخلاف بين رجال الدين وبين المتصوفين •

يرى الصوفيون الله على أنه الجمال الخالد ، كما رأوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — على أنه ظاهرة المادة الأولى ، وليس كالحتمية المطلقة التى فشلت فى الظهور فى موسى ، لأن الله امتنع عن اظهار نفســه فى شخصه •

تقول الأفلاطونية الحديثة :

« •• الله محبة ، فالحب والمحبوب متساويان •• » •

ومن هنا امتد طريق الصوفية فىعصورها المتأخرة من الحب البشرى الى حب الله ، فالحب الدنيوى درجة أولى على طريق الوصول الى الأسرار الالهية ، فتجربة الحب الالهى فى عالم الانسان الدنيوى تمتد فجأة ، وتبدو وكأنها اقتحام من العالم العلوى الى العالم السفلى • وبهذا يتم معنى ايجاد المخلوقات ، اذ هو يتحقق بالولوج فى فحوى الجمال والحب • ولمـا كان الصوفيون لا يؤمنون بالحلول المسيحى فهم لا يؤمنون بحلول الله فى الانسان كمادة ، ولكنه لم ينفصل أيضا عن المخلوقات حتى لا يصبح تصور مجرد ، كما يذهب الى ذلك رجال الدين والفلاسفة ، فنظرية الصوفيين فى خلق العالم هو الفصل فى الكون بين فاعل ومفعول •• نعم ! •• ان التجربة الروحية طريق الى الله ، ولكنها ليست وسيلة للاتحاد الذى يؤمن به المسيحيون فى مسألة خلق عيسى عليه السلام •

فحين خلق العالم من الحب ، وضع فيه الحنان الى الرجوع الى الأصل ومن هنا خلق آدم أبو البشر ، فعلى الرغم من أن المــادة الأرضية قد حجبت الأصل الالهى ، فقد ظهر مرارا على طريق الظواهر الالهية ، ولكنه بمعنى آخر غير ما يفهمه المسيحيون •• ويمضى المؤلف فى بيان أن الحب هو الطريق الموصل الى الحضرة الالهية ، ليس فقط حب الله ، بل أيضا حب الناس ، اذا كان الغرض منه أنه يرى فيه صورة الاله ، وهكذا أيضا فى كل مخلوقات الله •

٥ — آثار مسيحية فى صوفية العصر الأول :

على الرغم من أن الأبحاث أثبتت أن الصوفية الاسلامية نمت وتطورت على أسس ذاتية الا أنها احتكت فى العصر الأول بالأفكار المسيحية ، فقد عاش المسلمون والمسيحيون جنبا الى جنب فى عصر الخلفاء الراشـــدين ، وفى عهود الدولة الأموية فأخـــذ المسلمون عن المسيحيين أشياء لم يعهدوها من قبل •

حرك الرهبان المسيحيون — وهم فى صوامعهم المعزولة عن الحياة الاجتماعية — عواطف بعض المسلمين ، فناقشوهم فى مسائل دينية ، فأدى هذا الاتصال الفكرى الى أن بعض المسلمين قلدوهم فى بعض جوانب حياتهم ، وليس معنى هذا أنهم اعتكفوا فى صوامع مثلهم ، بل أخذ التفكير صورة أخرى تمثلت فى أنهم هيأوا لهم مكانا خاصا فى بيوتهم ، مارسوا فيه صلاتهم وقراءة أذكارهم وأورادهم • استمع هؤلاء المسلمون الى نصائح الرهبان المسيحيين فى هذا المجال ، ولكنهم لم يمارسوا عبادتهم على الطريقة المسيحية ، فقد كان أساس أذكارهم هو القرآن الكريم ، الا أنهم اتبعوا نصائح الرهبان فى كيفية الاستغراق فى التأمل ، أو الانفصال عن عالم الشعور بالاندماج فى اللاشعور •

احتلت أخبار وقصص الالتقاء بالرهبان المسيحيين والراهبات مكانا فى الأدب الاسلامى ، وأحيطت بهالة من الصور المغرقة فى الخيال ، أو ربما كان بعضها من اختراع التصور الذهنى ، ولم يكن له صورة فى الواقع ، مما يؤكد أن الرهبنة المسيحية كانت من دوافع ظهور الزهد فى المجتمع الاسلامى • شعر الزهاد المسلمون بأن بينهم وبين الرهبان المسيحيين صلة ، اذ تجمعهم صفة التقوى والتفرغ لعبادة الله فاعتقد بعضهم أن المسيحية الصحيحة هى ما عليه هؤلاء الرهبان ، الا أنهم لم يحرفوها ، كما حرفها بقية المسيحيين ••• ويمضى المؤلف فى بيان أثر المسيحية فى بعض ما يردده الصـــوفيون من تعبـــيرات خاصة ما اقتبس من موعظة الجبل ، لكنه أكد أن هذه العلاقة لم ترفع الخلاف القـــائم بين المسلمين والمسيحيين حول طبيعة المسيح ، فالمسلمون يتسامحون مع أصحاب الأديان الأخرى فى الحـــدود التى لا تسمح بتجسيد الله تجسيدا بشريا •

أظهر الاسلام — فى احتكاكه بمجال حضارة القرون الوسطى — خاصية فريدة ، أثارت العجب فى عالم التأثر بالحضارات الانسانية ،

ذلك أنه على الرغم من اتصاله بالمسيحيين وبالرهبان ، وتقليد الصوفيين للرهبان فى خلواتهم الروحية الا أنه — أى الاسلام — لم يهضم شيئا من التعاليم المسيحية ، فاحتفاظه بتماسكه الذى لا يسمح بدخول عقائد غريبة فى حرمه يدل على مدى قوة وصلابة الشعور بوحدة مبادئه فى العصر الأول . أدى هذا الوثوق والاعتداد بالنفس الى أن الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين اختفت فى عصر العباسيين ، وظهر ذلك أيضا عند الصوفيين ، فقد تركوا كل الأعمال الروحية التى كان يقوم بها الرهبان جانبا لأنها لم تمثل العقيدة الصحيحة .. وعندما انقطعت العلاقة بالمسيحية . بدأت حركة التصوف فى الازدهار الحقيقى ، واستخدمت ما أخذته من الرهبنة المسيحية فى تطورها تطورا ذاتيا فى العصور التالية .

٦ — المراتب وأصحابها :

تناول المؤلف مراتب الصوفية بالتفصيل ، مبينا أوصاف أهلها وخصائصهم وخضوعهم لمن هو فوقهم ، ثم ساق مثلهم المشهور :

« .. ينبغى أن تكون فى يد الشيخ مثل الجثة فى يد مغسلها .. » . لأن تعاليم الصوفية تؤكد أن الله اختاره .

وصلت المراتب تسعين درجة ، تدرجت من البداية حتى عصرنا الحالى فهم يرجعون سلسلتها الى محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وجبريل — عليه السلام — حتى يصلوا بها الى الموجود الأول ، أى الى ذات الله — سبحانه وتعالى — وبهذا يتمتع الزعيم الروحى بسلطة مطلقة وينال أصحاب الدرجات مكانتهم وهيبتهم كل حسب الدرجة التى وضع فيها .. ثم يمضى المؤلف فى شرح الطرق المختلفة فى الخلوات ، وبيان أمكنتها ، فذكر أنهم كانوا يجتمعون فى بادىء الأمر فى المساجد ثم اتخذوا أماكن خاصة لخلواتهم ، وأخيرا بنوا زوايا للدراويش حيث انفصلوا فيها عن الحياة الاجتماعية ، ومن بين ما استعملوه فى هذه الخلوات : الموسيقى والرقص على الرغم من ترفع المتقين عنها ، وتحريمهم — طبقا لرأى بعض العلماء — سماع الموسيقى ، وممارسة الرقص أو مشاهدة الراقصين . نعم ! لقد وجد من بين الدراويش من طبق تعاليم القرآن الكريم ومنهم من أهملها ، كذلك وجد فى عالمهم ممارسات دينية مختلفة ، تدرجت من قمة الفكر حتى أدنى درجات السحر والخزعبلات .

الدراويش فقراء يأكلون مما يتصدق الناس به عليهم فى صوامعهم ، وقد يبلغون فى زهدهم — أحيانا — درجة اللاشعور ، بحيث يمشون على الجمرات المتوهجة ويبلعون المسامير والأفاعى ، ويباشرون أعمال السحر • وتدل هذه الأعمال فى واقع أمرها على أنها ظاهرة غريبة على المسلمين ، جاءتهم من الأديان الآسيوية ، ومن الشرق الأقصى •

كما انتشرت زوايا الدروايش فى بلاد الاسلام ، لكنهم أصيبوا بنكسات فى العصر الحديث ، بسبب صراعهم الحزبى ، ومعارضتهم للتيار الحضارى ، وثوراتهم ضد السلطة ، اذ صدر أمر فى تركيا فى عام ١٩٢٥ بتحريم التنظيمات الصوفية ، غير أنه تكون نظام خاص للدروايش اتخذ — من حيث قيامه على أسس سياسية ، ومجموعات تبشيرية ، وأفكار اجتمــاعية — النموذج الذى أسسه السنوسى فى طرابلس طابعا له بحيث مزج جانب التصوف بما أثر عن النبى — صلى الله عليه وسلم — • سعى هذا الاتجاه الى اثبات وجوده بمحاولة تطبيق تعاليم النبى — صلى الله عليه وسلم — فى مجالات الدولة : السياسية والعسكرية والاجتماعية ، ولذا فهو مهتم بالسياسة والتجارة وتوطين البدو ، ولا زال هذا الاتجاه حيا فى تركيا •

٧ — فى مجال ما قبل الفلسفة :

ظهرت مسائل لها صلة بالفلسفة فى مجال العقيدة الاسلامية ، مثل : حرية الارادة ، والعلاقة بين ما يريده الله ، وبين ما يباشره الانسان من أعمال (أفعال العباد) ، ولم يكن الاختلاف بين دين الله الموحى به ، وبين التأملات الفكرية كبيرا فى بادىء الأمر ، كذلك كان الاختلاف ضئيلا بين الفلسفة والدين ، فاذا كان مجال العلم هو عالم الظواهر ، ومجال العقيدة عالم ما وراء المحسوسات ، فسوف يلتقيان قطعا فى « الميتافيزيقيا » — وهو ما وراء المحسوس — لأن كلا من الدين والفلسفة فى بحثهما عن الحقيقة الأولى يصلان الى نتــائج « ميتافيزيقية » •• فمن يقرأ « الميتافيزيقيا » ، لا يرى هنا تصدعا ولا تشققا • كما أن هناك ناحية أخرى تجمع بينهما ، ألا وهى مفهوم « المطلق » ، الذى يجب أن يشكله كل فيلسوف ، لأن حكمه يحتاج — لكى يكون صحيحا — الى أسس كافية للوجود • فما بين « مطلق الميتافيزيقيا » واله الدين ، ليس الا اختلافا فى التسمية ، لأن هنا علاقة وجود مشتركة •

لم يذكر القرآن الكريم كل الأدلة التى تؤكد وجود الحقيقة الأولى ، بل أشار الى بعضها تاركا للعقل الانسانى مجالا للتذكر والتفكر والبحث ، وقد كانت الفلسفة خير معين للعقل على السير فى هذا الطريق ، فقد ساعدت فى فهم بعض النصوص العقيدية فى الاســلام ، وصاغتها صــياغة فلسفية ، فوضحت مضمون العقيــدة وعبرت بها من مجال التسليم العاطفى الى دائرة الفهم ، والاقتناع العقلى • وبهذا دخلت الفلسفة فى مجال الحياة ، فقدمت خدمات للعقل والحقيقة والاحسان والجمال المقدس ، اذ رفض الفيلسوف المسلم أن يكون عمله شيئا آخر غير الدين حتى فى مجال التفريق بين البحث فى الطبيعة ، والنظر فيما وراءها • ثم يمضى المؤلف فى بيان عمل الفلاسفة المسلمين وجهودهم لخدمة الدين من زاوية الفلسفة ، ومبينا اختلاف طريقتهم وأسلوبهم فى بحث الظواهر الكونية عن تعبير القرآن الكريم عنها كدليل على وجود الله ، ثم يقول :

« فالفيلسوف يصيغ مفاهيم مجردة ، بينما الدين يذكر رموزا مرئية ، كذلك نجد فى جانب الفلسفة : معلم وباحث وتلميذ ، بينما فى جانب الدين : مقدسات ، وأنبياء ، وبيوت للعبادة » ••

على الرغم من جهود الفلاسفة فى شرح المبادىء الاســلامية بأسلوب فلسفى متوخين بذلك خدمة الاسلام ، فقد نتج عن عملهم ازدياد عدد الداعين الى الحرية الفكرية ، وأدى ذلك الى ظهور بعض الزنادقة ، الذين ادعوا أن القــرآن ليس هو المرجع للحيــاة والفكر والشعور ، فافتتن الباحثون عن الحياة — وخاصة فى فارس — بالأبحاث القديمة عن نشأة الكون ، فسلموا بالمبادىء والأفكار الفلسفية فى هذا المجال •

نشأ النزاع بين الفلاسفة والعلماء بسبب جنوح الفلاسفة فى تفسير الكون وما بعد الموت تفسيرا لا يتفق مع مفهوم العلماء لها ، ووصل الخــلاف فى بعض الأحيان الى حرق مؤلفــات الفــلاسفة واضطهادهم ، وأحيانا دفع بعضهم حياته ثمنا لرأيه المخالف لمــا عليه الجمهور ، كما حدث للحلاج عندما قال :

« •• أنا الحق •• أنا هو الذى أحبه ، اذا رأيتنى فقد رأيته ، واذا أردت أن تراه فانظر الى •• » •

استمر النزاع بين المبادىء وتفسيرها ، أو بين الايمان والداعين

الى حرية الفكر ، اذ أن لدى معظم الفلاسفة ايمان بالله قائم على أدلة عقلية ، فهم حاولوا البحث بين معارف كلية عن أدلة لوجود الله وأرادوا أن يصل الانسان بنفسه وعن طريق عقله — بمساعدة ما حوله من مظاهر كونية ، هى فى حقيقتها تمثل معه وحدة كلية — الى الله ، اذ خلف هذا توجد الحقيقة الدينية التى يدافعون عنها بحماس منقطع النظير ، وهى أن الله والعالم واحد •

كون الاسلام وحدة ، لا يمكن أن توجد فى عالم الفلسفة ، القائم على مجهودات فردية متأثرا بالوحدات الحضارية الصغيرة التى لا يمكن فصلها عن شخصية المفكر ، فقد صهرت المملكة الاسلامية حضارات مختلفة الأنواع ومتعـددة الاتجاهات — فارسـية وتركية ومنغولية وسـورية وفلسطينية ومصرية وهندية وافريقية (شـمال أفريقيا) وأسبانية — لكن الطقس والتضاريس الجغرافية — صحراء واسعة ، وسماء زرقاء ، وشمس ساطعة محرقة ، واللانهائية ، والتحديد فى نفس الوقت — ساعدت على ظهور السحر والزهد والتصوف ، لأن الروح الشرقية الغارقة فى الخيال شدت الشرقى فى كل أوقاته ، وجعلته ملازما للوحى فى كل ما يباشره من أعمـال يومية ، فأنتج من عالمه الدينى فلسفته ، وشعره ، ومثله الحضارية ، كما خرجت أساطير عن الكون من تجاربه القديمة •

٨ — أساطير عن خلق العالم :

سرد المؤلف الأساطير التى شاعت بين الناس عن خلق العالم ، فذكر أنها تحكى أن أول ما خلق الله هو اللوح المحفوظ ، ثم القلم ، ثم أمر القلم بكتابة ما سيحدث فى العالم ، ثم خلقت السماء والأرض بما عليها من جبال ووديان ونباتات ••• الخ • وفصل القول فى وصف كل شىء على حدة ، ولمـا كان هذا كله لا يخرج عن كونه أساطير حسب وصف المؤلف لها ، ولم يربط بينها وبين مصادر الاسلام ، فقد تركناها دون عرض لعدم الفائدة منها فى منهجنا •

٩ — تنوع القوى الفكرية :

تدل هذه الأمثلة — وهى ما سرده من أساطير فى الفصل السابق — على مدى قوة تأثر حضارة المسلمين الفكرية بفلسفة السابقين ، ومدى تقبلهم لآرائهم فى نشأة الوجود ، فالمسلم يعتقد أن مسار حياته قد

حدد قبل وجوده ، وتدور أهمية المسألة على ظهور ما كتب عليه فى الأزل فى عالم الواقع المحسوس • وهنا استوطنت الصوفية والفلسفة ، والتأملات الفكرية ، غير أن هذه الاتجاهات كانت ضعيفة التـــأثير — أولا تأثير لها البتة — فى أفكار علماء الدين ، لأن هدفهم انحصر فى الدفاع عن تعاليم القرآن الكريم ، فاختفت مشاكل الوجود ووحدته من مجالسهم ، لأنهم تركوها جانبا ، اعتقادا منهم أنها لا تدخل فى نطاق بحثهم وبتعبير أدق لا يجوز لهم الخوض فى مثل هذه المسائل • أما الفلاسفة فقد أبدوا اهتماما بالمبادىء الأساسية لصورة الكون فى مجالات الحضـــارات الأجنبية ، كى يوفقوا بينهـــا وبين المبـــادىء الاسلامية •

يرجع الفضل فى بناء المسلمين حضارتهم الزاهرة الى المصادر المتعددة التى أثارتهم وحركتهم للسير فى طريق تكوين هذه الحضارة ، فقد خلق الصراع الفكرى حركات حضارية مختلفة فى المملكة الاسلامية فتطورت الحضارة الاسلامية وتبوأت مركزا مرموقا بين الحضارات فى ذلك الوقت ، كما بدأ الدين فى اتخاذ موقف تجاه صيغ وأشكال الحضارات الفكرية ، وعلى الأخص تجاه الفلسفة الكلاسيكية الاغريقية فقامت مناقشات حادة ، كان لها أثر فى تكوين الانسان المسلم فكريا وثقافيا • فلو تحدث المرء عن الفلسفة من جانب واحد فقط ، وهو أنها كانت تجميع لفلسفات الشعوب الأخرى ، فلسوف يدرك أنها منحت المسلمين قوة لا تقدر وأنها قوت جانبهم فى صراعهم السياسى •

لقد أظهروا قوة عجيبة فى هضم الفلسفات الأجنبية وتحويلها الى فلسفة اسلامية ، وتلك ناحية تدين لهم أوروبا بها ، لأنهم بعدما حولوا الفلسفة والمعارف الأجنبية الى معارف وفلسفة خاصة بهم ، عبرت فلسفتهم هذه الى أوروبا عن طريق : أسبانيا ، وجنوب ايطاليا ، فحددت طريق تطورنا الفكرى فنحن لم نعرف أرسطو الا عن طريق المسلمين •

١٠ — معالم التطور فى الحضارة الفكرية الاسلامية :

تأثرت أفكار القبائل البدوية عن الكون ومظاهره فلسفيا فى عهد الأمويين (٦٦١ — ٧٥٠ م) بالنظريات الفكرية التى كانت معروفة فى العالم آنذاك ، فقد وجدت الأفكار اليونانية والمسيحية — وخاصة زهد ورهبنة العالم الغربى — طريقها الى مصر وسوريا ، وأثرت على الحياة الباطنية •

ازداد أثر الثقافات الأجنبية فى كل مجالات الفكر فى العهد العباسى ازديادا مطردا ، وخاصة فى مجالى الفن والفلسفة ، فبجانب الأفكار المسيحية واليونانية ، دخلت أيضا الهندية ، وفى مقدمتها الفارسية ، فقد خرجت الفلسفة الاسلامية فى القرن التاسع الميلادى من فارس ، حيث وجد لأول مرة « زنادقة » بين رجال الدين والصوفيين ، فتعقبهم العلماء والفقهاء فكريا وقضائيا . وبهذا ظهرت أول موجات الصراع الفكرى ، لكنه وان لم يكن صراعا مماثلا لما حدث فى أسبانيا فى عصر محاكم التفتيش ، الا أنه خلق هوة سحيقة فى المجتمع ، وأحدث تصدعا فى الوحدة الحضارية التى شيدها الاسلام بين أفراد المجتمع .

لم يجمع هارون الرشيد فى بلاطه الفنانون والشعراء فقط ، بل كان فيه أيضا فلاسفة وصوفيون ودراويش ، فتمتع الأطباء وعلماء الطبيعة بحرية فى البحث فى مجال الكون والطبيعة ، حيث كانوا واقعين تحت تأثير الفلسفة اليونانية .

تبوأت أفكار أرسطو — رغم الخلاف فى تقييمها — مكانا مرموقا فى المدارس الفلسفية ذات الاتجاه الدينى ، فقد بدت فى أول الأمر غير متعارضة — نسبيا — مع الاسلام ، على الرغم من ظهورها فى ثوب مادى للانسان الشرقى ، الذى يتمتع باحساس مرهف وقوة روحية فياضة ، فصيغت الأفكار اليونانية التى قبلتها المدارس الدينية بصبغة اسلامية ، وصارت فكرا اسلاميا أصيلا .

كان المفكرون — وعلى رأسهم المثقفون ثقافة فلسفية — يعدون أنفسهم من دوائر الفكر الليبرالية ، وفى مقابلها تطور فكر آخر مضاد ، نبت فى مجال الصوفية حيث وجد تربة خصبة فى المنطقة الفارسية موطن تقديس النار قبل الاسلام . فبذلت مجهودات جبارة للتوفيق بين الاتجاهات الفكرية المتعارضة التى عمت المجتمع الاسلامى فى عهد الدولة العباسية ، غير أنها حملت معها أسباب ضعف العقيدة الاسلامية داخل المجتمع .

كانت المدرسة العليا فى بغداد فى عهد السلجوقيين تمثل المركز الفكرى ففيها ظهر الغزالى كأكبر محلل للمشاكل العلمية والفلسفية ، اذ انتشر فى عصره التصوف الايجابى ، وتغلغلت الأفكار الأجنبية فى مجال الفكر الاسلامى ، كما اشتد ساعد العلماء والفقهاء ورجال

الدين فى الدفاع عن الاسلام ضد التيارات الأجنبية فضبطت المدارس الفقهية قواعد التشريع وأحكمت صيغتها ، ووضع ابن سينا ـ الايرانى النشأة (٩٨٠ — ١٠٣٧ م) ـ نطاقا فكريا تأمليا ، فجاء الغزالى (١٠٥٨ — ١١١١ م) فبنى هيكلا للسلوك العملى ، اذ كان يركز دائما على الجانب الداخلى فى الانسان ، ويميل الى النواحى الروحية ، فترك المسائل العقلية دون حل لمن جاء بعده .

انزلقت الفلسفة بعد ابن سينا الى بحر من اللغويات اذ كان لهجوم الغزالى عليها أثر كبير فاضطهد الفلاسفة ، كما اضطهد الصوفيون ، الذين تأثروا بالاتجاهات الفلسفية ، ودفع بعضهم حياته ثمنا لاعلان اتجاهاته الفكرية التى كانت مخالفة لما عليه جمهور الفقهاء .

تأثرت الفلسفة الاسلامية فى أسبانيا بالفكر اليهودى ، وكان مرجعها الأصلى فى القرن الثانى عشر الميلادى :

— ابن باجه بنظريته فى التحرر الذاتى ، المأخوذة من الأفلاطونية الحديثة .

— ابن طفيل ، بهروبه من الحياة ، وشكه فى الأديان .

— ابن رشد ، بأسلوبه الدقيق فى شرح فلسفة أرسطو .

أثرت الفلسفة الاسلامية فى أسبانيا — وخاصة فى عهد بنى مرين — على الفكر الأوروبى ، دون أن يكون لها أثر فى داخل البلاد الاسلامية ذاتها ، اذ تقهقرت الفلسفة أمام الفقهاء وعلماء الدين منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وتقوقعت فى مجالات خلفية ، ظهرت منها بين الحين والآخر أصوات ذات أهمية ودلالات فكرية فى المجال الفكرى ، ويدل ما أثبتته دوائر المعارف على أن المؤلفات الفلسفية فاقت مؤلفات كل الفروع الثقافية التى تعرضت لهجوم الفقهاء وعلماء الدين ، فقد وضع ابن خلدون فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أهم الأسس فى تاريخ الفلسفة ، ففى عصره كانت الحضارة الفكرية قد هضمت كل ما صب فيها من الروافد المتعددة عبر القرون الماضية ، سواء جاءت من اليونان أو من الهند أو من فارس ، أو كان من انتاج المفكرين الأحرار ، أو من علماء الدين المحافظين أو المتصوفين أو كان مصدره اليهودية والمسيحية .

اتجهت الحياة الثقافية الإسلامية منذ عام ١٥٠٠ م فى اتجاهات متعددة فأخذ الفارسيون طريقا خاصا بهم ، واختار الأتراك سبيلا آخر ، كما عبرت شعوب غرب آسيا مسلكا يختلف عن هذا وذاك •

شيد العثمانيون حضارتهم الخاصة ، فاتخذوا استانبول مركزا لها ، فحث سليمان القانونى العلماء والفلاسفة على البحث والمناقشة وشجعهم على ذلك بالمنح والعطايا • وعلى الرغم من موقف السلطان بجانب علماء الدين ، فقد نال البحث العلمى الحماية والتشجيع ، كما اعترف علماء الدين بالفلسفة فى حدود خاصة داخل الاطار الأخلاقى ، فتأثر بها المفسرون ، كما خضعوا أيضا للاتجاهات الصوفية •

اتحدت الأفكار الهندوسية والزاردشتية فى عهود القياصرة المغوليين فى الهند الاسلامية للتغلب على مشاكل الوجود ، فازدهرت هناك فى حوالى عام ١٦٠٠ م حركة فلسفية ، اذ ضم بلاط القيصر المغولى « أكبر »[1] •• (١٥٥٦ — ١٦٠٥ م) كثيرا من الفنانين والعلماء ، فتأسست مدرسة فلسفية ، احتضنت كل المفكرين الليبراليين فاحتقرت الطبقات الدنيا من المفكرين ، كما أهملت كل التفسيرات والشروح وأصبحت شمال الهند ملجأ للهاربين السنيين من اضطهاد الشيعيين فى فارس •

---

(١) هو جلال الدين أكبر : من أشهر ملوك الدولة المغولية ، تولى عرش هذه المملكة الاسلامية وهو شاب فى مقتبل العمر فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى (١٥٥٦ م) وظل حاكما قويا لها حتى عام ١٦٠٥ م • كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه رزق عقلا كبيرا هداه الى البحث والدراسة عن طريق السماع ، فجمع حوله صفوة من رجال الأديان المختلفة الموجودة فى مملكته ورتب لهم عقد جلسة للمناقشة والبحث فى القضايا الدينية فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فكانت هذه الجلسات مسرحا لطرح عقائد متباينة ، وتصورات دينية مختلفة وآراء متنافرة وأفكار متضاربة فى أسلوب جدلى عنيف ، سيطرت عليه رغبة كل فريق الانتصار لدينه ودحر الأديان الأخرى ضاربين الصفح عن جميع الاعتبارات الأخرى التى ينبغى الالتزام بها عند مناقشة أصحاب الأديان المختلفة وغافلين عن القواعد السليمة التى يجب الحرص عليها فى مثل هذه الأحوال للوصول الى التعاليم الدينية التى تتناق مع طبيعة الانسان والتى تحقق للفرد الأمان والاطمئنان فى الدنيا والسعادة فى الآخرة : (راجع كتابنا « أثر البيئة فى ظهور القاديانية ») •

استعادت فارس مركزها فى عهد الدولة الصفوية ، فأصبحت فى مجال الفكر فى مقدمة البلاد الاسلامية ، وبلغت الحضارة الشيعية الفارسية فى عهد الشاه عباس ذروة مجـدها ، حيث تفتحت براعم التراث ، فأيقظت همم العلماء فى وضع أسس جديدة للنظام الفكرى ، غير أن الاهتمام بالفلسفة كان محدودا نسبيا فى هذه النهضة الفكرية الا أن الظروف منحتها بين الحين والآخر فرصة لشرح بعض مشاكل الوجـود •

وجملة القول أن الفلسفة الاسلامية لعبت دورا جانبيا فى جميع أرجاء العالم الاسلامى — باستثناء الهند — منذ الزحف المغولى حتى القرن السابع عشر الميلادى ثم بدأ الأثر الأوروبى يظهر منذ عام ١٨٠٠ م فى صورة حركات اصلاحية فى الهند وفارس وتركيا ، اتخذت بادىء الأمر مجال التكنولوجيا والتجارة والدستور حقلا لنشاطها ثم ما لبث أن وجدت النظريات الفلسفية — من خلالها عن طريق الجوانب العملية — طريقها الى المعقل الاسـلامى ، ولم يأت عام ١٨٨٠ م الا وكانت رياح الاصلاح قد عمت جميع المجالات حتى اتجه كثير من علماء الدين الى تغيير مصطلحاتهم لتتمشى مع روح العصر •

غير أن النزاع الديبلوماسى والعسكرى كان سببا فى ظهور معارضة قوية بعثت القوة والنشاط فى صفوف المحافظين ، فأرسلوا صيحاتهم منذرة ومحذرة من ضياع الاسلام ، لأن كثيرا من المسلمين كانوا قد أهملوا التعاليم الاسلامية • ومنذ عام ١٩٠٠ م ازداد الحقد والكراهية ضد الأوروبيين بسبب السياسة الاستعمارية فى العالم الاسلامى ، فتعرقت جذور الثقة بالنفس فدفعتهم الى رفض كل ما هو غير اسلامى ، وطالبوا السلطة الاستعمارية بمساواتهم بالشعوب المسيحية الأخرى ، فأصبحت المنطقة من الهند حتى مراكش جبهة واحدة كذلك ظهرت تيارات اسلامية فأعطت للاسلام قوة فى أوروبا نتج عنها احتكاك عنيف بين المسلمين والمسيحيين •

تنقسم حقب الفلسفة الاسلامية الى أربع :

* بدأت الأولى فى حريم العقـل العربى ، وتميزت بالتغـير والتفاعل الذاتى •

* ثم أقصيت عن الساحة وتراجعت الى الظل بواسطة التأثير

والنفوذ الايرانى الذى استمر حتى سقوط بغـــداد بعدما أذيبت قضايا وتيارات فكرية فى داخل المجتمع الاسلامى عبر مئات السنين •

* واشتملت الحقبة الثالثة على تيارات فكرية محلية ، ظهرت بعد الغزو المغولى فى كل قطر على حدة ، من تركيا حتى أعماق البلاد الاسلامية •
* أما الحقبة الرابعة التى تمتد حتى العصر الحاضر ، فهى التى تتمـــيز بالصراع مع الفـــكر الأوروبى والوقوع تحت تأثير نظرياته الفلسفية •

فاذا أريد الحصول على صورة واضحة لجوهر الفلسفة الاسلامية ، فينبغى أن نرسمها من واقع حياة وأفكار الحركات الاسلامية ذات الاتجاه الفلسفى ، ونستنبط ملامحها من حياة وأفكار الفلاسفة والباحثين عن الحق ••• ثم يمضى المؤلف فى سرد معالم التفكير عند المعتزلة واخوان الصفاء ، كما يستعرض حياة وأفكار بعض الفلاسفة والعلماء ، وسوف نوجز الحديث عن بعض ما كتبه فى هذه الناحية استيفاء لغرض تحليل الكتاب اعطاء القـــارىء صورة عن تفكير الكاتب فى مجالات المجتمع الاسلامى المختلفة •

المعتزلة[1] :

تعد المعتزلة احدى الحركات الاســـلامية ، التى مهدت لظهور

---

(١) هم جماعة من المسلمين وقفت موقفا وسطا بين آراء الخوارج والمرجئة حول مصير مقترف الكبيرة ، فلم تر كفره ، أو ايمانه ، بل ذهبت الى أنه منزل بين المنزلتين • اعتمدت على المنطق والقياس فى مناقشة القضـــايا الكلامية • ومن أهم آرائهم التى اشتهروا بها :

(أ) مرتكب الكبيرة ليس كافرا ولا مؤمنا بل منزل بين المنزلتين •

(ب) حرية الانسان فى أفعاله بمعنى أنه ليس مجبرا كما ذهبت الى ذلك الجبرية •

(ج) قالوا بخلق القرآن •

(د) نفوا الصفات • ولذا سموا بأهل التوحيد لأن الدافع الى نفى الصفات فهمهم لمعنى التوحيد الخالص •

ومن أشهر علمائهم :

واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد •

اللذين انفصلا عن مجلس الحسن البصرى ••

الفلسفة فقد اشتهرت بتأسيسها الجدل العقلى فى المجتمع الاسلامى ، وتبوأت مركزا وسطا بين المؤمنين وغير المؤمنين فى مجال الدفاع عن العقيدة الاسلامية . كانت أسباب ظهورها سياسية — كالشيعة تماما — فقد قيل انهم امتنعوا عن تأييد على بعد مقتل عثمان ، وفى الوقت نفسه لم يحاربوه ... ثم بين المؤلف المسائل الأساسية التى أثارها المعتزلة ، كحكم مرتكب الكبيرة ، وأفعال العباد ، وخلق القرآن .. الخ . وربط بينها وبين الاتجاهات السياسية ، ثم ذكر أن المعتزلة لم يكونوا ليبراليين فى التفكير ، ولا فلاسفة ، ولا صوفيين ، بل كانوا رجال دين اتخذوا الأدلة العقلية أداة للتدليل على صحة آرائهم فى المسائل الدينية ، ومن هنا فهم لم يؤسسوا اتجاها فلسفيا ، بل نوعا من علم الكلام الاسلامى .

اخوان الصفا :

وقع الفكر الاسلامى منذ القرن الثامن الميلادى تحت تأثير تيارات فكرية أجنبية ، فاهتزت النظريات المختلفة عن الكون ، وطرق التفكير المتعددة فى المعتقدات المتوارثة ، والنظريات المسلم بصحتها فى المجتمع ، وفى ظل هذه المؤثرات وجد الشاكون والباحثون والمفكرون الليبراليين مبتغاهم ، واستمدوا منها عناصر وجود اتجاهاتهم الفكرية . وينتمى اخوان الصفا الى مجموعة من رجال الدين ، مالوا الى الاتجاه الليبرالى فى تفكيرهم ، فقد أرادوا الدفاع عن الاسلام ضد الطوفان الأجنبى ، ولكنهم فى نفس الوقت قبلوا أفكارا أجنبية من ديانات ومذاهب متعددة ، فأدمجوها فى عقيدتهم . ومن هنا أطلق عليهم الليبراليون : « جبناء » .. بسبب موقفهم المزدوج ، لأنهم أخفوا وجههم الحقيقى خوفا من السيف ، فهم يفسدون أرواح الناس .

تكون اخوان الصفا من فلاسفة سطحيين ، فبدا علماء الدين بالنسبة لهم شوكة فى العيون ، لأنهم — أى علماء الدين — يعارضون كل المعارف الفلسفية ، كما اشتبكوا أيضا مع أصحاب التيار العلمى المتطرف بسبب تهاونهم فى عقيدتهم فى سبيل الرأى العلمى ، وهكذا بدا لاخوان الصفا أن التمسك بمركز الوسط عمل كبير ... ثم يمضى المؤلف فى وصف رسائلهم وتقسيمها العلم الى أربعة أقسام : علم المنطق ، وعلم الأجناس ، وعلم الطبيعة ، وعلم أرواح العالم ، أو علم الالهيات ، وفيها تختلط أفكار أرسطو باتجاهات الأفلاطونية الحديثة

فى تفسير مظاهر الكون ، وبعد أن يشرح فلسفتهم فى تفسير الأعداد وارتباطها بالله والأرواح والمخلوقات يقول :

« ان كتب اخوان الصفا خرجت فى وقت مبكر من المنطقة العربية ، ووصلت الى اسبانيا ، فكانت من العوامل الإنسانية التى أثرت ، بل ودفعت الى ظهور دراسات وأبحاث فى مجال الطبيعة ، أما فى بغداد فقد أحرقت مؤلفاتهم مع مؤلفات ابن سينا فى عام ١١٥٠م »(١) .

---

(١) وجه اخوان الصفا نظرهم الى جذب الجمهور أكثر من توجيهه الى الخاصة ، وطبع الجمهور يميل الى السطحية دون التعمق ، ولذا كانت آراءهم الفلسفية سطحية ، وكانت الحالة السياسية للعالم الاسلامى من الأسباب الرئيسية فى تحديد معالم اتجاههم الفلسفى ، واتباع منهجهم الفريد الذى التزموه فى اعلان آرائهم ، ففى القرن الرابع الهجرى كان السلطان فى مركز الخلافة — بغداد — لبنى بويه ، غير أن أسرا أخرى نازعتهم السلطة فى أماكن متعددة من أطراف المملكة الاسلامية ، ففى الأندلس كان بنو أمية ، وفى افريقيا : العبيديون ، وفى مصر : الأخشيديون ، وفى حلب : الحمدانيون ، وفى الجزيرة الفراتية : الشيبانيون ، وفى عمان والبحرين واليمامة : القرامطة ، وفى خراسان وما وراء النهر : آل سامان ، وهذا يدل على أن الأمر والسلطان أصبح مطلوبا لكل فرد ولكل جماعة فى الامبراطورية الاسلامية ، وعلى أنه فى متناول بعض الأفراد وبعض الجماعات والأسر وعلى أنه لا طاعة لخليفة الا بقدر انتفاع المطيعين له من صلتهم بالخلافة .

وطلب السلطان ، والرغبة فيه الى هذا الحد من شأنها التفريق بين أفراد الأسرة الواحدة ، فضلا عن أن يكون سببا فى انحلال وحدة الأمة المتكونة من عناصر متعددة ومن شأنهما كذلك حمل الناس على التفنن فى الأساليب الموصلة الى السلطان ، وفى أساليب الايقاع والكيد لمن بيده السلطان .

والدين كان — ولم يزل — من أشد هذه الأساليب أثرا لما له من صلة وثيقة فى تحريك العاطفة ، وبالتالى فى تأليف الأحزاب والجمعيات لغايات وهى التحكك بالدين .

ومما لا ريبة فيه أن أواسط القرن الرابع الهجرى كان مسرح النشاط لاخوان الصفا فى بث تعاليمهم التى وصلت الى مسامع صاحب السلطان فى مقر الخلافة فى بغداد سنة ٣٧٣ هـ ، وكان اخوان الصفا قبل ذلك لا يجرأون على الظهور بتعاليمهم أمام الحكام وولاة الأمر ، وفى هذا القرن أخرجوا دائرة معارفهم وهى رسائلهم ، وانتشر تداولها فى المكتبات والمجالس ، ولكن ما هو غرضهم ؟

قد يكون اخوان الصفا اعتقدوا حقا أن الشريعة تدنست بأقوال وتأويلات لا تتصل بها ، وأن الحكمة (الفلسفة) وحدها هى علاج هذا الطارىء =

الكـــندى :

ولد الكندى فى بغداد فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، وأقام فيها الى أن مات فى عام ٨٧٣ م وهو يعتبر أول فيلسوف عربى ، فقد اتجه فى أول دراسة له الى فلسفة أرسطو ، فشرح مؤلفاته ، واستخدم هذه المعرفة فى حل مشاكل الفكر فى المجتمع الاســلامى ، كما اهتم بالرياضيات وجعلها أساس كل العلوم .

ومع أنه كان يميل الى العلوم الرياضية أكثر من غيرها ، فقد ألف

= الثمين . فدرسوا الفلسفة بناء عن هذا الاعتقاد ومزجوها بالدين لتحقيق هذه الغاية ، حتى يصلوا من وراء ذلك الى تطهير أنفسهم والصعود الى ملكوت السموات ، ولكنهم كتموا أسماءهم عن الناس حتى لا تتسرب الى الحكام خشية أن ينزل بهم العقاب ، لأن الخلفاء منذ عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) الى استقلال بنى بوية بالسلطان فى خلافة المستكفى (٣٣٤ هـ) ، كانوا يميلون الى تأييد مذهب الفقهاء وأهل النص ، والاعراض عن المذاهب العقلية : مذهب المعتزلة . وآراء الفلاسفة . وقد حرم المتوكل بالفعل الظهور بهذه المذاهب فى المجالس وتداول تعليمها وتعلمها واشتد فى هذا التحريم فاخوان الصفا أرادوا أن يجمعوا بين الاشتغال بالحكمة وعدم التعرض للعقاب .

وقد يكون غرضـــهم الأول أن ينالوا فوزا سياسيا وأن تكون لجماعتهم سـلطانا زمنيا بين هـذه الأحزاب والجماعات والدويلات المختلفـة التى تميز بهـا القرن الرابع الهجرى ، لضعف السلطة المركزية وقتئـذ بسبب تحكيم العنـاصر الأجنبيـة وتحكمهم ، فتكونوا باســم الاصـلاح الدينى ... وألفوا رسائلهم فى تهذيب النفس واصلاح الأخلاق ، ودعوا الى نشر مذهبهم على أنه المذهب الصحيح الذى جمع مبادىء الدين والفلسفة الاغريقية ، أى جمع بين الوحى والعقل . وكتموا كذلك أسماءهم لئلا يضطهدهم صاحب السلطان أو أصحاب السلطان فى البقاع المختلفة .. ويبدو أن غايتهم الخفية والمهمة فى رأيهم هى الحصول على السلطان ، لأن اصلاحهم للدين وعلاجهم لتطهيره وتصفيته لم يكن اصلاحا يلتئم فى كثير من نقطه مع مبادىء الدين نفسه ، ولم يكن علاجا ينم عن رغبة التطهير الحقيقية .

ومن نظر فى رسائلهم لا يسـعه الا أن يوافق أبا حيـان التوحيدى : من أن اخوان الصفا كانوا يدينون بالمعارف الانسانية والديانات كلها سواء .. يرون أن أنبياءهم : نوح ، وابراهيم ، وسقراط ، وأفلاطون وزرادشت ، ومحمد ، وعلى ، وعيسى ، وحوارييه ، والعلويين فى نظرهم شهداء الايمان والعقل وهم بهذا مقدسون » ..

(راجع الجانب الالهى .. جـ ٢ ص ٢٨ ـ ٣١) .

فى جميع المعارف ، اذ كتب ٢٣ كتابا فى الهندسة ، و٣٢ كتابا فى علم النجوم والفلك ، و ٨ كتب فى علم الحساب والموسيقى كما ترك عشر رسائل فى علم البصريات ، و ٢٢ فى الطب .

كانت مبادئه الفكرية وآراؤه فى المعرفة أسسا قامت عليها الفلسفة ، وخاصة فى فكرة الوساطة التى اعتمد فيها على فلسفة أرسطو(١) .

الفارابى(٢) :

اعتمد الفارابى على فلسفة الكندى ، فطور نظرية المعرفة ،

---

(١) لم يكن الكندى مؤلفا فحسب ، بل كان مع ذلك مترجما من أشهر المترجمين لكتب الثقافة الأجنبية فى عصر بنى العباس ، وكان مع ذلك مصححا أيضا لما ترجمه بعض السريان . ويعزى اليه ترجمة كتاب « فقه أرسطو » ولم يبلغ هذا الشأن الا بعد أن تعلم بعض اللغات الأجنبية وحذق فيها ويقال انه كان يتقن اليونانية بصفة خاصة .

ويحكى دى بور فى كتابه « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ص ١٢٤ تعريب الأستاذ أبو زيد طبع مطبعة التأليف والترجمة سنة ١٩٣٨ م : « أنه لم يقنع بترجمة كتب أرسطو ، بل درس ما ترجم منها وحاول اصلاحه وشرحه » .

وينقل القفطى عن أبى جلجل الأندلسى : أن الكندى « ترجم من كتب الفلسفة الشىء الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب العريض » .

والكندى خدم المأمون والمعتصم والمتوكل . الا أنه اضطهد فى زمن الأخير وصودرت مكتبته مدة طويلة ، عندما اشتدت العاصفة ضد أهل الرأى من المعتزلة ، وكثير من حاملى لواء الثقافة الأجنبية . فالتاريخ يحدث أن المتوكل لم ينهج على غرار المأمون فى تأييد مذهب الاعتزال ، بل ذهب الى حد كبير فى اعادة الكلمة لأهل النص وتحقيقا لذلك حمل فى قسوة على كل مخالف لهم .

ولما كان الكندى من قادة مذهب الاعتزال ، وله فى خدمته وخدمة الدفاع عن العقيدة مواقف مشهورة — أجلها الرد على بعض الفرق الدهرية التى كانت تنكر فى وقته الرسالة الالهية على أساس الاكتفاء بالعقل الانسانى فى الارشاد — لم يجد بدا من الفرار من بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافات الى أطراف المملكة الاسلامية ، ويقال : انه لم يعثر منذ ذلك الحين على كنف يقيه شرور الأيام ولذا مات فى حالة سيئة (الجانب الالهى ج ٣ ص ٦٤/٦٥) .

(٢) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابى . ولد من أب فارسى ، كان من قواد الجيش فى مدينة وسيج فى اقليم فاراب (اطرار) من بلاد التركستان فيما وراء النهر (سيجون) ولما شب تعلم فى =

والتصور الميتافيزيقى ، كما شرح كتب أرسطو وتوفر عليها حتى لقب بـ « المعلم الثانى » .

كان للعقل أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين ، لأنه كان سلاحهم فى الدفاع عن العقيدة ضد أصحاب الأديان الأخرى ، ولم يقتصر الأمر فى هذا على الفلاسفة ، بل استعمل العقل فى الدفاع عن الاسلام رجال الدين أيضا ، ومن ثم فقد استخدم الفارابى ما أخذه من « أرسطو » من أساليب عقلية ، لتنقية الفكر الاسلامى وتدعيمه ، فهو لم يكن أرسطيا ، يردد فكر أرسطو فقط ، بل استخدمه للدفاع عن الاسلام فأصبح بهذا خادما لعلوم الدين .

لم يكن هدفه الأول فهم نظام الكون ، بل وضع منهج للفكر ، ورغم هذا فقد وجدت عنده ملامح الخيالية ، والميل الى الناحية الروحية ... ثم يمضى المؤلف فى شرح آرائه فى معرفة الله والكمال

= بغداد الآداب والعلوم العربية وتتلمذ على الطبيب النصرانى : يوحنا بن جيلان المتوفى فى بغداد أيام المقتدر ، وأخذ عنه الفارابى فى مدينة (حران) وتعلم صحبة أبى بشر ، متى النصرانى النسطورى ، الذى اشتهر بترجمته للكتب اليونانية (وتوفى فى بغداد فيما بين ٣٢٣/٣٢٩ هـ) ثم كان من أتباع مدرسة « مرو » الفلسفية التى كان يغلب عليها الطابع الميتافيزيقى .

وبعد اقامة طويلة فى بغداد رحل عنها — اثر اضطهادات سياسية كانت تحصل فى الفينة بعد الفينة ضد الخلفاء ، ومن فى خدمتهم من الوزراء والعلماء والقواد — متوجها نحو حلب ، وهناك أقام مدة أخرى فى كنف سيف الدولة (أبى الحسن ، على الهيجاء ، عبد الله بن حمدان التغلبى) . وقد ذهب اليه فى خلافة الراضى ، ولكن حياته هناك كانت متأثرة بموجة من الزهد والتصوف سيطرت عليه فى سنواته الأخيرة ودفعته الى الاستعاضة عن متع الدنيا ولذائذها ، بالتفكير الفلسفى الصوفى ، وبالعزلة عن الجماعة وربما ما حصل له من اضطهاد يذر فى نفسه اليأس ، وكون عنده نظرة التشاؤم ، وهما — غالبا — من دواعى النفرة من الجماعة ، والاسترسال فى التفكير والاكثار من الخلوة بالنفس ، ومناجاة « من عنده الأمر كله ، ومالك الخيانتين وهو الله سبحانه وتعالى » .

وبعد اقامته فى حلب مدة أخرى اثر رحيله عن بغداد ذهب صحبة سيف الدولة فى فتحه دمشق ، ووجد بها هناك نهاية أجله ، تقريبا فى رجب ٣٣٩ هـ (ديسمبر ٩٥٠ م) وكان عمره فى هذا الحين يقرب من الثمانين (الجانب الالهى ... جـ ٢ ص ٨٩) .

المطلق ، وعلاقة العـالم به ، وحرية الارادة عند الانسـان ...
و ... و .. الخ .

على الرغم من أن الفارابى كان يميل الى الصوفية ، الا أنه رفض الزهد كما يتصوره متصوفة المسلمين كطريق الى « المعرفة الالهية » اذ هو يرى أنه لا يمكن الاقتراب من هذا الا بالقوة الادراكية للمعرفة التى منحها الله للانسان المخلوق . وبهذا يتعارض مفهوم المعـرفة الاشراقية عند الصوفية مع المعرفة الادراكية . فاذا هيأ الله وسيلة الاشراق لعقولنا — أى وضع فيها قوة ، ومكنها من العمل فى هذا المجال — فيجب أن تفهم الخواطر العامة على أنها نتيجة لارادته ، وأن تتفق هذه الخواطر مع كينونة الأشـياء فى الخارج ... وبعد أن يشرح أدلة الفارابى على هذه النظرية ، ويبين أنها ربطت الجوهر الالهى بالأشياء المـادية فى اطار المعرفة يقول : « كان المنطق عند الفارابى هو تدريب الفكر ، وعليه بنى فلسفته النظرية التى نبعت من علم الطبيعيات ولكنها احتوت على مبـادىء روحانية وميتافيزيقية ، ثم أتبعهـا بالفلسفة العملية ، وهى الأخلاق ، التى تنظم كل نواحى الحياة ، وقد أكد من خلال هذا كله « الحقيقة الدينية » وهى الايمـان بقدرة الله وعـدالته ، والاعتراف بالوحدة ، ويقصد بالوحدة : وحدة العقيدة التى لا تنفصل عن الحياة الاجتماعية والسياسية فى الاسلام .

ابن سينا[١] :

كان تلميذا للفارابى ، وأصبح أستاذا للفكر اليونانى والحضـارة

---

(١) هو الشيخ الرئيس ، أبو على بن سينا . تحدث عن نفسه — كما نقل أبو عبيدة عبد الواحد الجورجانى ، تلميذه ومعاشره مدة تقرب من ربع قرن فيما يلى : ان أبى كان رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها الى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرميثن » من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى ، وبقربها قرية يقال لها « افشنه » وتزوج أبى منها بوالدتى — استارة كما يذكر ابن خلكان — وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى . ثم انتقلنـا الى « بخارى » وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى من العجب .

وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ، ويعد من الاسماعيلية . وقد سمع =

. . . .

= منهم ذكر « النفس » و « العقل » على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخى وكان ربما تذاكرا بينهمـا وأنا أسمعهما وأدرك ما يقولانه ولا تقبله نفسى . وابتدءا يدعوانى أيضا اليه ، ويجريان على لسانهما ذكر « الفلسفة » و « الهندسة » و « حساب الهند » وأخذ والدى يوجهنى الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه .

ثم جاء الى بخارى « أبو عبد الله الناتلى » وكان يدعى « المتفلسف » وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه الى « اسماعيل الزاهد » وكنت من أجود السالكين . وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب « ايساغوجى » على الناتلى . ولمـا ذكر لى حد « الجنس » أنه : هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب « ما هـو » فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ! وتعجب منى كل العجب . وحذر والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيرا منه ! حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة .

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم « المنطق » وكذلك كتاب « اقليدس » — فى الهندسة — فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره .

ثم انتقلت الى « المجسطى » ولمـا فرغت من مقدماته ، وانتهيت الى أشكال الهندسة قال لى الناتلى : « تول قراءتها وحلها بنفسك ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه » ! وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب . فكم من شكل مشكل ما عرفه الى وقت ما عرضته عليه وفهمته اياه .

ثم فارقنى الناتلى متوجها الى « كركانج » واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصـوص والشروح ، من الطبيعى والالهى . وصـارت أبواب العلم تتفتح على .

ثم رغبت فى علم « الطب » وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة . فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب . وتعهدت المرضى فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف الى الفقه وأناظر فيه . وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

أما عن التآليف فيقول :

وكان فى جوارى رجل يقال له : « أبو الحسين العروضى » فسألنى أن أصنف كتابا جامعا فى هذا العلم . فصنفت له « المجموع » وسميته =

الاغريقية فى الشرق • درس فى بدء حياته علوم الدين ثم الفلسفة والطب ، وألف وهو فى ريعان شبابه كتاب : « الحاصل والمحصول » فى ١٨ مجلدا ، تناول فيه أسس المنطق وعلم الطبيعة والرياضيات والميتافيزيقيا • وظل هذا الكتاب المرجع الأساسى للطب والفلسفة على امتداد عدة قرون ، كما كان له تأثير على علم الكلام فى القرون الوسطى ، اذ بدأت ترجمة مؤلفاته الى اللغة اللاتينية فى القرن الثـانى عشر الميلادى ، الا أن علماء الدين الاسلامى رفضوا فلسفته بحجة أن فيها معالم الزندقة •

= به ، وأتيت فيه على سائر العلوم — سوى الرياضى — ولى اذ ذاك احدى وعشرين سنة من عمرى •

وكان فى جوارى أيضا رجل يقال له : « أبو بكر البرقى » — خوارزمى المولد فقيه النفس ، متوحد فى الفقه والتفسير والزهد مائل الى هذه العلوم — فسألنى شرح الكتب له • فصنفت له كتاب « الحاصل والمحصول » فى قريب من عشرين مجلدة وصنفت له فى « الأخلاق » كتابا سميته كتاب « البر والاثم » وهذان الكتابان لا يوجدان الا عنده ، فلم يعد يعرفهما أحـد ينتسخ منهما •

ثم مات والدى ، وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئا من أعمـال السلطنة ودعتنى الضرورة الى الارتحال عن « بخارى » والانتقـال الى « كركانج » — قصبة خوارزم — وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيرا • وقدمت الى الأمير بها ، وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء اذ ذاك • وأثبتوا لى مشاهرة ما يقوم بكفاية مثلى •

ثم دعت الضرورة الى الانتقال الى « نسا » ومنها الى « باورد » ومنها الى « طوس » ، ومنها الى « شقان » ، ومنها الى « سمنيقان » ومنها الى « جاجرم » — رأس خد خراسان — ومنها الى « جرجان » وكان قصدى الأمير « قابوس » — شمس المعالى ، قابوس بن أبى طاهر شمكير ابن زياد بن وردان شاه الجبلى ، أمير جرجان ، وبلاد الجبل (طبرستان) — فاتفق أثناء هذا أخذ « قابوس » وحبسه فى بعض القلاع ، وموته هناك •

ثم مضينا الى « دهستان » ومرضت بها مرضا صعبا ، وعدت الى « جرجان » فاتصل أبو عبيدة الجورجانى بى وأنشأت فى حالى قصيدة ، فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى ✻ لما غلى ثمنى عدمت المشترى

••• هذا ما يرويه ابن سينا عن نفسه — نقلا عن كتاب : « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطى ص ٢٦٩ الى ٢٧٢ طبع مطبعة السعادة — (راجع الجانب الالهى •• ج ٢ ص ١٥٥ — ١٦٠) •

بين المؤلف آراء ابن سينا فى مجالات : علم النفس ، وعلم الطبيعة والمنطق ، ومسائل ما وراء الطبيعة وعلاقتها بالعالم المشاهد ، والطب وخاصة الطب النفسى ، ثم يذكر أنه لم يكن فيلسوفا وممارسا للطب فحسب ، بل كان أيضا مؤلفا ، اذ دون قلمه أكثر من مائة كتاب ، وأدى نشاطه العلمى الواسع الى الاتصال بكل علماء عصره تقريبا ، ومن هنا نسمى : « أمير الفلاسفة » .

الغزالى[1] :

تناول المؤلف حياة الغزالى ، ودراسته ، وتدريسه فى المدرسة النظـامية ثم ذكر أنه لم يهتم فقط بالمسائل التشريعية ، بل اشتغل أيضا بالفلسفة والرد على الفلاسفة ، وبالمشاكل العقدية ، وبعد أن يبين فترة عزلته ودوافعها يذهب الى أنه اتجه بعدها كلية الى ناحية التصوف ، فاطمأن الى ما يقره القلب حتى انه عندما مات فى عام (١١١١ م) كان قد رسخ فى الأذهان أنه أستاذ الصوفية ومعلمها ، الذى انكشفت له الرؤية الباطنية ، اذ وجد الطريق الى الله ، وأدرك أن المرء يجب عليه اخلاء قلبه من كل شىء دنيوى ، كى ينال مغفرة الله ... ثم ينقل نصا تحدث فيه الغزالى عن أنواع الحب ، وحقيقة كل نوع وأثره ، مسلسلا اياها حتى يصل الى الحب لذات الله .

وفى معرض حديثه عن مؤلفاته ، يفصّل القول فى الحديث عن كتابه « احياء علوم الدين » — الذى قيل ان تأليفه استغرق تسعة عشر عاما — حيث وضحت فيه الأهداف الايجابية لتفكيره ، كما بانت فيه معالم ومقاصد آرائه الفلسفية ونظرته فى الكون والوجود ، اذ عندما ترجم هذا الكتـــاب الى اللاتينية اهتمت الدوائر العلمية فى أوروبا — وخاصة فى مجال علم الكلام — بآراء الغزالى وعكفت على دراستها ، كما اشتهرت أيضا آراؤه — بعد ترجمة مؤلفاته الأخرى الى اللاتينية —

---

(١) محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، أبو حامد ، حجة الاسلام : فيلسوف متصوف ، له مئتا مصنف . مولده ووفاته فى الطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل الى نيسابور ثم الى بغداد ، فالحجاز فبلاد الشام ، فمصر ، وعاد الى بلدته . نسبته الى صناعة الغزل (عند من يقول بتشديد الزاى) ، أو الى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف (الاعلام للزركلى) .

فى المنطق والميتافيزيقيا وعلوم الطبيعة ، وكان من أهم ما اشتهر به هجومه على الفلاسفة فى مسألة خلق العالم وقدم المـادة •

ابن رشد[1] :

ولد محمد بن رشد فى قرطبة فى عام ١١٢٦ م ، وكان أبوه من كبار رجال الفقه ، فهيأ له دراسة العلوم الدينية والطب ، ولكنه مال الى دراسة الفلسفة والرياضيات • وفى عام ١١٨٢ م عينه الخليفة — وكان يميل الى دراسة الفلسفة — طبيبا خاصا له ، وارتبط بهذه الوظيفة تشجيع الخليفة له على دراسة الفلسفة ، فكتب تفسيرا لمؤلفات أرسطو ، مما أرضى الخليفة • فتمتع بمركز مرموق فى الدولة حتى عند من تولى الخلافة بعده ، غير أن رجال الدين اتهموه بالزندقة ، لأنه — حسب رأيهم — أفسد عقيدة الاسلام بقبوله لمنهج التفكير اليونانى • كان من جراء هذا الاتهام له نفى ابن رشد وتحريم دراسة الفلسفة •

اندلعت على اثر ذلك موجة من العداوة ضد الفلسفة ، فأحرقت كل كتب الفلســفة والمنطق ، وكان ذلك نهايــة عصر التفكير الحر ، فجلس العقل فى قفص الاتهام ، وصدر مرسوم من الخليفة يقول :

« لقد خلق الله الجحيم لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بواسطة العقل وحده » •

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسى ، أبو الوليد : الفيلسوف من أهل قرطبة يسميه الافرنج Averroès عنى بكلام أرسطو وترجمه الى العربية ، وزاد عليه زيادات كثيرة وصنف نحو خمسين كتابا • وكان دمث الأخلاق ، حسن الرأى ، عرف المنصور قدره فأجله وقدمه ، واتهمه خصومه بالزندقة والالحاد ، فأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه الى مراكش ، وأحرق بعض كتبه ثم رضى عنه وأذن له بالعودة الى وطنه فعاجلته الوفاة بمراكش ، ونقلت جثته الى قرطبة • قال ابن الأبار : كان يفزع الى فتواه فى الطب كما يفزع الى فتواه فى الفقه • ويلقب ابن رشد « بالحفيد » تمييزا له عن جده أبو الوليد محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٥٢٠ هـ) ومما كتب فيه : « ابن رشـد وفلسفته » لفرح أنطون ، و « ابن رشـد » ليوحنا قمير ، و « ابن رشد الفيلسوف » لمحمد يوسف موسى و « ابن رشد » لعباس العقاد (الاعلام للزركلى) •

مات ابن رشد فى عام ١١٩٨ م فى مراكش عن اثنين وسبعين عاما ، بعد أن استرد مكانته مرة أخرى فى بلاط الخليفة ، فبرىء من تهمة الزندقة • لكن دراسة الفلسفة لم تسترد مكانتها ، فقد تعقب علماء الدين كل الثقافات الانسانية الى أن قضى على الفلسفة نهائيا فيما بعد فى أسبانيا بزوال دولة بنى مرين •

كان ابن رشد خليفة أرسطو ، فكان يرى فيه كمال الفلسفة ، ذلك أن الفلاسفة المسلمون كانوا صورا مكررة لأرسطو ، حيث اتخذوا فلسفته أساسا فكريا لفلسفتهم ، ولكنهم أخذوا من مؤلفاته القدر الذى يمكن أن يتلاءم مع العقيدة الاسلامية ، ولهذا قطعت أوصال الفكر الأرسطى بحيث ضاعت معالمه الكلية ، ولذا كرس ابن رشد جهده فى كشف « الصورة الحقيقة لأبى الفلسفة » •• ونقلها دون تحريف الى الفكر الاسلامى ، فأخرج من « ميتافيزيقية » أرسطو أسس اتجاهه الفكرى •

كتب ابن رشد ثلاثة شروح — كبير ومتوسط وصغير — على مؤلفات أرسطو •• وبعد أن يتناول المؤلف الشروح الثلاث بالتفصيل وعلاقتها بالنص ، يذهب الى أن المنطق اليونانى — طبقا لرأى ابن رشد — كان السلاح الفعال للتبرير الفلسفى للدين ، فقد تأسس جوهره — أى الدين — فى الدهاليز الفلسفية أما الصورة الخارجية ، والتفاسير التقليدية فهى لعامة الناس ، وهى تخدمه بطريقة مبسطة ، تتضمن صورا غريبة على العقل ، وبالتالى لا يتناولها فى المناقشات الفلسفية •

يتعارض الوحى الدينى مع الحقيقة الفلسفية المتصورة ، ولذا بحث ابن رشد عن التوفيق بين الطرفين ، فى كيان العقل الفعال ، الذى يرجع أصله الى الوجود الالهى • وهو فى هذه النقطة يكمل مسيرة الفلاسفة المسلمين الذين سبقوه ، حيث كانوا يرون أننا نملك جزءا من الادراك الالهى ، فالله والانسان يكونان — بناء على هذا — قطبين متواجهين فوق معبرة بين الوحى والعقل •• وبعد أن يشرح المؤلف أفكار ابن رشد فى المادة والروح وتركيب الكون وعلاقته بالله والانسان يقول :

« فاذا لوحظ أن انتاج ابن رشد الفكرى لم يكن جديدا ، فيكفى أنه كان يمثل نقطة الذروة فى الفلسفة الاسلامية وكان تأثيره على أوروبا فى القرون الوسطى واضحا ، فنحن نرى فى مصطلحات بعض فلاسفتنا ملامح تفكير ابن رشد ، اقتبسوها من كتبه التى ترجمت الى اللاتينية ولا زال أثر كتابه الطبى عن فن العلاج والمداواة — الذى ترجم الى اللاتينى فى عام ١٥٣٢ م — ملموسا فى مجال الطب فى البلاد الغربية حتى عصرنا الحالى وأكثر من هذا كله أثره على الشاعر الايطالى « دانتى » فى « الكوميديا الالهية » وجملة القول ان مؤلفات ابن رشد كانت من أهم الأعمال العقلية التى أسهمت فى قيام جسر فكرى بين الشرق والغرب .



الباب التاسع

مفاهيم دينية في الاسلام
وفي أديان الشرق الأقصى

* عقائد اسلامية
* الهندوسية
* البوذية
* العالمية الصينية
* مقارنة

مفاهيم دينية فى الاسلام وفى أديان الشرق الأقصى

وفى هذا الباب :

١ ــ عقائد اسلامية :

الاسلام هو أحدث الأديان الكبرى ، فاذا ما قارنه المرء بالأديان الأخرى فسوف يبدو له أنه أقرب الى اليهودية من أى دين آخر ، ذلك أن كلاهما يحمل طابع التشريع ، الذى يستند على أساس من الوحى الالهى • فالخضوع لله يتطلب تنفيذ أحكام الشرع دون قيد أو شرط ، ولا يغنى عن هذا أداء المرء الصلاة أو أى نوع من العبادات الأخرى • فتنفيذ التشريع لا يرفعه أى عمل آخر ، مهما كان مصدر وقيمة هذا العمل • يسلم المسلم بما جاء فى القرآن الكريم دون أن يرفع صوته بنقد ، حتى ولا بينه وبين نفسه ، ويخضع خضوعا كاملا للأحداث التاريخية فى الدولة الاسلامية ويرجع ذلك الى ايمانه بأن هذا قدر مكتوب لابد من حدوثه فلا يستطيع أحد الحيلولة دون ظهوره على مسرح الحياة ، ولذا تجده يقف موقفا سلبيا ازاء الأحداث التى تجرى حوله(١) •

---

(١) تعرضت مسألة الايمان بالقضاء والقدر فى الاسلام لهجوم كثير من الأوروبيين وقد رد عليهم كثير من علماء المسلمين ، ومن أبلغ الردود ما كتبه الامام الشيخ محمد عبده حيث يقول :

« ••• اعتقد الافرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين القائلين بأن الانسان مجبور محض فى جميع أفعاله ، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الريح كيفما تميل ••• ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتنمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم !!

وهكذا ظن طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول فى المشرق ، ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا ، لا يوجد مسلم فى هذا الوقت : =

• • • • • • • • • • • •

= من سنى ، وشيعى ، واسماعيلى ، وزيدى ، ووهابى ، وخارجى - يرى مذهب (الجبر) المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ... بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى (الكسب) وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية ، والنواحى الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى ، وبه تتم الحكمة والعـدل .

« .. نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى (الجبرية) وذهبت الى أن الانسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للاكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته !! ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السلطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة .

« .. وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك ما ظنه أولئك الواهمون .. الاعتقاد بالقضاء : يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ويسهل على من له فكر أن يلتفت الى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان ، وانه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم ، وارادة الانسان انما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة ... وليست الارادة الا أثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما أودع فى الفطـرة من الحاجات . فلظواهر الكون من السلطة على الفـكر والارادة مالا ينكره أبله فضلا عن عاقل . وان مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة ، انما هو بيد مدبر الكون الأعظم ، الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزء له ، خصوصا فى العالم الانســانى .

« .. ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صانع للعالم ، فليس فى امكانه أن يتملص عن الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية . فهل يستطيع انسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق ، فضلا عن الواصلين !!

« .. الاعتقاد بالقضاء والقدر ، اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرارة النمور .. هذا الاعتقاد =

أسس محمد — صلى الله عليه وسلم — دولة « ثيوقراطية » — فلم تكن نظاما كهنوتيا مثل ما كان عند الكنيسة الكاثوليكية — ، فكل أنشطة الحياة خاضعة للوحى الذى أنزله الله للمؤمنين • وهكذا اندمج الدين فى مجالات الحياة اليومية • فقد ربط الاسلام الحياة الدنيوية • بالحياة الأخروية ، فأصبح بذلك دينا عالميا وضمن قيام مجتمع عالمى فى ظل تطبيق مبادئه • ولم يكن هذا عسيرا بالنسبة للاسلام ، لأن مبادئه غير معقدة ، ولذا تفهمها كل طبقات المجتمع الثقافية • ويكفى أن ننظر الى بساطة التوحيد الذى دعا اليه فى القرآن الكريم حيث يقــول :

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »(١) •

فالانسان مكلف فقط بطاعة الله ، وتنفيذ أوامره ، وبهذا يكون قد أدى واجباته الدينية • ولمـا كانت العقيدة لا تطلب منه القيام بأعمال تفوق طاقته ، أو التى تتطلب منه تحمل مشقة فى حياته ، أو الغاء

= يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأحوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة •• كل هذا فى سبيل الحق الذى دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة •

« •• الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء — كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ كيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله ، فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟

« امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد ، مع بيان فضله فى قوله الحق :

« الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » •

(آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤)

« •• هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم ••• » •

(تاريخ الامام : ج ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٧ عن الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ١٥٤ — ١٥٧) •

(١) سورة الاخلاص •

ذاته ، فقد كان لهذا الدين قوة جاذبية فعالة ، جعله يتقدم على كل الأديان الأخرى فى مجال الانتشار بين شعوب العالم ومنحت المسلمين فى كل أنحاء العالم وضعا سوى بينهم • — فى التقييم الدولى — وبين أصحاب الأديان الأخرى • طبع الاسلام أتباعه بالطابع الاسـلامى الموحد ، لا فرق فيه بين غنى وفقير ، ولا بين أبيض وأسود ، لكن هذه البساطة فى العقيدة كانت سببا فى هجوم بعض أتباع الأديان الأخرى على الاسلام ، فالبوذيون والعالميون الصينيون(١) يستنكرون خضوع المسلم لوحدانية الله وايمانه بهـا ايمانا لا يقبل أية أفكار أخرى تنال منها • والهندوسيون يستنكرون عدم تقديس المسلمين للبقرة التى يقدسونها منذ القدم ، كما لا يقبلون استنكار الاسلام لحرق المتوفى عنها زوجها فالاسلام لا يأمر بقتل البقرة ولا يحرم ذبحها ، كما يسمح للمتوفى عنها زوجها بالزواج من آخر •

هذه أمثلة فقط ذكرتها للدلالة على أن كل دين يرى أتباعه أن تعاليم دينهم هى التعاليم الصحيحة • الموصلة الى رضاء الله ، وأن ما عند الآخرين ليس الا ضلالا ، وفسادا للنفس الانسانية ، وللمجتمع البشرى • وبصرف النظر عن المذاهب المختلفة • داخل كل دين فهناك اختلاف جوهرى فى التعاليم الأساسية بين هذه الأديان •

٢ — الهندوســية :

عندما زحف المسلمون على القارة الهندية ، أطلقوا على سكانها

---

(١) العـالمية اصطـلاح استعمله البـاحث « ج٠ج٠م٠ دى جروت » J.J. M. de Groot عام ١٩٢١) فى عام ١٩١٨ م للدلالة على مجموع الفكر الصينى ، اذ يندرج تحته كل الأديان الصينية والمذاهب الفلسفية • وفروع العـلم المختلفة • وقد أدرج علم الأديان الحـديث « الكونفوشيوسية » و « التاوزمية » تحت مفهوم « العالمية الصينية » فقد كان الشعور بالوحدة — التى يتحكم فيها قانون عام شامل — بين الانسان والكون طابعا مميزا لهذين الدينين ، والاتجاه الى جعل الحياة منسجمة مع ايقاع نواميس الكون متحكما بالدرجة التى جعلت (دى جروت) يتوصل فى عام ١٩١٨ الى اصطلاح العالمية ، وقصد به « الأسس الفكرية الكلية » لتصور الصينيين للكون والأخلاق وجوهر الدولة ، والعلم ، فالعالمية مبادىء تقوم أسسها على العالم بكل أجزائه وظواهره ، وتهدف الى بيـان الانسجام بين السماء والأرض والانسان (قارن : Nölle ص ٤٠٣) •

الذين لا يدينون بالاسلام ولا بالمسيحية ، ولا بأى دين من الأديان التى يعرفها المسلمون « هندوس » ومنها اشتقت كلمة « الهندوسية » علما على الدين المحلى فى الهنـد وفى نفس الوقت استعملت كلمة « البرهمـانية » نسبة الى « براهمـا » وهو لقب رجل الدين فى الهندوسية •

أثبتت الحفريات التى أجريت فى عامى ٢١ ، ١٩٢٢ م أن ما يسمون بالآريين لم يكونوا ـ كما كان مسلما به حتى ذلك التاريخ ـ صناع الحضارة الهندية ، بل بناها شعوب ذات حضارة ومدنية زاهرة فى شمال الهند فى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد ••• ويمضى المؤلف فى بيان دين هذه المنطقة قبل دخول الآريين اليها ، وما أحدثه الآريون فيه بعد غزوهم ، ثم يتحدث عن الكتب المقدسة وما فيها من أحاديث عن الآلهة ، وعن الطبقات وأفرادها ••• ثم يقول : يبدو هذا الدين للمسلمين أكثر بعدا عن تعاليمهم من الأديان الأخـرى كلها ؛ فهم يعتبرونه طقوسا وعبادات للأصـنام فالمسلمون لا يرون الهندوسية ـ حتى اليوم ـ شيئا آخر غير أنها « عبادة أوثان » وان كان بعضهم يعتبرها دينا له كتب ، ويرى أن ما فيها من أسماء لآلهة متعددة ليس الا تعبيرا ومسميات للملائكة •

٣ ـ البـوذية :

خرجت البوذية من منطقة الهملايا فانتشرت أولا فى الهند ، حيث كان يعيش مؤسسها الأمير « سيذهارتا » الذى أطلق عليه فيما بعد « بوذا »[1] أى العارف المستيقظ والعالم المستنير ، ويعتقد البوذيون

---

(١) كان أبوه « غوتاما » زعيم قبيلة ، وقد ولد « بوذا » فى أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل الميلاد • ونشأ قوى البنية ممتاز التفكير ، وتزوج وهو فى التاسعة عشرة من عمره من ابنة أحد الأمراء •

وقد اتجه تفكيره منذ صغره الى التحلى بالأخلاق الفاضلة وأخذ يقارن بين حياة الترف والنعيم التى يتقلب فيها وحياة البؤس والشقاء التى يرزح تحت نيرها قومه فازدادت همومه ومتاعبه النفسية •

وفى التاسعة والعشرين من عمره غادر قصر والده ، وهجر حياة الترف والجاه ولجأ الى احدى الغابات متأملا مفكرا • وفى فجر يوم من الأيام بينما كان يجلس تحت شجرة أشرق عليه نور الحق ينبئه أن شقاء الحياة وضجرها منبعث من رغبات النفس • وأن الانسان قادر على أن يكون سيد رغباته =

أن ظهوره فى العالم هو احدى حلقات الظهور التى بدأت من بدء خلق العالم لتدفع « عجلة الشريعة » فتتجدد الصـــورة الدينية فى أذهان البشر • وتمتد جذور « عجلة الشريعة » — وهى رمز البوذية — فى الفكر فتصور قيام طبقة من وقت لآخر على سطح الأرض المتحرك — وهو ما يسمى بالعجلة الدائرة — تكون بمثابة سلطة سليمة على الأرض ••• ثم يمضى المؤلف فى شرح العقيدة البوذية وتعاليمها فى « الكارما »(١) و « النرفانا »(٢) ومفهوم الألوهية و « النبوة » وبيان قيام نصوصها المقدسة ومن بينها ما بقى منها حتى الآن ، وهو المعروف باســـم « قانون بالى Pali - kanon »(٣) ثم يشرح طقوسها وتأثيرها على

= لا عبدا لها ، وفى استطاعته الافلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين وقد أصبحت هذه الشجرة مقدسة فيما بعد عند أتباعه •

وحينئذ غادر الغابة وأخذ ينشر رسالته ويتجول فى البلاد ، معلما كل من أقبل عليه ، متناولا طعامه مما يجود به عليه الناس •

ومات فى الثمانين من عمره وأحرق جسده بعد موته بثمانية أيام (أديان العالم الكبرى : ترجمة حبيب سعيد ، عن ذيل الملل والنحل للشهرستانى: تحقيق محمد سيد الكيلانى ص ١٤) •

(١) « كارما » تعنى فى السنسكريتية : العمل : وهى من أهم المبادىء الأخلاقية فى الهند وتقوم عليهــا فكرة تناسخ الأرواح فى الهندوسية • والبوذية ، والجاينية • وتتلخص فكرة « الكارما » فى أن لكل من الأعمال الطيبة والأعمال السيئة ثمارا ونتائج تتحقق فى الحياة الراهنة أو فى حياة تالية ، اذ يتعلق مصير الانسان بعد الموت بعمله فى هذه الحياة أو فى حياة سابقة ، فعمله يحدد صورة حياته القادمة فى فصيلة عليا أو سفلى • ويعتقد البوذيون أن الآلهة تخضع أيضا لهذا القانون الصارم ويمكن التخلص من هذا القانون ، اذا حافظ المرء على السلوك الطيب ولم يرتكب أعمالا تعيده الى الحياة مرة أخرى • وترى الجاينية أن « الكارما » هى المـــادة التى تدخل الأرواح مع الأعمال فتدنسها ، وعليه فيجب ابعاد « الكارما » ولا يمكن ذلك الا بواسطة حياة الزهد القاسية •

(٢) هى الطور الرابع الذى يبلغه الزاهد بعد أن يكون قد حطم جميع القيود والأغلال التى تقيد نفسه ، وتمنعها عن ادراك الحقائق وأعرض عن شهوة البقاء وتملكه عقل هادىء مطمئن لا يتسرب اليه الخطأ وتجرد عن كل الأمانى والرغبات ، والجهالات ، وأسباب الخديعة والاغراء ، بعد هذا كله يبلغ البوذى طور « النرفانا » يبلغه فى حياته على الأرض كما فعل بوذا •

(٣) وهو عبارة عن ثلاث مجموعات : =

الناحية النفسية • وتعاليمها الأخلاقية ، وأثرها فى الحياة الاجتماعية ••
ثم يقول : « تتضمن البوذية أفكارا تعتبر من وجهة نظر أديان التوحيد غريبة ، لا يمكن قبولها ، فهى تنكر عليها نظرية الخلاص الذاتى ، وترى فيها يأسا وقنوطا أو تؤدى الى انكار الحياة الأخروية ، اذ أن أى احساس ينبغى أن يكون فى هذه الحياة اذا لم يكن وراءها سوى الأفكار المقبضة المحزنة ؟ كذلك جواز رجوع الروح — طبقا لمفهوم عقيدة البوذية — فى حيوان(١) يحمل المرء على أن يسلب البوذية كل قيمة أخلاقية فى المجال العملى ، ويدفعه الى أن يطلق على « النرفانا » « مثالية السلبية » •

٤ — العالمية الصينية :

ينقد الباحثون العالمية الصينية — التى كانت أسس فلسفة « كونفوشيوس »(٢) •• و « لاوتز »(٣) •• بأنها لم تهتم الا بالناحية

= الأولى : ما قرأه « كاسى أبا Kasy Apa » على البوذيين فى عام ٤٨٣ ق٠م عن آراء « بوذا » فيما وراء الطبيعة وأطلقوا عليها « سلة العقائد » •

والثانية : ما رواه « أوبالى Upali » عن شريعة النظام وأطلقوا عليها « سلة الشريعة » •

والثالثة : ما رواه « أنندا Ananda » من حكايات وأمثال ومواعظ ، وسميت هذه الروايات « سلة الحكايات » وعرفت هذه المجموعات الثلاث باسم « قانون بالى » نسبة الى اللغة البالية التى دونت بها هذه الروايات •

(١) تتحدث كل فرق البوذية عن التناسخ وارتباطه بالكارما ، فبعضها يرى التناسخ بين الانسان والحيوان كما هو معروف فى الهندوسية ، وبعضها يرى أن تناسخ النوع الانسانى مقصور عليه وتناسخ الحيوان مقصور عليه ، فلا تنتقل روح من انسان الى حيوان ، ولا عكس ، غير أنا نرى فريقا آخر يذهب الى تضييق دائرة التناسخ فيرى أن روح العالم تنتقل الى عالم ، وروح الملك تنتقل الى ملك ، وروح الصانع تنتقل الى صانع ••• وهكذا • وهذا مناقض لمفهوم الكارما فى الفكر الهندى •

(٢) حكيم صينى ، أسس « الكونفوشيوسية » فجمع فيها مبادىء نظرة الصينيين الى الكون والحياة والأخلاق ، والمجتمع وقواعد قيام الدولة •

ولد « كونفوشيوس » فى عام ٥٥١ ق٠م٠ فى الولاية المعروفة الآن باسم « شانتونج » ومات فى عام ٤٧٩ ق٠م٠ ولم يكن لتعاليمه أثر كبير فى حياته من الوجهة الدينية ، ولكنها اتخذت أساسا للدولة — بدافع سياسى — بعد موته بعدة قرون ، فأصبحت دينها الرسمى • وعلى الرغم من أنه لم يدع النبوة ، فقد أجمع الصينيون على عبادته ، وتقديس كتبه •

(٣) يقال انه كان معاصرا لـ « لكونفوشيوس » وهو يعتبر مؤسس =

الدنيوية فقط وأنهــا خالية من أى مشـــاعر داخلية ، وقـــد وصف « شوبنهاور » .. « الكونفوشيوسية » بأنها تعاليم أخلاقية سياسية لا روح فيها .

ربطت العالمية الصينية — بوصفها نظرية كونية — قواعد ظواهر الكون ببعضها ، وضمت اليها قواعد الأخلاق الانسانية ، وأسس قيام الدولة ، وعناصر العلم ، وكان الهدف من ذلك قيام رباط متناسق بين الانسان والأرض والسماء .

انقسمت العالمية فى حوالى عام ٥٠٠ قبل الميلاد الى :

(ا) كونفوشيوسية : نسبة الى مؤسسها « كونفوشيوس » الذى اهتم بالكتب القديمة فنقحها ، ثم هذبها ، وبذل جهدا كبيرا فى استخلاص قواعد الحياة اليومية منهــا ونظاما لتشكيل الدولة على أسس أخلاقية . وكان هدفه من ذلك بناء نظام أخلاقى ، قائم على أساس التقاليد الموروثة ، التى تقدس أســلاف الانسانية ، وحب الناس بعضهم لبعض . كما توجب على الفرد التخلص من العــادات السيئة ، وذلك بتقديم الطيبات ، وضبط النفس ومنعها من ارتــكاب الآثام ، ولكن الــدولة — كما يقـــول « كونفوشيوس » — : يجب أن تساعد رعيتها على تحقيق هذه المثالية فى السلوك ... ويمضى المــؤلف فى شرح نظرية « كونفوشيوس » فى تأثير الطقوس على الفرد والمجتمع ، مبينــا آراءه فى الكون والآلهــة ، وموضحا النصــوص المقــدسة وموقف المــؤمنين بالــدين « الكونفوشيوسى » منها .

ارتفعت منزلة « كونفوشيوس » قبل ميلاد المسيح

« التاوزمية » ويحتوى كتاب « تاو — تى — كينج Tao - te - king » فى أبوابه التى بلغت واحد وثمانين على المبادىء الدينية والفلسفية فى « التاوزمية » ومن أهمها تأكيده على القناعة التى كانت منطلق دعوته الى الزهد والتقشف الصارم وهناك أسطورة حول قيامه بتدوين هذا الكتاب ، تقول أنه عندما أراد مغادرة الصين رجاه حراس الحدود أن يدون تعاليمه فدونها فى هذا الكتاب . ولم تلبث تعاليمه أن أصبحت « دينا » بعد موته ، كما تحولت شخصية « لاوتز » الى فكرة مجردة عن التجسيم الانسانى ، ثم الى ألوهية ذى قدرة مطلقة وأخيرا قدس الصينيون « لاوتز » نفسه على أنه الاله .

بقليل فى نظر المؤمنين بتعاليمه الى مرتبة تقارب مرتبة الألوهية • وفى عام ١٩٠٦ م وضع رسميا مع آلهة السماء والأرض • كما ظلت « الكونفوشيوسية » تعبر عن الفكر الشعبى والرسمى حتى زوال القيصرية فى عام ١٩١٢ م الا أنها فقدت مكانتها فى الصين الشيوعية • بل وتحارب محاربة عنيفة من حملة الفكر الماركسى •

(ب) التاوزمية : أسسها فيلسوف اسمه « لاوتز » الذى ولد فى عام ٦٠٤ ق•م وقد تحولت فيما بعد الى دين الزهد ، الذى لا يتحقق الا بواسطة الفضيلة طول الحياة ، فمن يلتزم الفضيلة(١) يمكن أن يكون مقدسا ويجازى بالاقامة فى « جزيرة السعادة » • وقد قام كثير من قياصرة الصين بحملات استكشافية للبحث عن هذه الجزيرة ••• ويمضى المؤلف فى بيان أثر « البوذية » على « التاوزمية » ويبين أنها أقامت المعابد فيما بعد واعتنقت مبادىء خاصة بها تتعلق بنشأة الكون ، وعالم الألوهية وقد وصف المسلمون والمسيحيون المفهوم الصينى لنظام الكون — القائم على التناسق المتجانس بين الانسان والكون — الموجود فى أديان الصين بأنه خيالى مغرق فى اللاواقعية •

٥ — مقارنة :

على الرغم من أن الاختلاف بين الأديان كبيرا ، وادعاء كل بأنه هو وحده « الدين الحق » واضح ، فان هناك أشياء مشتركة بينها ، وخاصة فى مجال الاعتقاد بأن العالم يخضع لنظام كلى معين ، كامن فى فكرة موجودة خلف الكون المشاهد • كما تتفق أيضا فى أن الأخلاق والفضيلة يكونان الأساس لكل اتجاه دينى وأن اتباع القواعد المفروضة

---

(١) الفضيلة التاوزمية : هى عدم العمل ، والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية فكما أن السماء والأرض لا تنطقان بكلمة واحدة ، وكما أن الفصول تتوالى وفق نظام دقيق دون تدخل منا ، ودون أية مناقشة ، كذلك تتحقق الفضائل ويسود السلام ، اذا لم نتدخل ولم نعمل ، ومن هنا ساد بين أتباع « التاوزمية » حكمة : « اشغل نفسك بلا مشغلة » •• أى ان الانسان يجب أن يشغل نفسه بلا شىء ، أى لا يشغل نفسه بشىء على الاطلاق •

يوجه السلوك العملى(١) كذلك يمكن القول بأن أديان الشرق الأقصى لا ترفض تعاليم الأديان الأخرى رفضا مطلقا ، اذ يجوز لمعتنقيها قبول مبادىء دين آخر دون أن يعلن ارتداده عن دينه ، فيجوز لهم — على سبيل المثال — وضع عيسى عليه السلام بين من يقدسونهم ، ومساواته بـ « بوذا » و « كونفوشيوس » و « لاوتز » دون أن يشعروا بأنهم ارتكبوا اثما فى حق دينهم أو تنكروا لشىء من مبادئه ٠

من الملفت للنظر أن الأديان الكبرى نشأت فى آسـيا ، ففى شرقها : قامت الأديان الهندية والصينية ٠ وفى غربها : نشأت اليهودية والمسيحية والاسلام ٠ نعم : لقد نشأ كل دين — غالبا — فى منطقة تختلف عن المنطقة التى نشأ فيها الدين الآخر ، ولكن لم يمنع هذا من خروجه من منطقته وانتشاره بين سكان المناطق الأخرى ٠ وكان مؤسسو الأديان وأنبياؤها أبنـاء عصرهم حملوا رسالة الحق — كل حسب اعتقـاده ، أو امتثالا للوحى الذى نزل عليه — فدعوا أقوامهم الى ما ينبغى عمله للوصول الى النجاة ، وذكروهم بما نسيته المجتمعات من الرسالات السابقة ولذا يتساءل المرء — سواء أكان من أتباع الأديان الشرقية أو كان مؤمنا بدين سماوى كاليهودية أو المسيحية أو الاسلام — عما اذا كان الانسان فى وضع يمكنه من تأدية عمل يوصله الى السعادة فى الدارين ، أو أنه يمكن أن يأمل فى المغفرة عن طريق الايمـان ، وبتعبير آخر : هل يوصل الايمان وحده الى السعادة ٠٠٠ أم لا بد من العمـل(٢) ؟

---

(١) هذه قضايا كلية لا يشير الاتفاق فيها الى تشابه بين الأديان ، لأن هناك اختلافا واضحا وكبيرا بين الأديان السماوية والأديان الاخرى فى تفصيلات نشأة الكون ٠ كذلك لا يقرب الاتفاق فى أن الأخلاق والفضيلة هما أساس كل اتجاه دينى الأديان من بعضها ، لأن مفهوم الأخلاق والفضيلة يختلف فى التفاصيل من دين لآخر ٠ وبناء عليه تختلف قواعد السلوك وأسلوب الحياة بينها ٠

(٢) أجاب الاسلام فى مواضع عدة من القرآن الكريم بلغت أكثر من ستين مرة على هذا السؤال حيث بين أنه لا بد مع الايمان من عمل صالح ليبلغ المرء درجة السعادة ويدخل جنات عدن :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة » (البقرة : ٨٢)

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم » (البقرة : ٢٧٧) ٠

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » (البينة : ٧)

الباب العاشر

الاسلام والمسيحية

* التنافس
* نقد وتباين
* فكرة الثيوقراطية
* الله فى المسيحية والاسلام
* التبشير المسيحى
* النشاط التبشيرى فى القرون الماضية
* هل يوجد تقارب ؟

الاســلام والمسيحية

ويتضمن :

١ ــ التنــافس :

شاهدت مسيحية القرون الوسطى على مدى ثلاثة قرون تقدم القوة الاسلامية وانتشار عقيدة المسلمين فى مختلف أقطار الأرض ، فارتفعت فى ذلك الوقت موجات من الكراهية ، اشتد هديرها ، وارتفع غليانها بمقدار ما بينهم من خلافات جوهرية ، فلم يستول الخوف على القلوب فى الجانب المسيحى بسبب تهديد العقيدة فقط ، بل ملأ الحقد القلوب أيضــا بسبب نجاح الاســلام فى المجالات : السياســية ، والاقتصادية ، والحضارية ، التى فرضت نفسها على المنطقة كنموذج اســلامى •

ظل غضب المسيحيين مكبوتا الى أن انفجر أثناء الحملات الصليبية فسقطت الضحايا من الجانبين ، وكان من بين الضحايا الكثير من صفوة الرجال • فاذا تذكر المرء أن المسيحيين استطاعوا الاستيلاء على الأماكن المسيحية المقدسة فينبغى ألا ينسى أنهم حققوا هذا النصر فى وقت خرج فيه المسلمون من محنة غارات التتار منهكة قواهم ، بعد أن خسروا كثيرا من مقومات حضارتهم ، وفقدوا العديد من العناصر التى كانت تشد آزرهم ، وتقوى جبهتهم • ومع هذا فقد كان للمسلمين آثار بعيدة المدى ، حيث أقام الغرب ــ بعد الحروب الصليبية ــ الكاتدرائيات فخرج من ظلمات القرون الوسطى ، واتخذ طريقه نحو عصر النهضة •

وان من دواعى الفخر للاسلام ــ وهو أمر يحتم علينا الاعتراف بأفضليته ــ أن موقفه تجاه المسيحية ــ فى القرون الوسطى ــ كان متسما بالسماحة ، اذ لم يحمل أتباعه على التعصب ضــد المسيحيين واضطهادهم ، فبينما القرآن الكريم يخير الكفار بين الايمان أو الموت ، يعطى الحرية « لأهل الكتاب » فى اقامة شعائرهم الدينية :

« قاتلوا الذين لا يؤمنــون بالله ولا باليوم الآخــر ولا يحرمون

ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١) •

بينما نرى هذا الموقف المتسامح من المسلمين مع المسيحيين ، تؤكد الأخبار التاريخية أنه لم يكن من الممكن فى القرون الوسطى أن يحتفل المسلمون بأعيادهم احتفالا عاما فى بلد مسيحى دون غضب الكنيسة ، واحتجاج الشعب أو تدخل الحكومة لمنع هذا الاحتفال •

ولم يتخل المسلمون عن سماحتهم الا بعد أن رأوا مواقف المسيحيين المتشددة ، وشاهدوا التعصب المسيحى الشديد ضد المسلمين فى الحروب الصليبية ، وفيما بعد الحروب التركية •

ساد الاعتقاد فى أوروبا حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى بأن قتال وابادة الكفار واجب ، ويقصدون بالكفار : المسلمين وأتباع المذاهب المختلفة الأخرى ، التى تخالف المسيحية ، وبهذا استيقظت أيضا فى بلاد الاسلام بعض القوى « الراديكالية » التى حاولت اجبار « الكفار » على اعتناق الاسلام ، ومارست بعض اجراءات الابادة الوحشية فى الماضى القريب •

٢ ــ نقد وتباين :

سرد المؤلف فى هذا الباب تبادل النقد والاتهامات بين المسلمين والمسيحيين كما أورد فيه اختلاف الآراء حول بعض المفاهيم ، فبدأ الباب بقوله :

يعترف الاسلام بأن المسيح عليه السلام نبى ، أوحى الله اليه برسالته ليبلغها الى قومه ، ولكن أتباعه غيروا فيها وبدلوا ، والدليل على ذلك ــ هكذا يقول المسلمون ــ تعدد الكتب المقدسة ، وكثرة العقائد وتباينها ، والمذاهب واختلافاتها فى أصول العقيدة ، والكنائس وتناحرها ، وهم فى نزاع مستمر وتناحر لا ينقطع • وقد نسخ الاسلام المسيحية ، اذ احتوى على ما فيها من حقائق ، وبين ما فيها من باطل • وبظهور محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ آخر الأنبياء ــ أصبحت المسيحية لاغية • لأن الاسلام ــ كدين سماوى ــ حل محلها •

يعتمد دعاة الاسلام فى أفريقيا ــ حتى يومنا هذا ــ فى مجال

---

(١) التوبة : ٢٩

نشر دينهــم بين الافريقيين على دعوى أن الافريقيين وان اعتنقــوا المسيحية ، فهم أيضا بالنسبة للأوروبيين شعوب مستعمرة لا تتساوى فى الحقوق مع أسيادهم الأوروبيين ، أما الاسلام فيعاملهم معاملة أخوية ، لهم ما لغيرهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما هو مطلوب من غيرهم لا فرق بسبب الجنس ، أو اللون •

أما فى الجانب المسيحى فقد فجرت العداوة التاريخية بين المسيحيين والمسلمين غضبا ، دفعهم الى وصف محمد — صلى الله عليه وسلم — بأوصاف لا تليق بوضعه كنبى يؤمن بدعوته الملايين من بنى الانسان ، كما هاجموا مفهوم التوحيد عند المسلمين على الرغم من أنهم يدعون أن المسيحية دين توحيد ، واتجهوا الى تصيد كل ما من شأنه أن يحط من قدر الاسلام فى نظر الناس ، ومنها — على سبيل المثال — نظرة الاسلام للمرأة ، فقد حاول المسيحيون افهام الأوروبيين على أن الاسلام قد حط من قدرها الى درجة أن المسلمين يعاملونها معاملة الرقيق[١] •

---

(١) اتخذ الأوروبيون وضع المرأة فى المجتمع الاسلامى هدفا لهم للنيل من الاسلام ، فزعموا أنه أعطى الرجل الحق فى استعبادها واسترقاقها ، وانها لم تخلق الا لمتعة الرجل وخدمته ، أما للغرب المسيحى فقد أعطاها الحرية ، ومنحها المساواة ، فهى تشاطر الرجل جميع الأنشطة الاجتماعية وتقف معه جنبا الى جنب فى كل مجالات الحياة •

فاذا وضعنا هذه الدعوى على مائدة البحث المحايد ، لتبين لنا أنها غير سليمة ، فمصادر المسيحية الأولى أوحت الى أتباعها بأن المرأة مخلوق ضعيف ، سريع الغواية ، فهى لا تملك القدرة على تنفيذ ما يطلب منها ، اذ تنهار عزيمتها فى أول امتحان ، وكان مصدر هذا التصوير ما جاء فى العهد القديم حول الخطيئة الأولى ، اذ جاء فى سفر التكوين أن حواء : « أكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل •• فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت » (التكوين ٣ : ٦ — ١٢) •

اعتمدت الكنيسة على هذا النص فى حكمها على المرأة بأنها أداة للشيطان فسلبتها آدميتها ، وأهدرت حقوقها كلية فى مقابل الرجل ، ولم يزل وضعها مهينا فى المجتمع حتى جاء عصر النهضة ، فتخلصت المجتمعات الأوروبية من سيطرة الكنيسة ، وترتب على ذلك ظهور الحركات النسائية التى نادت بالمساواة بين الرجل والمرأة ، ورغم ذلك فقد ظلت حقوقها مهضومة فى كثير من المجالات حتى منتصف القرن العشرين ، بل لا زالت آثار عدم معاملتها بالحسنى موجودة فى المجتمع الغربى حتى اليوم اذ تعطى فى بعض الشركات أجرا أقل من زميلها فى نفس العمل ، ولم يسمح لها حتى الآن بمزاولة ـــ

• • • • • • • • • • • •

= بعض الأعمال التى يقوم بهـا الرجل ، ومنها — على سـبيل المثال — ما شاهدته فى ألمانيا الغربية ، اذ ما زالت قراءة نشرة الأخبـار فى الاذاعـة والتليفزيون مقصورة على الرجل فقط ، ولم يحدث أن قرأتها امرأة مهمـا بلغت درجة ثقافتها ٠

أما فى الاسـلام فقد برأها القرآن الكريم من تهمة غواية آدم على الأكل من الشجرة ، اذ نسب اليهما معا الوقوع فى الخطيئة ، فقال تعالى :

((**فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه**)) (البقرة : ٣٦) ٠٠

بل نصت آية طه على أن الشيطان وسوس الى آدم فقط ، فيقول تبارك وتعالى :

((**فوسوس اليه الشـيطان قال يا آدم : هل أدلك على شـجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصـفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى**)) (طه : ١٢٠ / ١٢١) ٠

ولا شك أن تبرئة القرآن الكريم لها على هذا النحو ، قد رفع السـبة التى لحقت بها عبر القرون ، وكانت سببا فى اصـدار الكنيسـة الحكم عليها بأنها أداة الشيطان ٠

كذلك سـاوى الاسـلام بينها وبين الرجل فى كل عمل يتفق مع طبيعتها البيولوجية ٠ ولم يجعل أساس النوع سببا فى تفضيل الرجل عليها ، فسوى بينهما فى العبادات ، قال تعالى :

((**فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى**)) (آل عمران : ١٩٥) ٠

وفى الجزاء قال تعالى :

((**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة**)) (النساء : ١٢٤) ٠

((**ومن عمل صـالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة**)) (غافر : ٤٠) ٠

وأعطاها الحرية فى المعاملات المـالية والتجارية ، ولم يحرم عليهـا عملا الا اذا كان فيه خدش لحيائها ، وتهديد لعفتها وكرامتها ، وقد التزم المسلمون بذلك ، فأعطوها الفرصة فى جميع المجالات ، فكانت أستاذة تلقن العلم فى المجالس والمنتديات ، وراوية حفظت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه عنها الكثير من الرجال ، وعاملة ، وباحثة ، وقاضية ، ولاها عمـر ابن الخطاب الفصل فى منازعات السوق ٠٠ الخ ٠ ومنحوها حرية التصرف فى أموالها ومستقبلها فى الارتباط بشريك حياتها ٠

فمن يدرك هذا لا يسعه الا أن ينظر الى ما يثيره أعداء الاسلام من زوبعات حول وضع المرأة فى الاسلام نظرة استنكار وسخرية بهذه العقول التى عجزت عن ادراك الحقيقة الواضحة ٠

وعد الاسلام المؤمنين بجنات عدن تجرى من تحتها الأنهار . حيث ينعمون فيها بأنواع من الملذات المادية والنعيم المحسوس . ولا توجد هذه الصورة فى المسيحية(١) اذ تصورها للحياة الأخروية قائم على أن

---

(١) ليس المفهوم المادى للجزاء الأخروى اسلامى النوع ، بل هو عنصر مشترك بين جميع الأخلاق الدينية التى تعترف للناس بحياة أخرى ، سوف يجتمع فيها البدن والروح من جديد ، بعد أن يكونا قد انفصلا مؤقتا بالموت ، يجتمعان ليتلقيا معا ثوابا خالدا أو عقابا أبديا .

ولما كان المسيح قد تحدث عن حياة أخرى بعد الموت ، فالمسيحيون يعتقدون بأن الله سيثيب الانسان على ما قدم من عمل صالح ، ويعاقبه على ما اقترف من سيئات ، وليس بلازم أن يكون ذلك فى الدنيا ، فمن لم ينل ثوابه — وكذلك من لم يعاقب على ما ارتكب — فى الدنيا ، سيأخذه لا محالة يوم الحساب .

فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدى والأبرار الى حياة أبدية (متى ٢٥ : ٤٦) .

غير أن علماء العقيدة المسيحية اختلفوا فى تصور كيفية الحياة فى الدار الآخرة :

فيرى فريق أنها ستكون بلا أكل ولا شرب ولا نكاح ، مستدلين بما ورد فى انجيل مرقس ١٢ : ١٨ — ٢٥ وعليه فلن يكون هناك نبات ، ولا حيوان اذ خلقهما الله فى الدنيا لسد احتياج الانسان ، فلما انتفت الحاجة لزم عدم اعادة خلقهما ، ويؤلون ما يفيد ذلك .

ويرى جمهورهم أن الحياة الأخرى ستكون مثل الحياة الدنيا ، ففيها أكل وشرب ونكاح .. الخ . وهذه هى القاعدة العامة لدى الكنيسة اذ يعلم آباء الكنيسة وفقهاؤها أتباعهم عقيدة بعث الجسد ، وعقيدة اشتراكه مع الروح فى الجزاء ، وهما عقيدتان ، قائمتين على أساس متين من تعليم السيد المسيح والدعاة ، فقد قال يسوع لحوارييه :

« ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » .. (متى ١٠ : ٢٨) .

وقال أيضا :

« يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الاثم ويطرحونهم فى أتون النار ، هناك يكون البكاء وصرير الاسنان (متى ١٣ : ٤١ — ٤٢) .

وكثيرا ما صور جهنم على أنها

« الى النار التى لا تطفأ ، حيث دودهم لا يموت ، والنار لا تطفأ » .. (مرقس : ٩ : ٤٣ — ٤٤ — ٤٨)

• • • • • • • • • • • •

= ويصرخ الفتى الخبيث الذى كان يلبس الأرجوان والبز مترفها ولم يكن يتصدق على المسكين « لعاذر » حتى مات جوعا ، يصرخ وهو فى عذاب جهنم قائلا :

« يا أبى ابراهيم ! ·· ارحمنى ! وأرسل « لعازر » ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لسانى ،لأنى معذب فى هذا اللهيب » (لوقا ١٦ : ٢٤) ·

ونقرأ فى رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى :

«وأما الخائفون، وغير المؤمنين ، والرجسون، والقاتلون، والزناة والسحرة وعبدة الاوثان ، وجميع الكذبة فنصيبهم فى البحيرة المتقدة بنار وكبريت » (٢١ :٨) ·

وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تقل شيئا عن طبيعة النار ، فانها تقرر أنها نار واقعية ، لها سماتها من اللهب والحر والأوار الذى لا يخمد ·· الخ ·

ومع أن الاشارة الى الجنة ، كانت أقل ترديدا فى العهد الجديد من موضوع النار ، فانها تحمل كثيرا طابع السعادة الحسية بجانب السعادة الروحية ·

ولقد رأينا آنفا توسلات الفتى الخبيث ، يلتمس قليلا من الماء ليبل لسانه ، ولذلك يقرر يسوع فى أكثر العبارات صراحة وعموما النعيم الحسى :

« وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا ، لتأكلوا ، وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى ، وتجلسوا على كرسى تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر » (لوقا ٢٢ : ٢٩ ــ ٣٠) ·

وقال أيضا للذى دعاه :

« اذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقائك ، ولا اخوتك ، ولا أقرباءك ولا الجيران الاغنياء ، لئلا يدعوك هم أيضا فتكون لك مكافأة ، بل اذا صنعت ضيافة فادع المساكين ، الجدع ، العرج ، العمى ، فيكون لك الطوبى اذ ليس لهم حتى يكافئوك لأنك تكافأ فى قيامة الأبرار » (لوقا ١٤ : ١٢ ــ ١٤) ·

وأكثر من ذلك تحديدا أيضا قوله فى آخر اجتماع له مع حوارييه :

« وأقول لكم : انى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت أبى » (متى ٢٦ : ٢٩ ، ومرقس ١٤ : ٢٥ ، ولوقا ٢٢ : ٨) ·

بيد أن الجانب الحسى من نعيم الجنة أكثر ظهورا فى رؤيا القديس يوحنا ·

« من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التى فى وسط فردوس الله » (٢ : ٧) ·

« من يغلب فذلك سيلبس ثيابا بيضاء » (٣ : ٥) ــ « لن يجوعوا بعد ، ولن يعطشوا بعد ، ولا تقع عليهم الشمس ولا شىء من الحر » (٧ : ١٦)

وبهذا تتبين خطأ من نفى وجود تصور النعيم الحسى فى الدار الآخرة لدى الكنيسة المسيحية (راجع : بين الاسلام والمسيحية ــ ص ١٢٨ ــ ١٤٠) .

السعادة فيها هى خلود وتنمحى فيه الرغبات والهوى لأنهم يتلذذون برؤية الله سبحانه وتعالى • ولن يكون بعد الحساب خير ولا شر •

يشبه رأى الاسلام فى تقييمه للعالم الدنيوى — الى حد ما — تصور المسيحية لهذا العالم ، فالاسلام يرى أن الدنيا — على الرغم مما فيها من ملذات ونعيم — ليست الا معبرة للآخرة ، فهى دار فناء ، ونهايتها ليست بعيدة • وتربط المسيحية بين الدنيا وبين كثرة الخطايا والآثام ، ولما كانت النواحى الطيبة فيها معدودة ومتفرقة ، فقد حرص الدعاة على ابرازها لتساعد على اجتياز المرحلة الدنيوية بسلام أما المسلم فيعتقد أن تقواه وخشيته لله تفتح له أبواب النعيم فى هذه الأرض •

وبينما يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار ، لأنهم ارتبطوا معه بعهد ، يؤكد القرآن الكريم للمسلمين أنهم خير أمة أخرجت للناس :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس »(١) •

اعتمدت هذه العقيدة على ارادة الله وحده ، الذى أنزل وحيه عليهم ، فهم مكلفون بالزود عن هذا الوحى وتطبيق ما جاء فيه • فالعلاقة بين الله والانسان فى الاسلام هى نوع من الالزام والالتزام ، وبتعبير آخر : طاعة وثواب أو معصية وعقاب ، فليس الانسان صورة لله ، ولا يوجد أى تشابه بين السماء والأرض فالله هو الواحد القادر ، المتحكم فى العالم ، وليس كمثله شىء •

تخالف المسيحية هذا الرأى ، فالمسيحى مرتبط مع الله شخصيا فى كنيسته اذ أخذه الله بنفسه — عن طريق ظهوره (أى الله) فى صورة عيسى — الى مجتمع الأرواح المقدسة ، فقربه منه عن هذا الطريق • وهى بهذا التصور تخلع على الانسان صورة الهية ، وتعطيه مكانا غير مرئى فى النظام الالهى ، وهو أمر ينكره الاسلام •

بينما تبدو الكنيسة راعية للنظام الالهى ، فان الاسلام لا يعترف بطبقة معينة ، مكلفة بالحراسة على تنفيذ أوامر الوحى ، فالكل — بما فيهم أبسط الطبقات فى المجتمع — مكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • ولا يوجد فيه انفصال بين مجالات دينية ، وأخرى دنيوية ، لأن الله جمعهما فى القرآن الموحى به ليطبق فى الحياة الانسانية • بكل

---

(١) آل عمران : ١١٠

جوانبها • وعلى الرغم من أنه لم يعد فى امكان المسلم العادى اليوم أن يتبين الرأى الصحيح بسبب كثرة آراء المفسرين والفقهاء • فانه لا زال مسموحا له — من الناحية النظرية — أن يحاول بنفسه فهم القرآن ، ويصل الى رأى شخصى فى تفسيره ، اذا توفرت له امكانية البحث والتفسير •

تسبب ادعاء الكنيسة بالهيمنة والسيطرة على مجال الفكر وانفراد رجالها بتفسير الكتاب المقدس فى حدوث ظواهر خطيرة ، ومن أهمها ظاهرة اللامبالاة المدمرة والاتجاه الى التفكير الحر فى العصر الحديث ، مما أحدث انقساما حادا فى المجتمع المسيحى ، أما الاسلام فقد احتفظ بوحدته المتينة ، بفضل شمول التعاليم والقضايا الدينية ، وبحق كل مسلم فى الفهم والاستنباط •• ويمضى المؤلف فى شرح وضع المسلم فى المجتمع وعلاقته بالدولة فى المجالات الاجتماعية والثقافية وتحول نظم الحكم فى المجتمع الاسلامى الى تقليد وتطبيق النظم الغربية ، ثم يقول : فبالنسبة للعمل المشترك مع العالم الغربى المسيحى ، فانه يتطلب فصل الجانب الدينى عن المجالات المدنية ، العملية ، ويمكن على هذا الأساس فقط بناء نظام سياسى اجتماعى حديث • وبناء عليه فقد قامت دعوات فى المجتمع الاسلامى تطالب بالتسامح والتعايش مع كل الناس بصرف النظر عن معتقداتهم وأديانهم •

شهدت المجتمعات الاسلامية تيارات متعددة ، واجراءات حكومية متنوعة وقرارات — صدرت عن مؤتمرات رسمية وشعبية — مختلفة الاتجاهات ، ومتنوعة المصادر ، ففى سوريا ألغى النص على أن دين الدولة هو الاسلام ، لأن الأقلية المسيحية عارضته ، أما فى المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى كراتشى فى عام ١٩٤٩ فقد تقرر أن العدالة الاجتماعية فى الاسلام تحقق للمجتمعات فوائد أكثر مما تبشر به الرأسمالية والشيوعية • وبينما يرى المحافظون أن المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية لا تنفصل عن بعضها فى الاسلام ، ارتفعت أصوات تعارضهم ، وتدعى أن الله لم يوح لنبيه بشىء عن جوهر ونظام الدولة السياسية[١] وكان هدف كل هذه الحركات انشاء علاقة مع النظم

---

(١) يشير بهذا الى رأى الشيخ على عبد الرازق فى كتابه : « الاسلام وأصول الحكم » •

المدنية التى هى أسس الفكر الغربى ، لأنه بهذه الطريقة فقط يمكن قيام نظام اجتماعى مثمر . غير أنه ينبغى أن يرتبط بالعقيدة لأنه لا تأثير له بدونها(١) .

٣ ـ فكرة الثيوقراطية(٢) :

لم يخترع الاسلام فكرة الثيوقراطية ، فقد بلغ أنبياء العهد القديم أقوامهم بأن الله هو الحاكم الأوحد ، ونادى اليهود بأن حكم الله على الأرض مؤكدا .. وتحدث عيسى فى هذا الموضوع ، فأخبر بأن مملكة الله توشك أن تتحقق ، .. وأن الانسان ينبغى أن يحرر نفسه من عالم الخطيئة ، ويسلم أمره لله ، فيدخل فى حمايته ، ومن يفعل ذلك يصبح من عباد الله المصطفين .. ويمضى المؤلف فى بيان أن مملكة الله فى الفكر المسيحى لن تتحقق على هذه الأرض ، بل ستقوم بعد قيام الساعة . غير أن الاسلام بانتصاراته العسكرية والسياسية أعلن قيام حكم مملكة الله فى هذه الدنيا ، ومن هذا المنطلق لم ينفصل الدين عن السياسة فأصبح الجهاد لقيام مملكة الله الدينية ، والدعوة الى دينه تدعيم للسلطة السياسية أيضا . فهما صنوان لا يختلفان ، أو شىء واحد لا ينفصل الى جزءين متباينين اذ يؤديان الى نتيجة واحدة ، وهدف مشترك ، ألا وهو اعلاء كلمة الله فى الأرض وتطبيق أحكامه على أفراد المجتمع .

قامت علاقة متشابهة فى القرون الوسطى بين الكنيسة والدولة ، غير أنها لم تكن سوى محاولة للتوفيق بين سلطتين متنازعتين اذ تدل الصراعات المتعددة بين القيصر والبابا على أن الكنيسة حاولت أن تخضع القيصر لها ، وكانت هناك أيضا محاولة مضادة من جانب القيصر . وبعد

---

(١) ولهذا يستغل الحكام العاطفة الدينية عند المسلمين ، فيتظاهرون بالدفاع عن الاسلام ـ ويسلكون فى سبيل ذلك أساليب لا ترضى الا عاطفة الجماهير ـ فى حين أنهم ينقضون بنيانه حجرا حجرا .

(٢) اصطلاح يونانى يطلق ويقصد به « السلطة الالهية » وهى عبارة عن نظام من الحكم تنفرد به الكنيسة فى تسيير دفة شئون الدولة ، فالأهداف الدينية تحتل فيها مكان الصدارة ، ورجال الدين هم أصحاب الأمر والنهى فيها ، ومن أمثلة هذا النوع من الحكم : الدولة اليهودية بعد رجوع اليهود من المنفى ، وسلطة الكنيسة الكاثوليكية . ويطلق الآن على كل نظام يتخذ الدين سندا له فى الحكم من زاوية أن قراراته لا تقبل المعارضة ، لأنها تنفيذ لأوامر الله .

هذا الصراع — وعندما تبين أن لعبة شد الحبل هذه لم تصل الى نتيجة فاصلة لأحد الجانبين — اتفق الطرفان على توزيع السلطة بينهما ، والتزم كل بعدم تجاوز حدود سلطاته • ثم حددت النهضة الحديثة مجال كل من الكنيسة والدولة ، فانفصلتا عن بعضهما انفصالا كليا •

بقيت الثيوقراطية الاسلامية محتفظة بوحدتها ، فلم يصبها ذلك الانفصال الذى حدث فى أوروبا بين الكنيسة والدولة ؛ لأن الله طبقا للعقيدة الاسلامية هو مصدر كل شيء ، ومن هنا فهو يفرض سلطانه على العالم • وهذه عقيدة يفهمها الانسان البسيط لأنها خالية من التعقيد الذى اشتملت عليه العقيدة المسيحية فى اتجاهها الى أن الله تحمل الألم ليصل بالانسان عن طريق هذا الألم الى السعادة الأخروية •

عارض الاسلام هذا الفهم المسيحى منذ محمد — صلى الله عليه وسلم — معارضة قاطعة ؛ فلم يتعاون — على امتداد تاريخه — فى الهجوم عليه وبيان خطئه •

اتجه المؤلف فى مقارنته بين موقف الاسلام والمسيحية من تحقق الثيوقراطية فى هذا العالم الى أن نفى المسيحية وجودها فى هذه الحياة يعطيه الأمل فى حصولها بعد الموت ، أما اذا تحققت فى هذا العالم — حسب العقيدة الاسلامية — فلا يبقى أمل فى حدوث شيء بعد قيام الساعة ، ونسى أن تطبيق أحكام الله فى هذه الحياة هو وسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية ، واقامة العدل فى الأرض ، كى يمحى الظلم ويقضى على الشر والاثم فى المجتمع ، فينعم الأفراد بحياة ترفرف عليها راية العدل ، وينشر السلام أجنحته فى أرجائها ، وبالاضافة الى هذا ينعمون بسعادة من نوع آخر فى الحياة الأخروية جزاء ما بذلوا من جهد فى الحياة الدنيا لاقامة حكم الله •

أما ما يدعيه من الأمل فى قيام مملكة الله فى الآخرة فهو تصور خيالى ، فلن يوجد فى الآخرة الا الخير ، ومن هنا فليس هناك فائدة فى إقامة مملكة الله بالمعنى المعروف اذ من مقتضيات اقامتها القضاء على الشر ، ولا توجد نوازع شر عند الانسان إذ هى من معالم هذه الحياة الدنيا ، فكان الأولى به أن يقر ويسلم بما يقبله العقل وهو أن الحياة الدنيوية ، بما فيها من صراع بين الخير والشر تقتضى وجود أحكام الله لتكون عونا للخير فى مطاردة الشر ، أما الحياة الأخروية ، ففيها الجزاء لمن أسهم فى الخير والعقاب لمن كان أداة للشر •

٤ ــ الله فى المسيحية والاسلام :

ان من المسلم به لدى المسلم أنه يعبد الله ، ولكن لا يقبل عقله ، ولا يسلم أبدا بأن الله يضحى بشىء من أجل الانسان ، وأبعد من هذا أن يضحى بابنه ان سلم ــ على فرض المستحيل ــ أن له ابنا ، ولهــذا يستنكر ويستقبح تلك الفكرة المسيحية التى تقول بأن الله غفر ذنوب الانسانية بهذه التضحية على خشبة الصليب ويرفضها رفضا باتا ، ويصف القائلين بها بأنهم فى ضلال مبين • نعم ! يوصف الله بأنه غفور ، ولكن غفرانه يتعلق بارادته وحده ، حتى ولو التزم الانسان بأوامر الشرع ونواهيه ، لأن العمل الطيب لا يكون وحده سببا فى غفران الله ، بل لابد من ارادة الله غفران الذنوب ، فلو لم يرد لا تغفر الذنوب ، ولو أكثر الانسان من عمل الصالحات • ولكن المسيحية تتصور الذنوب بصورة أبعد من هذا ، اذ تربط بينها وبين علاقة البعــد عن الله ، التى ورثها الانسان من لدن آدم حتى الآن •

فالله فى الاسلام عادل ، وان كان غفرانه يتجاوز العدل ، اذ يجوز أن يغفر لمن عصاه ، فيتجاوز عما ارتكب من آثام فى حقه تعالى ، ومن هنا فليس للانسان ــ فى المقام الأول ــ طريق الى رحمة الله الا ما قدمت يداه من حسنات ، فكل انسان مكلف يعمل ما يوصله الى غفران الله ذنوبه ، ولا يجوز الاعتماد على أحد سواه •

ولهذا يرى المسلم أنه ليس من العدل :

أن يقتص ممن لم يرتكب ذنبا •

وليس من المعقول :

أن عيسى يقبل طائعا تنفيذ هذا الحكم البعيد عن روح العدالة •

•• وتناول المؤلف تبرير هذا الموقف من عيسى ــ طبقا لمفهوم المسيحيين ــ ولكنه لم يخرج عن ترديد ادعاءات الكنيسة التى لا يقبلها عقل بشرى • ثم يحاول شرح مفهوم الصلب عند المسيحيين مدعيا أن الله لم يتخل عن عيسى وهو على خشبة الصلب ، لأن عملية الصلب هى تخليص البشرية •

بينما الاسلام ينكر أن المصلوب هو عيسى ، بل شبه لليهود أنهم صلبوه فى حين أن المصلوب كان شخصا آخر غير عيسى عليه السلام •

دار حديث المؤلف فى هذا الباب حول نقطتين رئيسيتين ، خالف فيهما الاسلام المسيحية ٠

الأولى : بنوة عيسى ٠

الثانية : صلبه ٠

وقد وضح القرآن الكريم الرأى فيهما ، فبين أن عيسى عليه السلام لم يكن ابنا لله ، وانما هو عبده ورسوله :

« انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله »(١) ٠٠

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله »(٢) ٠٠

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل »(٣) ٠٠

كما وضح انه لم يصلب ولم يقتل ، وانما شبه لهم ذلك ، فقال تعالى :

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم »(٤) ٠٠

وكتب علماء الاسلام العديد من الكتب فى توضيح فساد عقيدة المسيحيين فى هاتين النقطتين ، فبينوا فى الأولى أن نسبة البنوة الى الله كانت موجودة فى بعض المجتمعات البشرية قبل المسيحية ، فتأثر بها بعض دعاة المسيحية فى العصور الأولى ، فاعتنقوها ودعوا اليها ، ولما كثر المعارضون لهم استخدموا كل السبل ــ بما فيها قوة الدولة ــ لفرضها على المسيحيين ، ونجحوا فى تعقب الداعين الى بشرية عيسى عليه السلام والقضاء عليهم ، فلم يبق فى المجتمع من يستطيع معارضة هذا الرأى ــ وهو بنوة عيسى الالهية ــ علانية ، ثم جاءت الأجيال التالية فتعلموها على أنها العقيدة الأصلية التى لا تعارض ، ولا يجوز انكارها والا خرج من المسيحية ، فصارت بذلك عقيدة رسمية تدافع عنها الكنيسة ، فترمى من يعارضها بالكفر والزندقة(٥) ٠

(١) النساء : ١٧١

(٢) النساء ١٧٢

(٣) المائدة : ٧٥

(٤) النساء : ١٥٧

(٥) راجع هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب « بين الاسلام والمسيحية » تحقيق الدكتور محمد شامة ــ مكتبة وهبة ٠

أما عن كيفية وقوع الصلب على رجل آخر غير عيسى عليه السلام — مع عدم ادراك اليهود ذلك ، فظلوا على اعتقادهم بأن المصلوب عيسى ولم يكن هو — فقد بين العلماء أن الظروف الملابسة لعملية وقوع الصلب تجيز ذلك . وتوضيحها كما يلى(١) :

١ — لم يكن عيسى معروفا شخصيا لدى رجال الشرطة التى أمرت بالقبض عليه ولذا أخذوا معهم « يهوذا الأسخريوطى » ليعينه لهم .

٢ — ثبت أن يهوذا ندم على استعداده لمعاونة الشرطة فى تعيين شخص عيسى من بين التلاميذ ورد لهم المبلغ الذى أخذه منهم .

٣ — يحتمل بناء على هاتين الملاحظتين وهما مذكورتان فى الانجيل نصا — أن : يهوذا أدركته الندامة قبل وصوله مع رجال الشرطة الى المكان الذى كان فيه عيسى مع تلاميذه فعين لهم أحد التلاميذ على أنه عيسى ، ولم ينكر التلميذ رغبة فى انقاذ معلمه فأخذ وصلب .

ولا يرفع هذا الاحتمال ذهاب مريم المجدلية الى القبر واخبارها بقيام عيسى عليه السلام ، لأنها لم تكن مع التلاميذ ، حين ذهبت الشرطة للقبض عليه ولم يخبروها بأن المقبوض عليه ليس عيسى حتى لا ينتشر الخبر ، فتعاود السلطات البحث عن عيسى ، كذلك لم يكذبوها حين روت أنه قام من قبره ، لأن فى ذلك رفعا لشأنه وعاملا قويا لحمل الناس نفسيا على الايمان بالمسيحية(٢) .

وبعد أن يستعرض المؤلف بعض التصورات عن الله فى الاسلام — وخاصة عند الصوفية — ، وفى الكنيسة المسيحية يختم الباب بقوله : « ليس بالشرع يصبح الانسان مسيحيا ، بل بالايمان بالسيد الذى أخذ على عاتقه ذنوب العالم بواسطة التضحية بنفسه والقيامة من القبر فأصبح مخلصهم .

لا يوجد مثل هذا المخلص فى الاسلام ، وهو لا يقبله أيضا ، لأن النهاية بهذه الطريقة — كما يعتقد المسيحيون — اهانة لعظمة الله سبحانه وتعالى ، اذ ينبغى أن ينفرد بالسلطة يمنحها لمن يشاء من عباده

---

(١) هذا استنتاج من قصة الصلب كما وردت فى الأناجيل ، فليرجع اليها القارىء ان أراد الالمام بجميع جوانب القصة .

(٢) قارن « بين الاسلام والمسيحية » ص ١٩٧

تكريما له • فبين عيسى — كما يتصوره المسيحيون — ومحمد اختلاف كبير وهوة عميقة ، فالأول : كلمة الله صارت انسانا ، أى طبيعة الهية تجسدت فى صورة بشرية • والثانى : نبى أوحى اليه ليبلغ الناس رسالة ربه ، ولهذا فمحور الاسلام هو الكلمة ، التى تعنى العقل والوضوح ، وليس التأملات والتخيلات الميتافيزيقية ، ومن هنا فقد جاء للانسان بأفضل الأديان كلها ••

٥ — التبشير المسيحى :

يقيم الاسلام حواجز ضخمة أمام المسيحية فى كل مكان حل فيه دعاته وعلماؤه وما ذهب اليه القدماء من أن الاسلام يعتبر بالنسبة للشعوب البدائية خطوة أولى ممهدة لاعتناق المسيحية ، فقد أظهر واقع الأحداث التى عاصرها المبشرون خطأه فاعتناق الاسلام يقود الانسان الى الايمان بوحدانية ، لها من القوة على النفوس ما يمكنها من تحصينها ضد الدخول فى المسيحية ، بعد أن صار المرء مسلما •

يختلف الوضع بالنسبة للمسيحية ، اذ الايمان بعيسى هو الطريق الوحيد الى الدخول فيها ، ولكن كيف يستطيع المبشر الوصول اليه ، قد ينجح فى اقناع المرء بأن المسيح هو المخلص للبشرية ، اذا تجنب شرح العلاقة المعقدة بين الله والانسان فى العقيدة المسيحية ، ولهذا يؤثر كثير من المبشرين توجيه دعوتهم الى الشعوب البدائية ، ويتجنبوا دعوة المسلمين الى اعتناق المسيحية ، ويتضح من هذا أنهم يشعرون بالضعف أمام المسلمين ، وليس عندهم ثقة لمواجهة الاسلام مواجهة علنية وصريحة ، خاصة بعد أن أصبح من المؤكد أن المسيحية فقدت كثيرا من قوتها نتيجة تحول مجتمعاتها الى اتباع الأسلوب المدنى فى حل قضاياها فى جميع مجالات الحياة • غير أننا ما زلنا نسمع كثيرا من تبريرات فشل التبشير منها — على سبيل المثال — أنه ليس من السهل حمل المسلم على تغيير دينه بالمسيحية وعليه فلا مجال للبعثات التبشيرية فى البلاد التى نبع فيها الاسلام وهى : الجزيرة العربية ، وسوريا ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، لأنها لن تفلح فيها اطلاقا • أما فى : فارس ، والهند ، وجزر المحيط الهادى ، فقد نجحت فيها البعثات التبشيرية ، الا أن نجاحها كان أقل مما كان متوقعا •

بينما منيت بالفشل جهود البعثات التبشيرية وانكمش الى حد ما انتشار المسيحية ، فقد استطاع الاسلام أن يكسب مركزا قويا لدعاته

فى العهود الأخيرة لأن قبوله للحياة قضى على كل من نافسه • كذلك مكنه استيعابه للأساليب المختلفة فى مجالات الحياة من التغلب على كل تحد ؛ حتى ولو كان مستندا على خطة محكمة وتدبير منظم •

لم يستطع المبشرون تحقيق قول عيسى :

« اذهبوا الى كل مكان فى العالم ، وعلموا كل الشعوب » ، اذ من الصعب تنفيذها وخاصة فيما يتعلق بكلمة « كل » •

كان الواجب الأول للبعثات التبشيرية هو تنفيذ هذه الوصية ، أما مسألة أثرها فيمن يدعون الى المسيحية ، فمسألة ثانوية • فلولا التضحية الفردية من بعض المبشرين لتعسر انتشار المسيحية أكثر من هذا . ولأصيبت بنكسات متتالية •• فالبروتستانت لا يسعون لتحويل كل الشعوب الى مذهبهم ؛ وان كان دعاتهم ينتشرون فى جميع أنحاء العالم ، فالمسألة تتعلق بالجهود الفردية •

أليس من المحتمل أن يكون سبب تقهقر الكنيسة المسيحية الاعتقاد القديم بالقوة السحرية (الشيطانية) للاسلام ولنبيه ؟ •

كان من الطبيعى أن تختلف الآراء فى الاجابة على هذا السؤال !! •

أصبحت صورة الاسلام فى عصرنا الحاضر — بناء على الأبحاث التى ظهرت حديثا — فى نظر الانسان فى العالم الغربى أفضل مما هى لدى بعض المسلمين أنفسهم • وللأسف فقد سادت صفة اللامبالاة فى المجتمع الغربى نتيجة لهذه المعلومات الجديدة عن الاسلام ، بحجة التسامح وعدم التعصب ضد الأديان الأخرى ومما ساعد على انتشار هذا الاتجاه أن الايمان بالمسيح « كمخلص » فقد تأثيره على النفوس فى هـذا العصر ، واستبدل به محاولة نشر أخلاق المسيح • وبهذا يلتقى هـذا الاتجاه مع التعاليم الاسلامية •

يقف الاسلام فى هذا المجال أمام المبشرين محاولا اثبات وجوده على أساس من تمزق المسيحية وضعف عقيدتها ؛ فهو يرى أن الانجيل قد حرف وبدل ، وأنه — أى الاسلام — جاء لتصحيح ما غيرته الأجيال بعد عيسى فى وحى الله ، وأن تعاليمه سـوف تنتصر على كل هـذه التعاليم ، التى أدخلتها أهواء البشرية ، فغيرتها وبدلتها •

يعتقد المتفائلون من المسيحيين أن قبول العالم الاسلامى للحضارة

الغربية تدريجيا سيحلله من التعاليم الاسلامية ويأخذ بزمامه الى المسيحية ، ولكن الواقع يدل على أن المسلمين — حتى الذين مال بهم اتساع مداركهم الثقافية الى التحرر — لم — ولن — يؤمنوا بالمسيحية ، فضلا عن أن جماهير المسلمين يدافعون عن دينهم دفاع المستميت ضد المسيحية ، وخاصة المسيحية بصورتها التى لم تكن أبدا نموذجا يحتذى به •

يستعرض المؤلف ما تعانيه البعثات التبشيرية من الأخطاء التى يرتكبها رؤساؤها — ومنها شعورهم بالتفوق على غيرهم فى حياتهم الدينية — وكذلك من دعاية العالم الغربى بأنه متفوق على غيره من المناطق الأخرى فى العالم ، ثم يبين أنه طالما سارت عملية التبشير جنبا الى جنب مع المصالح السياسية فانها تبعد عن روح المسيحية • ولذا فينبغى أن تركز اهتماماتها على العقائد الدينية فقط حتى تتجنب العوائق التى تعرقل سيرها • ثم يختم هذا الفصل بالحديث عن الأقليات الاسلامية ، فيذهب الى أنه من المستحيل تحويل أحدهم الى المسيحية • لأن من يفعل ذلك يعد خائنا لطائفة المسلمين التى ينتمى اليها • ومن المسلم به أيضا أنه يوجد الترابط الأسرى أو العشيرى أو القبلى الذى يجعل من المستحيل على الفرد أن يخرج عن تقاليد وعقيدة من يرتبط بهم ، وإلا اصطدم بعقبات لا قبل له بها •

٦ — النشاط التبشيرى فى القرون الماضية :

لم تنشط البعثات التبشيرية فى العالم الاسلامى فى القرون الأخيرة فقط ، بل يمتد نشاطها فى أعماق الماضى الى ما يقرب من ألف عام ، فقد انتشرت المسيحية فى القرن العاشر الميلادى فى البلاد الأوروبية كلها تقريبا ، ثم استطاعت الكنيسة فى هذا التاريخ أن تولى وجهها شطر الأقطار الأخرى خارج القارة الأوروبية وكان أول من خرج مبشرا مجموعة الرهبان من الفرنسيسكان(١) والدومنيكان(٢) اذ أرسلوا

(١) الفرنسيسكان : رهبانية أسسها القديس فرنسيس الاسيزى (١٢١٠ م) وجعل الفقر أساسا لحياتها • رهبانها فى الشرق هم « حراس الأراضى المقدسة » حطوا فى القدس (١٢٢٩ — ١٢٤٤ م) وفى دمياط (١٢٤٩ — ١٢٥٠) وفى القاهرة (١٣١٠) وفى بيروت (١٤٤٠ م) وفى حلب ١٥٧١ م) وفى طرابلس لبنان (١٥٨٢ م) وفى الناصرة وصيدا (١٦٣٢ م) •

(٢) الدومينيكان : أو الاخوة الواعظون : هم أعضاء الرهبانية التى =

رهبانهم وراهباتهم الى الشرق عن طريق شرق أوروبا ، وقد واصل أفراد منهم رحلته حتى وصل الى الصين ، ولكنهم للأسف اتبعوا طريقة بعيدة كل البعد عن روح الانجيل ، فقد أجبروا المسلمين فى البلاد التى خضعت لسلطان الأوروبيين فى الحروب الصليبية على المشاركة فى تأدية الصلوات والطقوس المسيحية ، وسماع الدروس التى كان يلقيها الوعاظ لحمل المسلمين على اعتناق المسيحية .

افتخر الدعاة المسيحيون بكثرة الأعداد التى تحولت الى المسيحية ، ولكن معظم الذين اعتنقوا المسيحية لم يعتنقوها عن ايمان صادق ، بل كان اعتناق البعض سطحيا ، والبعض الآخر تقية ، سرعان ما كفروا بها ، اشتهر « فرنسيس الأسيزى »(١) فى هذا الميدان ، وكانه له شجاعة حملته على عدم خشيته السلطان فى نشاطه التبشيرى ، وكان نشـــاطه ظاهرة فريدة فى تاريخ التبشير فى العصر الوسيط ثم أرسل باباوات روما فيما بعد رسلا من الفرنسيسكان والدومينكان الى السلطان لحمله على اعتناق المسيحية ، فاعتبر هذا العمل اهانة للسلطان . أدت الى تعميق الخلاف بين أتباع كلا الدينين ، بعد ما أثبت الطريق المباشر بين العرشين استحالة حمل طرف على اعتناق دين الطرف الآخر .

لاح الأمل للبعثات التبشيرية فى شمال أفريقيا حيث أنشئت مراكز مسيحية للتجارة ، فقد أقاموا كنائس خاصة لهم ، امتد نشاطها فتجاوز رعاية المسيحيين الى محاولة تحويل آخرين الى المسيحية . وكان « ريمون لول »(٢) من أنشط المبشرين فى هذه المنطقة ، فقد حاول انتزاع عطف علماء مسلمين عن طريق المناقشات الدينية ، لأنه كان يرى أنه لو نجح

= أسسها القديس عبد الأحد لدحض البدع (١٢٠٦م) كانوا أرباب التعليم الفلسفى واللاهوتى فى القرون الوسطى . دخلوا البلاد الشرقية فى القرن ١٧ ، أسسوا اكليريكية الموصل (١٨٨٢ م) وكانت لهم فيها مطبعة عربية شهيرة . لهم فى القدس مدرسة الكتاب المقدس .

(١) فرنسيس الاسـيزى (١١٨٢ ــ ١٢٢٦ م) : مؤسس رهبانيـة الفرنسيسكان وهب نفسه لكنيسته والمسيح ويحكى عنه أنه كان يمتـازا بالتواضع وروح البساطة والفرح وحبه للفقر .

(٢) ريمون لول (١٢٣٢ ــ ١٣١٥ م) راهب فرنسيسكانى . ولد فى « مايورقة » . بشر فى افريقية . عارض فلسفة ابن رشد وشجع تعليم اللغات الشرقية وله مؤلفات بالعربية .

فى تحويل هذا الصنف من الناس الى المسيحية فلسوف يعتنقها كثير من عامة المسلمين • ولكن العلماء كانوا أرسخ فى المناقشات واستخدام الحجج الدامغة ، فدافعوا عن دينهم دفاعا قويا ، الا أن « لول » لم يعرف الملل فاستمر فى نشاطه حتى قتل فى عام ١٣١٥ م •

سيطر الجدل آنذاك على الجو العام داخل الكنيسة المسيحية ، فشوه صورة المسيحيةعند المسلمين ، كذلك ساعد انتشار أسلوب اليمينيين المتطرف فى الكنيسة على اعطاء صورة خاطئة عن جوهر المسيحية ، كما أخفيت حقيقة المسيح وراء تعصب المبشرين الذى لا يمثل المسيحية •

فالعلاقات التى دفعت الى شن الحروب الصليبية وواكبتها — حيث ارتكبت الرذائل المنافية للمسيحية من وحشية واضطهاد — لم تدع للمسلمين فرصة تقبل المسيحية . ساد الاعتقاد فى معسكرات الصليبيين أن بالامكان جذب المسلمين الى جانب المسيحية عن طريق الاغراء بالمادة ، ولكن الأحداث أثبتت أن هذا الرأى سطحى ، وأنهم أخطأوا فى تقدير هيمنة العقيدة الاسلامية على أرواح المسلمين •

ومما يؤسف له أن الرغبة فى استعمال الأساليب القديمة بقيت لدى شعوب دول الاستعمار فى القرون المتأخرة ، ففى شرق الهند مارس الهولانديون أساليب الضغط — حتى عام ١٨٠٠ م — لحمل المسلمين على اعتناق المسيحية ، وهو أسلوب لم تستعمله البرتغال فى قرنين سابقين على الاستعمار الهولاندى • ويخيل للمرء أنهم كانوا يريدون تعويض ما فات البرتغاليون عمله فى ابان سلطتهم التى استمرت قرنا كاملا من الزمن • كذلك من دواعى الأسف أيضا ، أنهم منعوا اخوانهم الكاثوليكيين أيضا من اقامة شعائرهم الدينية أمام أعين المسلمين ، وأوعزوا اليهم أن يقيموها سرا حتى لا يراهم المسلمون • وظنوا أنهم بمنعهم المسلمين اقامة الصلاة فى المساجد سوف يحلون مشكلة الاسلام التى تواجههم فى هذه المستعمرات وأصدروا قانونا بأن من يضبط من المسلمين يؤدى شعائره الدينية علنا يعاقب عقابا صارما ، الا أنهم لم يستطيعوا مقاومة اصرار المسلمين وتصميمهم على الالتزام بأحكام دينهم فاضطروا للسماح لهم بالصلاة فى المسجد والسفر لحج بيت الله الحرام فى مكة •

يستطيع المرء أن يسرد العديد من الأمثلة التى توضح الأخطاء التى وقع فيها المبشرون ، وكان كل خطأ يؤدى الى نتيجة مؤلمة بالنسبة

للمسيحيين ولم ينتبه لها أحد الا فى القرن التاسع عشر الميلادى حيث أدركوا أخيرا أنه يجب عليهم حصر نشاطهم فى توضيح الانجيل ، ولكن أخطاء الماضى لا زالت تمثل ضغطا شديدا على كاهلهم •

تنتشر بعثات التبشير فى جميع أنحاء العالم ، تدعو الى المحبة والاخوة كذلك لاقت المدارس التى أنشأها المبشرون فى العالم الاسلامى قبول واستحسان المسلمين لأنها تعلم أطفالهم تعليما يجعلهم متفوقين على أقرانهم فى المدارس الوطنية ، وهى فى الوقت نفسه تلقنهم « المبادىء الأخلاقية » كما أصبح للمستشفيات الخاضعة للبعثات التبشيرية تأثيرا كبيرا على نفوس المسلمين ، بما تقوم به من خدمات طبية على أعلى مستوى • وقد برهن كثير من أنواع النشاط الدينى — وخاصة ما يقوم به المسيحيون الأمريكيون — على نجاح حمل المسلمين على قراءة الانجيل ، وتشجيعهم على قراءته لذات القراءة ، وليس لحملهم على تغيير دينهم ، وبالاضافة الى هذا ، فقد استطاعت جمعيات الانجيل — بمساعدة بعض المسلمين المتخصصين — ترجمة الانجيل ونشره ، فاذا ما ذكرت التقارير أن قراءة الانجيل من المسلمين فى ازدياد مستمر ، فانما يرجع ذلك الى مستوى الثقافة وانتشارها فى طبقات المجتمع الاسلامى •

٧ — هل يوجد تقارب ؟ :

عندما يلاحظ المرء العلاقة بين الاسلام والمسيحية فى جوانبها الظاهرية فانه يضطر الى الاعتقاد بأن تحويل المسلم الى المسيحية أسهل من تحويل كافر — مثلا — اليها ، لأن لدى المسلم فكرة عن المسيح عن طريق كتابه المقدس ، ولكن الواقع ينفى هذا الاعتقاد ، لأن المسلم لا يمكن أن يكفر بمحمد ، وهو ما يتطلبه اعتناق المسيحية طبقا لمفهوم الكنيسة ، بينما ظروف الكافر تمكنه من الاتجاه مباشرة الى المسيحية • ولهذا فمهمة المبشرين بين المسلمين صعبة جدا •

واذا اعتقد المرء أن القرب من الحضارة الغربية يعنى فى الوقت نفسه قربا من الكنيسة المسيحية ، فيجب عليه ألا ينسى أن التجارب أكدت أن شك بعض المسلمين فى تراثهم أقرب الى دفعهم الى الزندقة من تحويلهم الى المسيحية ، كذلك عدم الرضا الداخلى بما فى الدين من تعاليم يقودهم الى تبنى دعاوى الاصلاح التى تساير التطور ، والتقدم ، كما يحدث الآن فى الدول الاسلامية الحديثة •

تصطدم دعوة اصلاح الفكر الاسلامى بمعارضة قوية فى العالم الاسلامى ، فليس هناك اتفاق عليها ، كما اعتقد بعض المراقبين الأجانب • ومما يدعو الى الأسف أن صفة اللامبالاة ازاء الدين أقرب الى المثقفين من التحول الى المسيحية ، اذ يتحول اهتمامهم الى الجانب العقلى فى العالم الغربى ، والى العلوم الطبيعية الحديثة والى البحوث العلمية ، وأخيرا وليس آخرا الى حرية السلوك فى الحياة الاجتماعية •

ان من المسلم به أن الفكر الاسلامى تأثر — دون وعى — على امتــداد القرون الطويلة بأفكار مسيحية ، ولكنه لم يقبلها للتقرب من الدين المسيحى ، بل لمجرد استعمال أسلحة مماثلة فى حلبة الصراع الفكرى •

ففكرة تفوق المسيحية بالنسبة للمسلم فكرة خاطئة ، كذلك أصبح الحديث — بعد التجربة الاستعمارية — عن تفوق الحضــارة المسيحية نادرا ، فقد قضت النزعة القومية النامية ، والشعور بالانتماء العربى على مثل هذه الدعاوى ، ويضاف الى هذا موقف المثقفين الذين يعرفون الكثير عن البلاد الغربية ، ويدركون — اعتمادا على تجاربهم — أن تقدم البلاد الغربية سياسيا واقتصاديا وعلميا لا صلة له بالمسيحية •

لقد تسربت فى الرمال آمال بعض المثاليين فى أن القضاء على التناقضــات السياسية بين الدول ســيقرب المجالات الدينية من بعضها ، لأن تعاليم الدين الجوهرية قد اختفت من العالم الغربى ، ويدعى البعض أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الاسلام ، وتقوم آمال الجانب المسيحى على أسس غير واقعية أيضــا ، اذ يعتقدون أن انهيار الجانب الاسلامى سيكون احدى نتائج الاستقلال ، ولكن ما حدث هو عكس هذا الاعتقاد ، فقد ظهر أن الشعور بالقومية عند بعض الشعوب الاسلامية ، أعطى للدين قوة جديدة ، كما هو مشــاهد الآن — على ســبيل المثال — فى باكستان ومصر •

يلاحظ المرء مما عرضه المؤلف فى هذا الباب أنه :

يستحث البعثات التبشيرية على تجنب الأخطاء ، التى كانت سببا فى تعثر انتشار المسيحية •

ويركز على الاهتمام بنشر الحضــارة الغربية فى العالم الاسلامى لأن تقبلها يخلخل التمسك الشديد بالتراث •

كما يبرز أهمية المدارس الأجنبية فى تربية أطفال المسلمين على الأخلاق المسيحية ، فهى وان لم تتحول الى المسيحية ، فلا أقل من تمزيق أوصال الرباط الذى يربطها بالدين الاسلامى ٠

ونستنتج من هذا الاتجاه أنه ، وان أوهم القارىء فى مقدمة الكتاب أنه لا يبغى الا دراسة الاسلام ، لأنه أصبح القوة الدينية الثانية فى العالم بعد المسيحية الا انه مال الى اسلوب الذين يحذرون من الاسلام ، ويدعون اخوانهم المسيحيين الى اتخاذ كافة الاجراءات الممكنة لمواجهته ، والحد من انتشاره ، وبذلك يكون قد اتفق فى الهدف مع من سبقوه من رجال الكنيسة والمستشرقين ، الا أن أسلوبه فى المواجهة اختلف عن أسلوبهم ٠

فبينما افترى الأولون على الاسلام ، فحاولوا تصويره لأتباعهم بصورة تنفرهم منه ، ودفعوهم الى مواجهته بالقوة ٠

اتبع هو أسلوب عرض عناصر القوة فى الاسلام ، مع بيان النواحى التى يجب على المبشرين العناية بها ليبعدوا المسلمين عن اسلامهم ٠

— فمنهجه عرض ودراسة — وفى معظم جوانبها انصاف للاسلام لم يكن عند الأولين ٠

— ومنهجهم اتهام وافتراء على الاسلام ٠

— كما أن دعوته الى المواجهة تميل الى تربية وتدبير وتخطيط ، — ويتجنب فيها اظهار العداوة سافرة ، بل تغليفها بستار المودة والمحبة والأخوة والمساعدة بجميع انواعها ٠

وكان طابع خطتهم فى محاربة الاســـلام هو القوة فى المجالات العسكرية والاقتصادية ٠

فليت دعاة الاسلام يفهمون ويدركون ، فيخططون ، ويواجهون باسلوب علمى سليم !! ٠

* * *

الباب الحادى عشر

مستقبل الإسلام

* الدين والتقدم
* فى مجال السياسة

مستقبل الاســلام

وجاء فيه :

أ ـ الدين والتقدم :

يحملنا التطور الفكرى والسياسى المعاصر الى أن نتساءل عما اذا كان من الممكن أن يصمد الاسلام أمام المشاكل التى ظهرت فى المجتمع مع تطبيق الأساليب العصرية فى نظم الحياة الاجتماعية ! وغالبا ما يسمع المرء اجابات متشائمة ، تشك فى تغلب الاسلام على هذه الأزمة التى خلقتها الحضـــارة الحديثة • ربما يكون النقاد الذين يشكون فى قدرة الاسلام على مواجهة المشـــاكل الحضـــارية مبالغين فى تقدير انجازات العصر فى المجالات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية ، وعلوم الفضاء ، وغير مهتمين بالغرائز الدينية التى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ، ولا زال تأثيرها باقيا حتى الآن ، اذ يشعر المسلمون بالروابط الفكرية والروحية التى تربطهم ولا يخلو أحد من هذا الشعور حتى أولئك الذين تربوا على المناهج الأوروبية فى المدارس الحديثة ، وان بدا على مظهرهم أنهم خلعوا رداء الاسلام • وقد تساءل « س• ج• يونج » : لم لا ينبغى أن يتمركز الانسلام فى النفوس ، وقد ظل محور حياتها على امتداد قرون التطور الحضـــارى الطويلة ، فأصبح بالنسبة لهـــا سفينة الانقاذ من أخطار ما يحيط بهـــا من تيارات هوجاء ؟ • فهو وان كان كمونه فى اللاوعى غير مسلم الا أنه استمر فى بقائه ، فاذا ما تصرف المرء فى دائرة الوعى ضـــد مغالبته فى الانقاذ ، ظهر القلق فى حياة الفرد الروحية ، كما فى حياة الشعب بأسره • ومن هنا يخرج نوع من مفاجآت غير مأمونة العواقب ، كما تظهر آثار تفاعلات سيئة • وجدير بالذكر هنا أن التقاليد الاسلامية لا زال لها السيطرة على حياة الطبقات المتوسطة والطبقات الدنيا فى المجتمعات الاسلامية •

ربما تؤدى التحليلات الجادة والعميقة الى أن الرغبة فى حياة أفضل وقدرة المجتمع المتاحة لتحقيق مساواة بين المثقفين وغير المثقفين تقود الى اتباع أسلوب لرفع مستوى المعيشة يتجنب ــ فى الغالب ــ الاحتكاك بجوهر التقاليد ••• غير أنه مما لاشك فيه أن تغيير أسلوب

الحياة يؤدى الى تصادم ظاهرى ، فالفكر الاسلامى يعانى من صعوبة المواءمة بين المحافظ على التقاليد ، وبين ممارسة أساليب الحياة العصرية . فان نجح فى بعض المجالات ، فهو على حساب تنازلات عن بعض خصائص الحياة الاسلامية ، فلا زال الحد الأقصى لكلا الطرفين فى احتكاك مستمر ، اذ لا يرى بين الجانب السياسى والجانب الدينى الا الرفض القاطع من ممثلى كل جانب لما يراه الجانب الآخر أسلوبا لبناء الدولة ، وقانونا ينظم حياة أفرادها .

لو انحصرت المشكلة فى التقدم الاجتماعى فقط ، لأمكن حلها بأسلوب يرضى الجميع . ولكن ظهور النزعة القومية عقدها وباعد بين المسلمين ، فالحدود السياسية بين الأقطار الاسلامية حالت دون قيام وحدة ، فلحق الضرر بالناحية الدينية . فقد كان رباط الدين فى الماضى مقدما على ما عداه فى العلاقة بين الشعوب الاسلامية ، أما اليوم فتأتى الجنسية الاقليمية فى المقام الأول — فتفرق المسلمون الى مصريين وعراقيين وسوريين وفارسيين وأتراك ... الخ — ثم يليها الرباط الدينى فى المرتبة الثانية . ومن العقبات التى اعترضت طريق الوحدة أيضا على طول تاريخ الاسلام فشل الشيعيين والسنيين فى ايجاد طريق يجمعهما داخل اطار اسلامى موحد . نعم ! بذلت محاولات للتقريب بين رجال الدين الشيعيين وبين رجال الدين فى جامعة الأزهر فى القاهرة ، وكان التقارب وشيك الوقوع عندما كان آية الله «بوروجيردى Burudsehirdi على رأس رجال الدين الشيعيين ... ويمضى المؤلف فى سرد حياته ومركزه العلمى وسيطرته الروحية على أتباع المذهب الشيعى ، ورغبته فى جمع كلمة كلا المذهبين ، وتأثير جو العلاقات السياسية بين مصر وايران — ايجابا وسلبا — على السير فى هذا الاتجاه ، وكان آخرها ما شاع فى ايران من أن عبد الناصر يستخدم الأزهر فى الدعوة الى فكرة القومية العربية .

الحق :

الانشغال بالمصالح الخاصة ..

والانعزال السياسى ...

والنزاعات بين الجيران ..

ضررا بالعالم الاسلامى ..

وقد حدث نظيره فى العالم المسيحى ، عندما سالت الدماء فى الحروب التى وقعت بين الدول المسيحية الأوروبية فخلفت آثارا سيئة على الأفكار الدينية المسيحية •

يشتمل الاسلام على العناصر التى تمكنه من التغلب على كل ظواهر الأزمات المتعددة التى تخلقها له المدنية الحديثة ، ومن أهم تلك العناصر تماسك وحدته الفكرية التى تقف شامخة أمام كل التحديات ، فاذا نجح اندماج القديم مع الحديث فسوف يكون المستقبل له • أما اذا أهملت الأسس الدينية فسينهار الاسلام كقوة فكرية ، ولن يبقى سوى عدد من الدول المختلفة الاتجاهات بتطلعاتها الى التقدم وسوف يتنافى هذا الوضع مع التعاليم الدينية ، فيضطر علماء الدين الى معارضته ويتصارع كلا الاتجاهين — الدينى والقومى — فى دولة علمانية •

يعلن الاسلام أنه دين العقل ، ولكن أثبتت الأبحاث أن العقل المستنبط من الوحى شىء آخر غير العقل فى مجال التقدم الحضارى ، فالثيوقراطية ، والنظم الحديثة يرفضان الامتزاج فى بعضهما ، لأن القانون الخالد الذى جاء به القرآن يصعب تطبيقه فى مجالات متطلبات العصر الحديث وخاصة أنه فسر تفسيرات عديدة على امتداد القرون الطويلة ، لدرجة أن كثيرا من أحكامه أصبح غامضا أو غير محدد المعنى • ويبذل العلماء جهدا كبيرا فى محاولة بيان أن نتائج الأبحاث الجديدة لا تختلف عما أخبر به القرآن الكريم ••• حتى رحلات الفضاء لم يتركوها دون أن يستخلصوا اشارات من القرآن الكريم تدل عليها • وعلى نتائجها •

يفتخر المسلمون باستمرار — بالنظام الاسلامى ، فاذا ما بدا فى التطبيق شىء آخر غير مقبول ، فانهم يلقون باللائمة على الاستعمار الغربى ، الذى سد الطريق الصحيح أمام تقدم الشعوب الاسلامية ، اذ لو ترك المسلمون وشأنهم ، فلربما حلت جميع المشاكل التى تواجههم اليوم • ومن الطبيعى أن هذا التصور الخاطىء — هكذا يقول المؤلف — الذى يجانب الحقيقة ، يدل فقط على الحيرة ، التى تسيطر فى العصر الحاضر على العلاقة بين الوحى والاتجاهات السياسية •

حصلت الدول الاسلامية على استقلالها بمساعدة الغرب فى وقت قصير نسبيا فدفعتها الحزبية السياسية الى قطع كل قطر علاقته بالقطر

الآخر ، ونزوعه الى اتخاذ طريق ذاتى منفصل عن الاطار الكلى للأقطار الاسلامية الأخرى ••• ومن ثم فقد وجد الانســـان — الذى تعود على حماية نفسه داخل المجموع الكلى — نفسه فجأة حرا يواجه أولئك الذين قطعوا صلته بالمــاضى ، ووضعوه فى الحاضر الذى فتنه ولكنه لم يستطع — حتى الآن — التغلب على مشـــاكله ، الأمر الذى قذف فى قلبه الخوف منه ، ومن هنا فقد نشأت موازنة بين العالم الاسلامى المعاصر ، وبين واقع الطابع الأوروبى •

لمــاذا يتطلع العالم الاسلامى الى الانجازات الحديثة ؟ •

لأنه شعر أن التراث ليس كافيا للتغلب على مشاكل الحياة المعاصرة •

فمن يسأل ، ينتظر الحصول على اجابة واضحة تقدم له المساعدة •

أما من لا يحصل على اجابة مقنعة ، فانه يشعر بالفراغ ، ويريد ملء هذا الفراغ بشىء آخر ، وليكن بالتقدم المــادى ، أو بالتوسع فى السلطة السياسية •

قد يكون الغرب مكروها فى الشرق نتيجة لعهود الاستعمار الطويلة ، ومع هذا يميل الشرق — بل يسعى جاهدا — الى تطبيق النظم السائدة فى الغرب للتغلب على مشاكل الحياة الجديدة ، وفى ثنايا هذا التطبيق استطاعت حضارة بل وأخلاق دين العالم الغربى أيضـــا السيطرة على المعطيات التاريخية الجديدة •

احتفظ الشرق فى الجانب الدينى بطابعه القديم ، وفى نفس الوقت ظهرت معالم الحضـــارة أيضا •

أما فى الجانب الثقافى فقد حدث العكس ، اذ سيطرت الظواهر الحديثة على الحياة الفكرية ، ولكنها لم تتنكر للماضى كلية ، بل بدت بعض معالمها فيه •

وهكذا تعاون كلا الجانبين فى بناء وتشكيل الحاضر ، الا أن معالم تاريخ العالم الغربى — الذى تخطى الآن مرحلة التوازن بين الجانبين — تبدو فى العالم الاسلامى المعاصر •

لمــاذا لم ينجح العالم الاسلامى فى التوفيق بين الدين والحضارة ؟ فالمسلم المحافظ أيضـــا يرى أن بامكان التكنولوجيا والعلم تحقيق فوائد

كبيرة لبلاده ، ولكنه يرفض — فى نفس الوقت — أن تتسرب عادات أجنبية الى أسلوب حياته ، غير أنه ليس من المستطاع منع المؤثرات الأجنبية عن الحياة الاجتماعية منعا باتا ، فقد بدأت الحياة فى المدن تتغير ، وقد تغيرت فعلا فى الفنادق ، كما أن الفقراء الذين يعيشون فى الأحياء الوطنية تراودهم الرغبة فى تغيير حياتهم ، التى ورثوها عن أسلافهم •

تجاوزت المؤثرات الأجنبية تغيير الصورة الظاهرية للحياة اذ غيرت أيضـــا جوانبه الجوهرية ، الا أنه لا يزال الفرق واضحا بين طابع الحياة ذى الصبغة الاسلامية وبين أسلوب الحياة الأوروبية ، ويستطيع كل من اتصـــل بهما أن يدرك ذلك ادراكا جيدا • فقد ظهرت معالم الحضارة الأوروبية فى حياة قطاع كبير من الشعوب الاسلامية •

٢ — فى مجال السياسة :

يتجاوب قطاع كبير من الجمـــاهير — ولكن ببطء — مع دعـــوة السياسيين الى التجديد ، ويرجع السبب فى تباطؤهم الى نومهم نومة أهل الكهف على امتداد قرون عدة فهم يفتحون أعينهم اليوم فجأة ليجدوا أنفسهم فى عالم مختلف تمام الاختلاف عما فى أذهانهم من صور ومظاهر عن الحياة فى جميع مجالاتها ، فأعصابهم لا تستطيع أن تتحمل هذا التغيير ، ولا يمكنهم هضمه بين يوم وليلة ، فهم يحتاجون الى التقاط أنفاسهم أولا ، كى يكونوا على استعداد للقيام بما يجب عليهم عمله • ومن هنا يوجد اليوم فى معظم بلاد العالم الاسلامى صراع كبير بين دعاة التجديد وبين جماهير الشعب • فليس من السهل كسب ثقة هؤلاء الناس فى المجال السياسى ، ولهذا فان من الأفضل التركيز على ما يرضيهم، ووعدهم بتحقيق أحلامهم •

يحتاج السياسيون الى اظهار :

غيرتهم على الدين •

واستعدادهم للدفاع عنه وعن تنفيذ أحكامه •

اذا أرادوا تأييد الجماهير لهم •

ومعنى هذا بالنسبة لهم أن يلعبوا على الجانبين ، ويحاولوا الربط بينهما فاذا ما نجحوا فى تولى سلطة الدولة ، فانهم يستطيعون تحطيم

قواعد الأسرة القديمة ، التى ترتكز على السلطة المطلقة لرب البيت ، وعن طريق هذا التكتيك يمكنهم جذب الشباب الى صفوفهم •

وبالاضافة الى هذا ينبغى مساندة كل عمل يؤدى الى تدعيم الادارة الجماعية فالدولة فى حاجة الى الشباب فى عملية التصنيع ، وكذلك فى الاصـــلاح الزراعى ويتطلب هذا العناية بالتعليم ، الذى يخدم هذه المجالات • ولمـــا كانت مشروعات التنمية فى حاجة الى أموال طائلة ، فقد اضطرت الدول الى الاقتراض من الخارج لأنها تريد الاسراع فى عملية النهضة ، اذ بقدر الاسراع فى عملية البناء يكون اجتيازها لمرحلة التبعية • وجدير بالذكر هنا أن البلاد الاسلامية تحتاج الى خبرة العالم الغربى ، فى هذا المجال •

لم تمر البلاد الاســـلامية بتطـــور عضوى تدريجى ، ولذا فهى مضطرة الى البناء من لا شىء ، لدرجة أن كثيرا من مشاريع التنمية ، تخضع للطابع الارتجالى اذ ليس هناك وقت كاف للتفكير الناضج ، فهم يريدون الاسراع بقدر ما يمكنهم للتغلب على التخلف ــ الذى بدت معالمه فى سنى الاستعمار ــ فى المجالات السياسية والاقتصادية • ومما يؤسف له أنهم يركزون ــ فى الغالب الأعم ــ على خصائصهم الذاتية ، فيعتقدون أنهم أحرزوا تفوقا ، لو بدا لهم بعض النجاح فى مواجهة القوى العظمى ، سواء كان ذلك عن طريق احراجها دوليـــا ، أو عن طريق الدخول معها فى نزاع سافر ، يتخذ مادة للدعاية السياسية • وبدلا من أن يفكروا ويبحثوا عن القوى الداخلية ، التى تمكن الغرب من فرض سيطرته على العالم الاسلامى ، فانهم يكيلون التهم جذافا ضد القوى الخارجية ، ولكن يوجد ــ لحسن الحظ ــ أصوات اسلامية ، تميل الى البحث عما وراء القوى الدافعة لحركة التاريخ فى العالم الغربى ، وتؤيد اقتباس ما يفيد من الفكر الغربى ، الذى أحرز نجاحا بأبحاثه وخبراته ، وانجازاته ، التى تبهر آذان العالم كل يوم بالجديد من المخترعات •

أفسحت التيارات القومية فى سنى ازدهارها الأولى الطريق تدريجيا للنقد العقلى ، كى تتابع الأعمال ــ التى كانت تسير فى معظم جوانبها حتى ذلك الحين بطريقة عشوائية ــ طبقا لخطة مدروسة بعناية ودقة ، وهذا يحتاج أيضا الى علماء ، وقد بدىء فعلا فى تكوين طبقة منهم ، تكون قادرة على تعليم أعداد أكثر ، يكون فى امكانها المساعدة فى تحسين مجالات الحيـــاة ، وما يبـــذل اليوم فى مجالات التربية الاقتصـــادية

والتيكنولوجيا . والسياسة . سوف تنضج ثماره فى الجيل القادم • فاذا ما اجتازت المجتمعات الاسلامية المرحلة الانتقالية التى تمر بها الآن ، فمن المحتمل أن ينتهى عصر التعصب ضد الناجحين فى مجالات الحياة •

لا زالت الفوارق الاجتماعية بين أولئك الذين لا زالوا فى حاجة الى المعونات الاجتماعية فى حياتهم ، وبين بنى وطنهم الأغنياء كبيرة جدا ، بدرجة لا تسمح بتكوين وعى وطنى سليم • فما زالت قلة من الناس تستأثر بخيرات هذا العالم والآخرون ينظرون اليهم نظرة حرمان وحسرة • والمسلم العادى — الذى اهتز ايمانه كانسان فى دوامة التطلعات الاجتماعية — لم يسلم تسليما مطلقا بأن تقسيم الناس الى غنى وفقير ، هو تحقيق لارادة الله • ومن هنا ارتفعت أصوات تنادى بالعدالة الاجتماعية فأدى ذلك الى ظهور اضطرابات فى جميع مناطق العالم الاسلامى •

ولكى يسد الطريق أمام العناصر المتطرفة ، التى يمكنها وقف نمو السلطة الاسلامية . فانهم يحتاجون الى سياسة حكيمة وقوية •

والطريق الى التغلب على المشاكل الداخلية أشق ، وأكثر صعوبة من السياسة الخارجية لأنه فى مجال السياسة الخارجية ، تحصل الشعوب الاسلامية على بعض الاستحسان من قوى أغمضت عينيها عمدا عن عدم أحقية هذه الشعوب لهذه المكانة فى الوضع الدولى ، نظرا لافتقارها الى الخبرة التى تؤهلها لذلك •

ومن مشاكل المستقبل أيضا عدم القدرة على فصل المسائل الداخلية عن السياسة الخارجية ، فهى متشابكة ، ومتداخلة ، فالاتجاه الاشتراكى ذو الطابع الاسلامى مهدد بالخطر ، مادام النزاع والشقاق قائما بين الدول الاسلامية ، اذ تحاول كل منها الحصول على وضع أحسن من غيرها فى السياسة الخارجية فيضطرها ذلك الى الوقوع تحت تأثير الأفكار والاتجاهات الأجنبية •

يعانى العالم الاسلامى اليوم انقسامات فكرية حادة ، اذ يتنازعه تياران متطرفان :

أحدهما : تيار علمانى ، وهو يدعو الى بناء الحياة على أسس علمانية متحررة من كل قيود التقاليد والعادات الاجتماعية القديمة لأنها فى رأى

أصحاب هذا التيار والداعين اليه من أكبر عوائق التقدم والانطلاق نحو بناء حضارة تساعدنا على اللحاق بركب التقدم الذى تخلفنا عنه قرونا ٠

ثانيهما : تيار دينى ، وهو يعارض كل ما يتصل بالتقدم الحضارى فأصحابه يرون أن مظاهر الحضارة فى المجتمع ليست الا فســادا فى الأخلاق ، وتفككا فى الأسرة وتوهينا للعلاقات الاجتماعية ، فالفرد فى المجتمع الحضارى الحديث يعيش لنفسه ، وينشد المنفعة الحسية لذاته ، لا يمنعه عنها دين ، ولا تحرمها عليه أخلاق ، فهو حر يفعل بنفسه ما يشاء فى اطار القوانين التى سنها نظام ، تنكر للآداب والفضيلة التى دعت اليها الأديان ، وصانها المجتمع بتقاليده القديمة ٠٠٠ ومن أجل هذا يرفضون الحضــارة حتى لا تفســد الأخلاق ، وتمحو الدين من حياة المجتمع ٠

ويرفض كل جانب ما يراه الآخر أساسا للحياة فى العصر الحديث ٠

فالعلمانيون يهاجمون رجال الدين ، ويرجعون سبب التخلف الى آرائهم التى أعاقت حركة التقدم الحضارى ٠

ورجال الدين يرمون أصحاب التيار العلمانى بأنهم يدعون الى الفساد والفوضى الأخلاقية فى المجتمع ٠

ولن يجتمعا ما دام كل فريق ينظر الى آراء الآخر نظرة ارتيــاب وشك ، دون أن يمحصها ويقيمها ليصل الى المبادىء الأساسية فيها ، ويقارنها بما عنده من أصول ومبادىء عامة ٠

ولن تهدأ نار العداوة المتأججة بينهما ، مادام هنا من يمدها بالوقود :

فكتاب الغرب — المهتمون بشئون المناطق الاسلامية ، والذين يكتبون عن الاسلام — يغرسون فى نفوس العلمانيين أن الاسلام هو العقبة فى طريق التقدم الحضارى وأنه لن يستطيع التغلب على المشاكل الحضارية التى تواجهه اذا ما نحا المسلمون نحو حياة حضارية ٠

كما يدفع سلوك عشاق تقليد ظواهر الحياة الأوروبية فى مجال الحرية الشخصية رجال الدين الى التصدى لكل ما يأتى من الغرب ، ومعارضته معارضة مطلقة دون تمييز بين ما يصلح وما يضر ٠

أوحى هذا الوضع أو على الأقل زرع الشك فى قلوب كثير من المسلمين — وخاصة من يتولون مراكز قيادية فى الدول الاسلامية — بأن

الاسلام يرفض الحضارة الغربية وينكرها ، لأن ما فيها يهدد وجوده ويناقض تعاليمه فى المجتمع أو يعجزه عن التغلب على ما تخلفه هذه الحضارة من مشاكل للمسلم الذى يتمسك بتعاليمه الدينية ومن ثم تتنازعه رغبتان : رغبة الاستمتاع بما أنتجت الحضارة الحديثة ، ورغبة التمسك بتعاليم دينه الذى يستولى على مشاعره ، ويمتلك عواطفه . وبين الشد الى هذا والجذب الى ذاك يسلك طريقا لا يقره دين ، ولا يتفق مع هدف الحضارة .

اذ يصبح الدين عنده عبادة جافة ، لا روح فيها . وان دبت فيه ــ حينا ــ مشاعر دينية ، فليست الا ثورة عاطفية ، وحماسا وقتيا .

ويبدو سلوكه الحضارى ممسوخا ، فهو يقتفى مظاهر الحضارة السلبية ويجرى وراء مخلفاتها الفرعية ، التى تدمر الفرد أكثر مما تصلحه، وتهدم كيان المجتمع ، بدل أن تساعد على تقويته وتماسكه .

فلو أن الأوروبيين الذين كتبوا عن الاسلام ،وعلاقته بالتقدم الحضارى التزموا الجانب الايجابى فى البحث وتثبتوا من مصادر معلوماتهم ، ونفضوا عنهم كلية آثار العداوة القديمة لتبين لهم أنه لا يقف عقبة فى طريق التقدم بل يدعو اليه ، ذلك أن التقدم نوعان :

تقدم مادى ، وهو القائم على التفكير والعلم ، والحضارة المادية ، قوامها العلم فى منهجه وتجاربه ومعامله ومصانعه .. الخ ولم يحرم الاسلام العلم ، بل دعا اليه . وحث عليه .

تقدم بشرى ، وهو وصول الانسان فى الخصائص الفكرية والوجدانية والسلوكية الى مرحلة أكثر تقدما من ذى قبل ، والاسلام كما يصوره القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة عبارة عن جملة من المبادىء ، لو اعتقدها الانسان وآمن بها وطبقها فى حياته تطبيقا عمليا واضحا لسار فى نموه حتما الى المرحلة الأخيرة من الاكتمال الانسانى . وهى مرحلة التقدم .

ولما كان التقدم المادي يحتاج الى ضوابط تضبط سلوكه وتكبح جماحه ، فلابد أن يصاحبه تقدم بشري ، وهو ماعنى به الاسلام فى تعاليمه وأحكامه .

ولما كان الاسلام قد أباح التقدم المادى وأرسى قواعد التقدم البشرى — فهو — بهذا — لا يعارض الحضارة الا فى جوانبها السلبية ، المدمرة لحياة الفرد والأمة ٠

فلو عرف العلمانيون هذا لأدركوا أن ما يقرأوه فى كتب الغربيين من تعارض بين التمسك بالاسلام ومباشرة الحياة الحضارية هو رأى خاطىء لا يصدر الا من جاهل بالتعاليم الاسلامية ، أو عدو للاسلام يريد أن يتنكر المسلمون لدينهم عن طريق الايحاء لهم بأنه لا يصلح للحياة العصرية ٠

ولو اهتم علماء الدين بدراسة الفكر الحضارى ، لأدركوا أن للحضارة ناحيتين :

أولاهما : ايجابية بناءة ، تخدم الانسان فى حياته ، وتساعده فى التغلب على مشاكل العصر ٠

وثانيتهما : سلبية مدمرة :

ولو عقلوا هذا لميزوا بين ما هو نافع فيقبلوه ، وما هو ضار فيرفضوه ٠ وبذلك يقطعون الطريق على أولئك الذين يأخذون رفضهم الكلى للحضارة دليلا على رفض الاسلام للتقدم ، لأن رفض رجال الدين المطلق أدى الى ظهور جبهتين اتخذتا هذا الرفض سلاحا تحارب به الاسلام :

الجبهة الأولى : المفكرون الغربيون الذين يكتبون عن الاسلام ، فهم يستندون الى موقف رجال الدين من قبول الحضارة الحديثة فى بيان أن الاسلام يرفض التقدم ، ويعارض كل ما أنتجته النهضة الحديثة، وهو بهذا — هكذا يستنتجون — سبب من أسباب التخلف ٠ ومن الطبيعى أن يكون لهذا الرأى أثر كبير فى توجيه العلمانيين فى العالم الاسلامى ٠

الجبهة الثانية : رجال الحكم فى العالم الاسلامى ، فهم ينهجون فى الدولة منهجا علمانيا ، لأنهم رأوا أن موقف رجال الدين من المتطلبات العصرية فى الدولة ، يعوق حركة التقدم ٠ فليس للدين مكان عندهم — أى عند رجال الحكم — الا فى مجال كسب الرأى العام ، وفى مواطن اثارة الشعب عاطفيا للوصول الى هدف معين ٠

ولهذا كله فان رجال الدين مطالبون اليوم بتحديد مفاهيم الحضارة والتقدم مع القيام بشرح للقرآن الكريم والأحاديث النبوية شرحا غير مقيد بعصر معين ، ولا مرتبط باتجاه خاص ، بل طبقا لروح الوحى وأهداف الرسالة السماوية ، التى أرادها الله لعباده •

وليست هذه المهمة من السهولة بمكان ، بحيث يستطيع القيام بها أفراد ، بل لابد من هيئات تتكاتف وتتساند فى انجازها ، والا فسوف تعصف بنا رياح العصر الى مجهول ، لا يعلم ما فيه الا الله سبحانه وتعالى •



محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٣٤/٨٠

مطبعة
دار التراث العربي
٩٣٦١٤٥٠